التكرير

بين المثير والتأثير

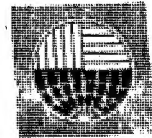
تأليف
الدكتور عز الدين علي السيد

عالم الكتب

التكرير

بين المثير والتأثير





بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

الطبعة الأولى
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله دقت صنعته ، وجلت حكمته ، فكل شيء عنده بمقدار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه النجب الأخيار .

أما بعد ، فقد رأيت ظاهرة التكرير ـ أو التماثل بالمعنى الأدق ـ تنتظم الحياة كلها بوصف يلفت لب اللبيب ، وعلى نسق يجعل هذه الظاهرة قانوناً لاعتدال الكون ، وسنة من سنن اطراده ، فحررت مقالين حول هذا الخاطر ، في صحيفة (الدعوة) الرياضية ، عنوانهما : (التكرار وملحمة الوجود) وقد زعمت إذ ذاك أنهما يستنفِدان طاقة استيلاء الفكرة على نفسي ، ولكن ما لبث هذا الزعم أن تلاشى ، أمام انحياز النظر الى زاوية التكرير الصوتي في الكلام ، فكان أن تركت القلم في أصابع الفكرة ، التي ما أطالت حتى سجلت هذه الصفحات .

ومما يفرض على كاتبها أن يشير إليه ، أنّ إظهارها اليوم في كتاب مطبوع لا يَعْني أنها في مكان النضج والرضى لأنها بلغَتْ الرُّشد حسناء فارعَة ، بل يعني خوفَ لحاقها في التبعْثرُ والضياع بأمثال لها كثر ، حسبت أن المستقبل كفيل بعودتي إليها أستكمل النقص وأسُدُّ الخلل ، فكان الاشتغال عنها ساعد الزمن في بوارها ، والزمن كلما مَرَّ مَرٌّ ، فلتكن هذه الصفحاتُ ـ على هناتها ـ باعثَ عزم فَتيٍّ ، لمن يُحسن النقد ويُكمِل النقص ، وبالله العون ، ومنه السداد ، وهو الذي بنعمه تتم الصالحات .

النعام في غرّة رمضان ١٣٩٧ هـ

المؤلف

التكرير الصّوتيُّ في اللغة

التكرير ـ أو التماثل ـ الصوتيُّ أمر لازم في لغة البشر ، فإن المعاني ـ من ناحية ـ أوسع مدى من الألفاظ ، وهذا يستدعي إعادة الألفاظ على أوجه مختلفة من الهيئات أو الدلالات المجازية والرمزية لاستيفاء المعاني . كما أنها ـ من ناحية أخرى ـ متكررة في الحديث الواحد عند قصد التأكيد ، وعند وقوع الشركة في الموصوف أو الصفة متى أريد النص واستقلال الأفراد دون تثنية أو جمع ، ولا شك أنه مقصد له ما يبرره من الأسباب .

ولما كانت الحروف التي هي مادة تركيب الكلمة والكلام محصورة في عدد محدود ، لا يصل في لغتنا إلى الثلاثين ، فإن هذه الحروف لا بد أن تعود ثم تعود[1] في الكلام المؤلف منها ، وعودة الحرف في الكلمة الواحدة أو في الكلام أقرب للتصور من عودة الكلمة في الجملة أو في الكلام ؛ لأن وضع الكلمات التي تكرر فيها الحرف قد فرغ منه ـ أو كاد ـ بالفراغ من وضع اللغة ، وعودة الكلمة في

---

(١) إن الحرف أو اللفظ المنطوق أو المكتوب ، قد ذهب بذهاب حيِّزه من الزمان والمكان ، فليس هو ذاته العائد ، وإنما العائد مثيله في الشكل أو الصوت ، فإطلاق لفظ التكرير أو المكرر أو عودة الحرف ـ مبناه المجاز المشهور ، فالتكرير وما ماثله عائد على النوع باعتبار أفراده ، وليس واقعاً على شخوص الأفراد لعدم قبولها إياه ، وكان اللفظ الأحق هو (التماثل) إلا أني آثرت عليه المجاز المشهور ، الذي أصبح في مكان الحقيقة العرفية .

الكلام موصول بحياة البشر ، ما عاشوا معبرين عن الصلة بين أنفسهم والحياة ، وبين بعضهم وبعض .

ولو صح أن نتخذ ميزانا تقريبياً للنسب التكرارية لحروف الهجاء العربية ـ وقد شغلت القواميس التكرارية أذهان المحدثين من علماء اللغة في العالم ـ لكان ما صنعه الأسلاف من حصر الحروف في القرآن مثلا صالحاً ، وقد لا تفترق طوال النصوص كثيراً عن القرآن في نسبة تكرار الحرف ، وهذا الجدول الذي رتبته ترتيباً نسبياً يوضح لنا تلك الصورة ، وهي تخالف ما قد يتخيله كثير منا لدوران بعض الحروف في الكلام قلة أو كثرة ، لما يراه في نص قصير يحكمه طابع خاص ، يقتضي اللين أو الشدة ، أو الكلمات ذوات الجرس المناسب لطاقة الشعور .

لقد وجدوا[١] كلمات القرآن أربعين وأربعمائة وستا وسبعين ألفاً (٧٦٤٤٠) تتكون من اثنين وثلاثين وثلاثمائة حرف بعد اثنين وعشرين وسبعمائة ألف حلف (٧٢٢٣٣٢) وهذا العدد هو المنسوب إليه في جدولنا ، ومن المعلوم أن لغة الكتاب المبين أصفى المأثور من كلام العرب ، ولهذا لا نرى أن بذل الجهد في نسب التكرار من كتاب آخر مما يفيدنا الآن بما يعادل النفقة ، وما المسألة إلا لافتة رأيت مكانها من البحث يطلب التنبيه عليها ، لعلها تثير لدى أهل التخصص رغبة نحو التحقيق في صورة أكمل .

(١) الكشكول : ١٩٣ ـ وينظر الاتقان : ١ : ٧٠

الحرف	مرات التكرار	الحرف	مرات التكرار	الحرف	مرات التكرار
أ	٤٠٧٩٢	ز	٩٥٨٣	ق	٥٢٤٠
ب	١١٤٠	س	٤٥٩١	ك	٢٢٠٠٠
ت	١٢٩٩	ش	٢٥١٣٣	ل	١٤٥٩١
ث	١٢٩١	ص	١٢٨٤	م	٢٠٥٦٠
ج	٣٢٩٣	ض	١٢٠٠	ن	٢٠٣٦
ح	١١٧٩	ط	٨٤٠	هـ	٧٠٠
خ	٢٤١٩	ظ	٩٣٢٠	و	١٣٧٠٠
د	٤٣٩٨	ع	١٠٢٠	ي	٥٠٢
ذ	٤٨٤٠	غ	٧٤٩٩		
ر	١٠٩٠٣	ف	٢٥٠٠		

بالترتيب من الأكثر تكررا

الحرف	مرات التكرار	الحرف	مرات التكرار	الحرف	مرات التكرار
أ	٤٠٧٩٢	ق	٥٢٤٠	ص	١٢٨٤
ش	٢٥١٣٣	ذ	٤٨٤٠	ض	١٢٠٠
ك	٢٢٠٠٠	س	٤٥٩١	ب	١١٤٠
م	٢٠٥٦٠	د	٤٣٩٨	ح	١١٧٩
ل	١٤٥٩١	ج	٣٢٩٣	ع	١٠٢٠
و	١٣٧٠٠	ف	٢٥٠٠	ط	٨٤٠
ر	١٠٩٠٣	خ	٢٤١٩	هـ	٧٠٠
ز	٩٥٨٣	ن	٢٠٣٦	ي	٥٠٢
ظ	٩٣٢٠	ت	١٢٩٩		
غ	٧٤٩٩	ث	١٢٩١		

تكرير الحَرف

تَعْرِف معاجم العربية ويعرف صرفها من تكرير الحرف في الكلمة صيغاً وأوزاناً كثيرة العدد تحت كل منها وفير من الكلمات .

من ذلك : المضعف الثلاثي ، وقد عرفه السيوطي بحسب القسمة العقلية فقال : « ما اتحدت فاؤه وعينه ، أو فاؤه ولامه ، أو عينه ولامه »[1] لينطبق على ماورد قليلاً أو كثيراً ، مثل : ببر ، وددن ، ودعد ، وسلس ، وعلل ، وبلل .

وهو في الأفعال ما اتحدت في الجنس عينه ولامه ـ وما أكثره ـ والتكرار فيه مرة واحدة .

كما عَرَفَتْ لغتنا المضعف الرباعي ، وهو ما تركب من مقطع ثنائي مكرر : أي ما كانت فاؤه ولامه الأولى من جنس ، وعينه ولامه الثانية من آخر . والتكرار فيه مزدوج ؛ إذ حديثنا في تكرار الحرف .

فإذا لوحظت كثرة أفراد هذين النوعين ، مع مزيد كل منهما بحرف أو أكثر ، ومع كل المشتقات المماثلة في التضعيف .

وإذا لوحظ أن نوعاً آخر من تضعيف عين الثلاثي يأتي على القياس لمعان كتعدية اللازم، وقد يقع على المضعف أصلا كما يقع على الخالي من التضعيف فيزيد التكرار تكراراً.

---

(١) المزهر : ٢ : ٥ ـ دار إحياء الكتب العربية .

إذا لوحظ هذا ايضاً مع مشتقاته ـ رأينا وفرة الكلمات التي يتكرر فيها الحرف في هذه اللغة .

على أن هذا ـ وقد كثر ـ ليس كل ما يحصل فيه التكرار من مفرداتنا ؛ إذ لنا منه عدد كبير في الألفاظ المزيدة بقصد الإلحاق ، كما أن لنا عدداً كبيراً من الكلمات المضعفة اللام للمبالغة في الوصف ، كثلاثيات الألوان والعيوب وغيرها ، التي تنقل إلى وزن (افعلّ) الخماسي ، أو (افعالّ) السداسي ، مع مشتقاتهما ، والتي تجيء على وزن (افعوعل) السداسي ، مع الأسماء الجارية عليه ، إلى كثير غير ذلك يقف عليه الناظر في كتب المقاييس والمعاجم .

وإن مما يؤكد حسن التكرار والإبقاء عليه لما له من مزايا ، أن نرى من رجال الفكر اللغوي في العصر ، من يطالب بإحياء صيغة (فعلعل) : كعصبصب ، وغشمشم ، وسمعمع ، وعرمرم ـ باستعماله في كل وصف يكثر تحلي صاحبه به[1] .

وأسماء الحروف العربية ، منها ما حصل على التكرار : كالميم والنون ، وما يشارك غيره في حرف أو حرفين : كالدال والذال ، والسين والشين ، والصاد والضاد ، والعين والغين . . . ومنها ما يجمع الزوج أو الثلاثة في تكرار الشكل خطا فلا يتميز إلا بالإعجام .

وكلمة عنوان بحثنا « التكرير » ومرادفها العام « التكرار » ـ وإن فرق بينهما فقها ـ يظهر في كل منهما حرف الراء مرتين ، والراء بذاته حرف له صفة التكرار ؛ لأنه عند النطق به ساكنا لتحديد مخرجه ، لا يقطع صوته اللسان بالتقائه تماما مع مقابِلِهِ من الفك الأعلى ، بل يظل مرتعشاً به زمناً ما كأنه يكرره .

---

(١) نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ .

مزية التكرير الحرفي

لتكرير الحرف في الكلمة مزية سمعية وأخرى فكرية ، الأولى ترجع إلى موسيقاها والثانية إلى معناها .

القيمة السمعية في لغتنا :

يشير الجاحظ في (البيان والتبيين) إلى هذه القيمة حين يقول :

« الصوت هو آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف»[١] .

والذين درسوا هذه اللغة من أهلها ، يعرفون لها ميزة الجمال والسخاء ، على الحد الذي يقول فيه ابن سنان : «وقد تُصُرِّفَ في هذه اللغة بما لم أظنه تصرف في غيرها من اللغات ، فلم توجد إلا طيعة عذبة ، في كل ما استعملت فيه نظما ونثرا ، وهي إلى الآن لا تقف على غاية في ذلك ، ولا تصل إلى نهاية ، كما قال أبو تمام :

ولكنه صوب العقول إذا انجلت   سحائب منه أعقبت بسحائب[٢]

وقد يقال : إن هذا الكلام وما أشبهه من ثناء العلماء على لغتهم ضرب من

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٧٧

(٢) سر الفصاحة : ٤٦

التعصب ، الذي هو شأن كل أمة مع لغتها ، غير أن الذين يدرسون هذه اللغة من غير أهلها ، يرون غناها بالخصائص السمعية ومنهم (بلاشير) الذي يقول : « إن اللغة العربية أداة قوية وغنية بالأصوات التي تدفع الى التماس الأنغام الموسيقية »[١] وفي هذه المزايا يقول العقاد :

« إن التركيب الموسيقي أصل من أصول هذه اللغة لا ينفصل عن تقسيم مخارجها ، ولا عن تقسيم أبواب الكلمات فيها، ولا عن دلالة الحركات على معانيها ومبانيها بالإعراب أو بالاشتقاق »[٢] .

« ولولا جريان اللغة في ألفاظها وتراكيبها على السليقة الموسيقية ، لما تيسر ذلك (الإيقاع العروضي) للشاعر الجاهلي بالأمس ، ولا للزجال الأمي في هذه الأيام[٣] .

« وأبلغ من كل ما تقدم في الإبانة عن معدن اللغة العربية ، وعن هذه الخاصة الفنية فيها ، أن أوزانها تتفق في كل ترتيل فصيح ، ولو لم يكن شعراً مقصوداً ، كما اتفقت في آيات كثيرة من القرآن الكريم .

وينبغي أن يؤمن المسلم وغير المسلم ، بأن القرآن الكريم لم يكن شعراً « وما هو بقول شاعر » كما جاء فيه ، وكما جاء في كلام الرسول الذي أوحى إليه »[٤] :

حقا إن كل حرف له صوت ، ترجع طبقته من التنغيم الى مخرجه من جهاز النطق ، وقد قام العلماء بتشريح هذا الجهاز ، وبيان المخارج التي تنتسب إليها

---

(١) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي : ٤٨ ـ دار الفكر ١٩٥٦
(٢) اللغة الشاعرة : ٣١ ط مخيمر
(٣) نفسه : ٣٢ .
(٤) نفسه : ٣٣ .

حروف الهجاء العربية ، وكأنها أوتار يعزف عليها اللسان فيخرج من كل وتر صوت ، فتسمع الأذن من هذا همسا ومن هذا جهارة ، ومن أحدها رخاوة ومن الآخر شدة ، وتأليف الكلمة من حروفها كتأليف اللحن من نقراته ، كل يعبر تعبيراً تحسه الأذن ويفسره العقل والوجدان التفسير اللائق بإيقاعه .

صلة ذلك بالتكرار الحرفي :

كما أن عودة النقرة على الوتر تحدث التجاوب مع سابقتها ؛ فتأنس الأذن بازدواجهما وتآلفهما ، فإن عودة الحرف في الكلمة تكسب الأذن هذا الأنس ، لو لم يكن لعودته مزية أخرى تعود إلى معناه ، فإذا كان مما يزيد المعنى شيئاً ، أفاد مع الجرس الظاهر جرساً خفياً لا تدركه الأذن وإنما يدركه العقل والوجدان وراء صورته .

وقد وضعت مفردات اللغة في الأعم الأغلب ـ ما كرر فيه الحرف وما خلا عن التكرير ـ وضعا يجانب النشاز الصوتي ، الذي يقلق الأذن وينفر منه الوجدان ، فإذا نظرنا في قاموس ما تكرر فيه الحرف ، مع قصر الصيغة كمضعف الثلاثي ، ومع طولها كما في الخماسي والسداسي ، لا نجد ثقلا يبهظ السمع ، ولا تنافراً يرهق النفس ، فقد تجنبت أنواعاً من التركيب لا يسلس بها نطق الألفاظ ، كما أشار إلى ذلك علماء فقه اللغة في (الاشتقاق الكبير) وندر ما تنافرت حروفه من الكلمات ، التي يمثل بها علماء البلاغة والنقد ، لخروج الكلمة عن الفصاحة بسبب تنافر حروفها ، حتى يكاد من شاء حصر هذا النوع في صفحة أو ما قاربها ـ أن يحصل على مشيئته ، ومع هذا فإني مع الجاحظ في قوله :

« وليس في الأرض لفظ يسقط ألبتة ، ولا معنى يبور ، حتى لا يصلح لمكان من الأماكن »[1] .

---

(١) البيان والتبيين ١ ـ ٩٣ .

النون والميم :

ومن أكثر الحروف ارتباطا بالصوت ـ فيما نشاهد ونتكلم ـ حرفا (النون والميم) حتى نراهما في أكثر المفردات اللغوية على درجة كبيرة من تعديل الصوت وتلطيفه . والنون كثيراً ما نراه مكرراً في الكلمات الدالة على نوع من الصوت ذاته .

قال الثعالبي في (فقه اللغة) :

« إذا أخرج المكروب أو المريض صوتا رقيقا فهو الرنين ، فإن أخفاه فهو الهنين ، فإن أظهره فخرج خافتاً فهو الحنين ، فإذا زاد فهو الأنين ، فإذا زاد في رفعه فهو الخنين »[١] .

كما نراه في مصادر الصوت من المضعف الرباعي كالطنطنة والدندنة وسواهما .

والتنوين والنون يصاحبان الغنة ، وهي نغم شجي تعشقه الأذن وتلذه النفس ، ولذلك يكثر دخوله في تركيب مفردات اللغة تطريباً وتشجية ، فنرى منه الكثير المكرر في تضاعيف الكلام وقوافيه ، وقد توفر للقرآن منه أكبر ما يرى في قول قائل ، ولحب الوجدان العربي للنون وصوتها ، الحق بالقوافي المطلقة نوعاً منها سماه تنوين الترنم .

وقد فطن لهذا علماء اللغة من القدم ، ومن ذلك ما يقوله السيوطي مدعوماً بكلام سيبويه :

« كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكن مع التطريب بذلك ، كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنموا

---

(١) فقه اللغة : ٢١٨ .

يلحقون الألف والياء والنون ، لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء القرآن على أسهل موقف وأعظم موقع »[1] .

موضع الحرف المكرر :

والحرف المكرر في الكلمة الواحدة ، إما أن يجيء على التتابع وإما أن يجيء على الانفصال ، وكلاهما في أصل الحسن سواء ، فنرى مما تتابع فيه التكرار ، كل المضعف الثلاثي وما تفرع عنه ، وطائفة كبيرة من الأسماء ، وأخرى من الأفعال الناقصة تائية العين الملحقة بتاء التأنيث مثل : (أتت) و(عتت) وكل ما كان على (فعيل) يائي اللام .

وقد جاء من هذه الألفاظ في بليغ القول ما عذب جرسا وطاب نغما ، فمن المضعف من حرف (الدال) في محل الفاصلة وهي مكان الجرس المتحد ومن سورة واحدة هي سورة (مريم) :

﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلعَذَابِ مَدّاً ﴾ (٧٩)

﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِم ضِدّاً ﴾ (٨٢)

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ﴾ (٨٩)

﴿وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴾ (٩٠)

﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُم وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ (٩٤)

﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدّاً ﴾ (٩٦)

﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ (٩٧)

فضلا عن أمثلة منه مختلفة تراها خلال هذه النصوص .

---

(١) معترك الأقران ١ : ٥٣ .

بل انظر إلى التكرير دون إدغام في مثل :

﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ (١١ : الجن)

﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (١٠٩ : الكهف)

﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدَا ﴾ (٢٨ : الجن)

﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ (٦٩ : النحل)

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِم ظُلَلٌ ﴾ (١٦ : الزمر)

وهذه أمثلة من وزن « فعيل » وما يشبهه مما تكرر فيه الياء ، وعلى الأخص في مواضع التطريب وهي الفواصل ـ نراها كذلك في سورة (مريم) :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ (٣)

﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ (٤)

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً ﴾ (٥)

﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ (٦)

﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ (٧)

﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (٨)

بل انظر الى تجاور الحرف ثلاث مرات فيما ضعفت عينه من الثلاثي المضعف أصلا في قوله تعالى :

﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ (١٤ : يس)

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (١٠٩ : التوبة) .

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ (٢ : الهمزة)

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ (٩ : الهمزة)

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلغَمَامَ ﴾ (٥٧ : البقرة)

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغَمَامَ ﴾ (١٦٠ : الأعراف)

وشبيه ذلك في الشعر :

قول الحطيئة يمدح آل شماس : (مع الإدغام)

أقِلُّوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللوم أو سُدّوا المكانَ الذي سَدُّوا
أولئك قوم إن بَنَوْا أحسنوا البنى ... وإن عاهدوا أَوْفَوْا وإن عقدوا شَدُّوا
وإن كانت النعمى عليهم جزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدُّوا
وإن قال مولاهم على كل حادث ... من الدهر ردوا فضل أحلامكم ردوا

وقول ابن الرومي (مع الفك) :

تلوح في دولة الإسلام دولتكم ... كأنها ملة الإسلام في الأمم

والمتنبي :

جاد الأميرُ به لي في مواهبه ... فزانها ، وكساني الدرع في الْحُلَلِ

ومحمد بن حازم :

سقيا ورعيا لأيام الشباب وإن ... لم يبق منك له رسم ولا طَلَلُ

ومن مُضعَف الياء قول الميكالي :

أقول لشادن في الحسن فرْدٍ ... يصيد بلحظه قلْبَ الكميِّ
ملكت الحسْنَ أجمعَ في نصابٍ ... فأدِّ زكاةَ منظرك البهيِّ
وذاك بأن تجودَ لمستهام ... بِرَشْفٍ من مُقَبَّلك الشهي
فقال : أبو حنيفةَ لي إمامٌ ... وعندي لا زكاةَ على الصبيِّ

وقول أبي الفضائل أحمد بن يوسف ، وقد استغل فواصل سورة (مريم)

لستُ أنسى الأحبابَ ما دمت حيا إذْ نَوَوْا للنوى مكانا قصيا
وَتَلوْا آيةَ الدموع فخروا خيفةَ البين سجداً وبكيا
وبذكراهُم يُسَبِّح دمعي كلما اشتقت بكرةً وعشيا
وأناجي الإلَه مِنْ فرْطِ حزني كمناجاة عبْدِهِ زكريا
واختفى نورُهم فناديت ربي في ظلام الدجى نداءً خفيا
وهَنَ العظم بالبعاد فهبْ لي رب بالقرب من لدنك وليا
واستجب في الهوى دعائي فإني لم أكن بالدعاء منك شقيا
قد فَرَى قَلْبيَ الفراقُ وحقا كان يوم الفراق شيئا فريا
ليتني مت قبل هذا وأني كنت نسْياً يوم النوى منسيا

ومع الانفصال :

ومع انفصال المكرر نرى الكثير الذي منه .

﴿ **مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيكُم بِلَيْلٍ تَسكُنُونَ فِيهِ** ﴾ (٧٢ : القصص)

﴿ **نٓ . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ (١ : القلم) .

﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ** ﴾ (١٠ : القارعة)

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمُ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ (٢٣ : الروم)

﴿ **فَتَولَّ عَنْهُم فَمَا أنتَ بِمَلُومٍ** ﴾ (٥٤ : الذاريات)

﴿ **فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾ (١٤٢ : الصافات)

﴿ **وَمَقَامٍ كَرِيمٍ** ﴾ (٥٨ : الشعراء)

﴿ **وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً** ﴾ (٣ : الفتح)

﴿ **وَلَكُم فِي القِصاصِ حَيَاةٌ** ﴾ (١٧٩ : البقرة)

﴿ **أن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ** ﴾ (٩٧ : طه)

﴿ اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً ﴾ (٦٤ : غافر)

﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجاجٌ ﴾ (٥٣ : الفرقان)

﴿ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ (٣١ : المرسلات)

﴿ وَجزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ (١٢ : الإنسان)

﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً ﴾ (١٣ : الإنسان)

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيهم ظِلالُها وَذُلِّلَت قُطُوفُها تَذلِيلاً ﴾ (١٤ : الإنسان)

﴿ وَأَنزَلْنا مِنَ المُعصِراتِ مَآءً ثَجّاجاً ﴾ (١٤ : النبأ)

﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنوَانٍ ﴾ (٤ : الرعد)

وإليك من الشعر شبيه ذلك :

قال السموأل .

تعيرنا أنا قليل عديدنا   فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل

ابن الطثريه .

أليس قليلا نظرةٌ إن نظرتها   إليك وكلا ليس منك قليل
فيا خلة النفس التي ليس دونها   لنا من أخلاء الصفاء خليل
أما من مقام أشتكى غربة النوى   وخوف العدى ـ فيه إليك سبيل

ابن خفاجة :

ألا ساجِلْ دموعي يا غمام   وطَارِحْني بشجوك يا حمام ؟
فقد وفيتها ستين عاما   ونادتني ورائي : هل أمام ؟

طرفه :

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل
وأن لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

موقف العلماء من هذا التكرير

هذه الأمثلة القليلة التي يعود فيها صوت الحرف في الكلمة طيب الوقع ، يختلف العلماء فيما تجاور فيه الحرفان منها ، متجانسين أو متقاربي المخرج ، فيتهم بعضهم هذا النوع بالثقل ، ولا أوافقهم - على الإطلاق - وهم يجعلون هذا الثقل سبب الإدغام عند توفر شروطه .

قال العيني في (ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح)[1] .

« واعلم أنه إذا اجتمع حرفان من جنس واحد أو متقارب في المخرج ، يدغم الأول في الثاني لثقل المكرر . وذلك لأنه ثقل عليه التقاء المتجانسين لما فيه من العود إلى حرف بعد النطق به ، وشبهه الخليل بوطء المقيد ، فإن المقيد يمنع من توسع الخطو » فيصير كأنه يعيد قدمه إلى موضعها الذي نقلها منه ، وذلك ما يشق على النفس ، وشبهه بعضهم بوضع القدم ورفعها في حيز واحد ، وبعضهم بإعادة الحديث مرتين فكل ذلك مستكره . فلذلك صارت الحروف المتباعدة في المخرج أحسن في التأليف مما تدانت مخارجه » .

وهذه القضية من المردد المعاد ، منذ أثارها سيبويه والخليل ، ينقلها بعض العلماء عن بعض بذلك التعليل ذاته .

ونستطيع أن نرد هذا الإطلاق بأمور :

١ -أن الثقل المنافي لحسن الجرس ليس سببه تكرار الحرف والاطراد،

---

(١) مجلة المورد : العدد الثاني سنة ١٣٩٦ هـ ص ١٧٥ .

وعدم اطراده ظاهر في كثير من الألفاظ التي تجاور فيها المتجانسان دون أدنى ثقل ، بل أكسبها تجاورهما حسن الجرس ، كما شهدناه قبل .

٢ ـ إنما نشأ الثقل من تكيف المتجانسين بالحركات ، بدليل عودة الخفة مع فك الإدغام في المضعف الثلاثي ، إذا اتصل بضمير رفع متحرك ، لسكون الثاني منهما . كما أن الإدغام ليس مُوجِبَةُ اجتماع المتجانسين في ذاته ، وإلا لاطرد ، وعدم اطراده ظاهر ، ولذلك اتخذوا من أوصاف المتجانسين الأخرى شروط الإدغام.

٣ ـ أن اللغة قد حرصت على قلب أحرف بعينها ، وإدغام أخرى ، للحصول على التكرار بتجانس الحرفين متجاورين ، ولو كان اجتماع المتجانسين ثقيلا لما احتالت لتوفيره تخفيفاً وتحسيناً للجرس .

يظهر هذا في أماكن منها ما أشتهر تطبيقه على كتاب الله : من إدغام النون الساكنة والتنوين بالغنة إذا تلاهما حرف من حروف (ينمو) ، ودون الغنة إذا تلاهما اللام أو الراء .

ومثله ما يسميه علماء التجويد إدغام المتجانسين ، ويوجبونه متى سكن السابق منهما في ستة مواضع :

(١) في الدال الساكنة قبل التاء ، مثل : « قد تبيَّن الرشد » .

(٢) في التاء الساكنة قبل الدال ، مثل : « فلما أثْقَلَت دَّعَوَا الله » .

(٣) في التاء مع الطاء ، مثل : « ودتَّ طائفة » .

(٤) في الذال مع الظاء ، مثل : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظَّلمتم . . » .

(٥) في الثاء مع الذال ، مثل : أو تتركه يلهث ذَّلك مثل القوم . . »

(٦) في الباء مع الميم ، مثل : « يا بني اركب مَّعنا » .

وكل ذلك مما يقلب فيه الأول من الحرفين ليجانس الثاني ، فيوفر بالتكرار والإدغـام حسن الجرس ويسـر النطق ، ولعله من المقـرر المعلوم أن الإدغـام لا يخرج الحرفين عن الحكم بالتكرير ، فلكل منهمـا صوتـه نطقـاً وسماعـا ، وإن خالهما غير المتأمل حرفاً واحداً .

ثقل الحركة وطلب التجانس

والثقل الناشىء عن الحركة معروف لدى العلماء ، وقد انتبه إليه الكثيرون ومنهم ابن الأثير ، وتبعه القلقشندي في مثال منه وهو قول أبي نواس :

ما أحلَّ اللهُ ما صنَعَتْ عيْنُه تلك العيشةَ بي
قتَلتْ إنسانُها كبدي بسهامٍ للردى صُيُبِ

حيث جمع « صائب » على (فُعُل : صُيُب بضمتين) دون « صوائب » أو « صائبات » أو « صُيَّب » مما قبح الكلمة فجاءت غثة كريهة ، نابية من السمع ، نافرة على اللسان[1] مع أنها لا تكرار فيها لحرف ، بل إن اللفظ المكرر فيه الياء ساكنا فمفتوحا وهو « صُيَّب » عُدَّ خفيفا حَسَنَ الجرْس في تمثيلهم ، ولذلك نراه كذلك جميلا عندنا في قول البحتري :

وقد زادها إفراطَ حُسْنٍ جوارُها خلائقَ أصفارٍ من المجد خُيَّبِ
وحُسْنُ دراريِّ الكواكبِ أنْ تُرَى طوالعَ في داجٍ من الليل غَيْهَبِ

كما نرى حسن تكرير الراء والياء في « دراريّ » ، والكاف في « الكواكب » .

ومما يتصل بثقل حركة دون أخرى ، ما لا أعرف كيف نسب فيه الثقل الى التضعيف في قول البطليوسي : « وقد أجاز أبو العباس المبرد وغيره في كل جمع

---

(١) صبح الأعشى : ٢٣٣ : ٢

من المضاعف على (فعل) (بضمتين) الضم والفتح لثقل التضعيف، فأجاز أن يقال : جدد ، وجدد ، وسرر ، وسرر . وقد قرأ بعض القراء « على سُرَرٍ موضونة »[١] .

وإذا كان الثقل والخفة راجعين إلى الحركة في اللفظ الواحد . يخف بالحركة ويثقل بالأخرى ، فلا اعتداد إذن بما نسب إلى التكرار من الثقل .

كما أن من أدلة الثقل بالحركة عند تكرارها ، وأدلة طلب تجنيس الصوت قول ابن يعيش : « وهم يكرهون توالى الحركات ، فيخلصون منه في كلمات كثيرة » ولنقرأ في شرح « الملوكي » له هذه السطور التي تحقق طلب التجانس لحسنه ، لا طلب التجافي والتباعد :

« إذا كانت فاء (افتعل) صاداً ، أو طاء أو ظاء ـ قلبت تاؤه طاء . . . والعلة في هذا الإبدال أن الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء من حروف الاستعلاء وهي مطبقة ، والتاء حرف مهموس منفتح غير مستعل ، فكرهوا الإتيان بحرف بعد حرف يضاده وينافيه ، فأبدلوا من التاء طاء لأنهما من مخرج واحد . . . وفي الطاء استعلاء وإطباق يوافق ما قبله ليتجانس الصوت ، ويكون العمل من وجه واحد فيكون أخف عليهم »[٢] .

هذا عمل قوم في إبدال حرف لا يجانس ما قبله في طبقة صوته بحرف يجانسه ، لأن التجنيس أخف وأجمل .

وللسبب نفسه يعكس الأمر قوم آخرون .

« قال أبو عثمان : « هذا هو الكلام الصحيح » ومن العرب من يبدل التاء إلى ما قبلها ، فيقول : اصَّبَرَ يصَّبر ومُصَّبر . واضَّرَب يَضَّرب ، ومُضَّرِب . . . » كأنَّ هؤلاء لما أرادوا ما ذكرناه من تجانس الصوت وتشاكله قلبوا الحرف الثاني إلى

(١) الاقتضاب : ٢١٠ .

(٢) شرح الملوكي : ٢١٦ ـ ٢١٨ .

لفظ الأول ، وأدغموه فيه ، لأنه أبلغ في الموافقة والمشاكلة »[1] .

ويقول ابن السيد في (الاقتضاب) :

« اصطفاق » افتعال من الصفق ، والطاء مبدلة من تاء الافتعال : أبدلت الطاء لتوافق الصاد التي قبلها في الاستعلاء ويتجانس الصوت ولا يتنافر »[2] .

ويقول : « والازدياد : افتعال من الزيادة ، وأصله « ازتياد » أبدل من التاء دال لتوافق الزاي في الجهر طلبا لتشاكل الألفاظ وهرباً من تنافرها »[3] .

وكذلك هم يصنعون في فاء (افتُعل) إذا كانت دالا ، أو ذالا أو زاياً . فالطائفة الأولى تقلب التاء دالا قلبا واجبا في مثل : ادَّرأ . واذكر ، وازدجر . والأصل : ادترأ ، واذتكر ، وازتجر ، قال ابن يعيش : « إنما وجب هذا الإبدال لما ذكرناه من إرادة تجانس الصوت وكراهة تباينه . . . »[4] ثم قال : « وقد حملهم طلب التجانس وتقريب الصوت بعضه من بعض ، على أن أبدلوا من التاء دالا في غير (افتعل) وذلك نحو (دولج)[5] في (تولج) كأنهم رأوا التاء مهموسة والواو مجهورة ، فأبدلوا من التاء الدال ، لأنها أختها في المخرج وأخت الواو في الجهر ، لتحصل المجانسة في الصوت ، وهذا قليل شاذ في الاستعمال وإن كان حسنا في القياس ، لكن لقلة استعماله لا يقاس عليه »[6] .

كما أنهم يكرهون توالي الحركات للثقل ، فيخلصون منه في كلمات كثيرة بتسكين حرف ، وقد ورد ذلك التخفيف بتسكين الأول قياساً مطردا في ثمانية أوزان وهي (انفعل ، وافْتَعل ، وافْعَلَّ ، واستفعل ، وافعالَّ ، وافْعَوَّعل ،

---

(١) نفسه : ٣١٨ .

(٢) الاقتضاب : ١٢ .

(٣) نفسه : ٩ .

(٤) شرح الملوكي : ٣٢٢ .

(٥) الدولج : كناس الوحش .

(٦) شرح الملوكي : ٣٢٥ .

وافعوَّل ، وافعنْلَلَ) لزمت أولها ، همزة الوصل لسكونه وإنما سكنت أوائلها لئلا يتوالى فيها أكثر من ثلاثة متحركات ، ألا ترى أنا لو حركنا النون من (انطلق) والطاء ، واللام ، والقاف لتوالى أربعة متحركات وذلك مفقود في كلامهم ؟ والباقي محمول على ما ذكر »[1] .

كما أن مما يدل على الثقل بالحركة قوله : « وليس في الكلام (فِعُل) كأنهم كرهوا الخروج من الكسر الذي هو ثقيل إلى الضم الذي هو أثقل منه »[2] وكذلك قول الأزهري : « والصلعة : موضع الصلع من الرأس ، وكذلك النزعة ، والكشفة ، والجلحة ، جاءت مثقلات كلها[3] أي محركات العين لا ساكناتها .

---

(١) شرح الملوكي : ٧٤ .

(٢) نفسه : ٢٤ .

(٣) تهذيب اللغة : ٣٢٠ : ٢ .

عودة إلى تكرير الحرف

إن تكرار الحرف لو كان ثقيلا بذاته ، لما جاز أن يتضمن قاموس اللغة هذا الحشد من الكلمات ، بل لما جاز أن يوجد المضعف الرباعي ومزيده وفروعهما ؛ فإن كل لفظ منها يتضمن تكريرين معا . والكوفيون يرون أن أصله المضعف الثلاثي الذي ضعفت عينه ، فحصل على ثلاثة أحرف من جنس بعد فائه ، فجاز إبدال مثل فائه من الأوسط قياساً غير مطرد موقوفا على السماع ، كما في : صرصر ، وقلقل ، وكمكم ، ونحوها .

وإذا كان هذا النوع سماعيا فمن أين لهم هذا الإبدال ، واطراد صحة المطابقة في أصل المعنى بين لفظ الأصل ولفظ البدل ؟

والذي يعنيني هنا أنهم أخرجوا الكلمة من تكرار إلى تكرار ، وكلاهما مستعمل في فصيح القول غير نافر .

أما البصريون ـ وأرى رأيهم ـ فإنهم يرون المضعف الثلاثي كلمة برأسها ، والمضعف الرباعي كلمة برأسها ، وهو أقرب لمجاراة الطبيعة وإلى التصور ، وقد ذكر رأييهما هذين العلماء ومنهم صاحب الاقتضاب[1] .

أما ما ورد من المضعف مضعف العين في فصيح الكلام فمنه :

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ (١٠٨ : التوبة) .

---

(١) الاقتضاب : ٢٣٥ .

﴿ وَيلٌ لِّلمُطَفِّفِينَ ﴾ (١ : المطففين) .

« من شَدَّدَ شُدِّدَ عليه »

« سدِّدُوا وَقاربوا » .

فليس الذي حَلَّلتَهُ بمحلَّلٍ وليس الذي حرَّمْتِهِ بمحرَّمِ
إذا ما رأى يوما مكارم أقبلتْ تيَّممَ كبراهن ثمت صمَّمَا
وإني لتعروني لذكراك هزَّةٌ كما انتفض العصفور بلَّلَهُ القطْرُ

وأما ما ورد من المضعف الرباعي في الفصيح فهو كذلك في وفرته ، ومنه :

﴿ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ (٧٦ : الرحمن) .

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٦ : الحاقة)

﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرعُهَا سَبْعُونَ ذِراعاً ﴾ (٣٢ : الحاقة) .

﴿ ومَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أن يُعَمَّرَ ﴾ (٩٦ : البقرة) .

﴿ وَاللَّيلِ إذا عَسْعَسَ ﴾ (١٧ : التكوير) .

﴿ إذَا زُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلزَالَها ﴾ (١ : الزلزلة) .

﴿ مالي لا أرى الهدهد ﴾ (٢٠ النمل) .

﴿ من صَلْصَالٍ مِّن حَمَاءٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٢٦ : الحجر) .

﴿ الَّذي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ (٥ الناس) .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُما الشَّيْطَانُ ﴾ (٢٠ الأعراف) .

﴿ وَنَعلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (١٦ : ق) .

« يا أم السائب ما لك تُزَفْزفين ؟ » .

« صلصلة كصَلْصَلَةِ الجرس » .

« لا أحسن دَنْدَنتك ولا دَنْدَنَةَ معاذ » .

« شنْشِنَةٌ أعرفها من أخذم ».

أبو كبير :

أزهير هل عن شَيْبَةٍ من مَعْدِل … أو لا سبيل إلى الشباب الأولِ
أم لا سبيل إلى الشباب وذِكْرِهِ … أشهى إليَّ من الرحيق السلْسلِ

علقمة :

تُشَشْخِشُ أبدان الحديد عليهم … كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

العجاج :

تسمع للحَلْى إذا ما وسْوَسا … زَفْزفةُ الريح الحصاد اليبسا

ابن الرومي :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ … عليك وممدود من الظل سَجْسَجُ

البحتري :

فهو يُبْدي تجلداً وعليه … كَلْكَلٌ من كلاكل الدهر مرس

امرؤ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه … وأردف أعجازاً وناء بكلكل

لبيد :

أو ذو زوائد لا يطاف بأرضه … يغشى المهجهج كالذنوب المرسل

عدى بن زيد :

فاسأل الناس أين آل قبيس … طحطح الدهر قبلهم سابورا

الأعشى :

ومر الليالي كل وقت وساعة يُزَعْزِعْنَ ملكا أو يباعدن دانيا

ربيعة بن توبة :

إذا شاء طلع أو أراك وسخبر لديه وذو ظل من الغار أجرف
يكسر أطراف البشام بروقه ومن دونه هضب منيف ونفنفُ

ابن مقبل :

يقلقل من ضغم اللجام لهاته تقلقل عود المرخ في [illegible]مبة الصِّفرِ

النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

الرقاشي :

فقل للمطايا قد أمنت من السري وطي الفيافي فَدْفَداً بعد فدفد

أبو الطمحان :

نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

أبو كبير :

فالطعن شغشغة والضرب هيقعة ضرب المعول تحت الديمة العضدا
وللقِسِّي أزاميلٌ وغمغمة حسُّ الجنوب تسوق الماء والبردا

إن تكرار الصوت في المضعف الرباعي ألصق بموسيقا الطبيعة وبالنفس من الثلاثي ، ولذلك لا ينبغي أن نذهب مذهب الناسبين الثقل إلى تكرار الحروف أو قرب المخارج دون تقييد ، كابن سنان الذي يشترط لفصاحة المفرد ولفصاحة الكلام خلوه من تكرار الحرف ومن قرب المخارج ، فأول الشروط عنده : « أن يجتنب الناظم تكرير الحروف المتقاربة في تأ[illegible]ف الكلام » ، « كما أمرناه بتجنب

ذلك في اللفظة الواحدة ، بل هذا في التأليف أقبح ، وذلك أن اللفظة المفردة لا يستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثل ما يستمر في الكلام المؤلف إذا طال واتسع ، وما زال أصحابنا يعيبون هذا البيت :

لو كنت كتمت الحب كنت كما　　كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار أكثر من سماعه . . . »[1] .

---

(١) سر الفصاحة : ٩٠ .

ابن الأثير وتكرار الحرف

مع أن مذهب ابن الأثير هو مذهب ابن سنان ومن سبقه بالرأي في هـذا التكرير الحرفي ـ فإنه يحكم لنوع منه بالعذوبة والحسن ، هو ما جاء من وزن (أفعل) على صيغة (افعوعل) مثل : اعشوشب .

يقول : وهي على ما فيها من تكرار الحروف طيبة عذبة ، وكذلك سائر ما في وزنها ، نحو : اخشوشن المكان ، واغرورقت العين ، واحلولى الطعم ، وما أشبه ذلك .

ونعجب من ابن الأثير بعد ذلك في قوله :

« ألم تعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة ، قد عدلوا عن تكرار الحروف في كثير من كلامهم ؟ وذلك أنه إذا تكررت الحروف عندهم أدغموها استحساناً ، فقالوا : « جَعَلْ لك » وفي « تضربونني : تضربونّي » وكذلك في « استعد » فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل : « استعدد » و « استتب » الأمر إذا تهيأ وكمل ، وأصله : « اسْتَتْبَبَ » وأشباه هذا كثيرة في كلام العرب ، حتى إنهم لشدة كراهيتهم لتكرار الحرف أبدلوا أحد الحرفين لما تكرر حرفاً آخر غيره ، فقالوا : أمليت الكتاب ، والأصل : أمللت ، فأبدلوا اللام ياء طلباً للخفة على اللسان ، وفراراً من الثقل والاستكراه .

واعلم أن ورود الإدغام في هذه اللغة أقوى دليل على كراهة العرب لتكرار

الحروف ، وفيما أشرنا إليه كفاية للتأمل فاعرفه »[1] .

ومكان العجب أن ابن الأثير ـ فيما قدمناه عن وزن « افعوعل » قد رفع المكرر على أصله الذي لا تكرار فيه درجات في العذوبة والحسن ، وهذا يخدش كلامه الأخير .

أما عُدُولُهم إلى الإدغام عن التكرير « في كثير من كلامهم » ـ على فرض تسليمه ـ فهو لم ينشأ عن التكرير لذاته ، ولكن عن الجمع بينه وبين الحركات .

ولو كان الحسن في الإدغام في مثل « جعل لك » ـ وهو مع الإدغام ما يزال مكرراً ـ لوجب بلاغة أن يُلْتَزَمْ في القرآن المعجز وكل قول بليغ ، وليس الإدغام عسيراً حتى يترك المتكلم الحسن بتركه .

والحق أنهما لغتان حسنتان لا تفضيل لإحداهما على الأخرى ، وقد جاءتا معاً في القرآن الكريم وفي رواية واحدة هي رواية حفص التي عليها أكثر المصاحف شيوعاً ، ومنهما :

﴿ يَاقَوم لَم تُؤْذُونَنِي ﴾ (٥ : الصف) بالفك .

﴿ قُل أَفَغَيْرَ اللهِ تَأمُرُونِّي أعبُدُ . . . ﴾ (٦٤ : الزمر) بالإدغام .

ولو أدرنا الحسن مع اليسر والشيوع لجعلناه للغة الفك لأنها الأكثر .

أما مثل : « استعد » « واستتب » فإن منشأ الثقل المؤدي إلى الإدغام هو الحركة لا التكرار ، فلما زالت الحركة زال الثقل ، وما أزال الإدغام التكرار نطقاً ، والنطق مدار الخفة والثقل ، ومما يؤكد أن الثقل في الحركة لا في الفك ، خفة التضعيف مع وجوب الفك عند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك ، الذي

(١) الجامع الكبير : ٢٧٤ .

يحل فيه سكون الثاني من المثلين محل الحركة ، فالثقل في (استعدد) بحصول الحركتين على المثلين ، والخفة في (استعد) لزوال حركة أول المثلين بسكونه ، وفي (استعددتم) لزوال حركة ثانيهما بسكونه . وفي القرآن :

﴿ وإن يَمسسكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ (١٧ : الأنعام) .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسفَلَ سَافِلِينَ ﴾ (٥ : التين) .

﴿ وَلَم يَمسَسنِي بَشَرٌ ﴾ (٤٧ : آل عمران) .

زالت الحركة بتسكين المثل الثاني للجزم أو البناء فحسن الفك ، ومثله الأمر :

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمسِك بِغَيرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩ : ص) .

﴿ رَبَّنَا أُطمِسْ عَلَى أَموَالِهِم وَاشْدُد عَلَى قُلُوبِهِم ﴾ (٨٨ : يـونس)

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّن أَهلِي هَـٰرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزرِي ﴾
(٢٩ ـ ٣١ طه) .

ولغة قريش وهي لغة الفك يجنح إليها سيبويه عند اختلاف اللهجات ، وفيها يقول الجوهري :

كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس » .

ولغة تميم ونجد لغة الإدغام متى توفرت شروطه ، وكل من اللغتين فصيح [١] .

على أن المتحركين من المكرر كثيراً ما يتجاوران مع حسن الجرس ، كما في قوله تعالى :

---

(١) المزهر : ١ : ٢١١ .

﴿ وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمرٌ مُّختَلِفٌ أَلوَانُهَا ﴾ (٢٧ : فاطر) .
﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ (١١ : الجن) .
﴿ وَآتَينَاهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَبَباً فَأَتبَعَ سَبَباً ﴾(٨٤ ـ ٨٥ : الكهف) .
﴿ وَبرَكَاتٍ عَلَيكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم . . ﴾ (٤٨ : هود) .

أمليت وأمللت :

أما قول ابن الأثير بأن السبب في إبدال الياء من اللام في (أمليت) هو شدة الثقل بتكرار الحرف ـ فهو سهو عن ورود القرآن باللغتين كما يشير ابن يعيش في شرح الملوكي بقوله : « وقالوا : (أمللت) الكتاب و (أمليته) ، فالياء بدل من اللام الثانية ، قال تعالى : ﴿ فَهِيَ تُملَى عَلَيْهِ بُكرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٥ : الفرقان) وقال : ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيهِ الحَقُّ ﴾[1] . (٢٨٢ : البقرة)

بل إن (الإملال) دون إبدال قد تكرر في هذه الآية مرات ، ولو كان ثقيلا مستكرها لما جاز وروده أصلا في القرآن فضلا على أن يكرر في سياق واحد قصير كهذا ، قال تعالى :

﴿ وَلِيُملِلِ الَّذِي عَلَيهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبخَس مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَليُملِل وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ ﴾ .

كما أن هذا الإبدال لو صحت لهم علته تلك في بعض الكلمات لصح طرده قياساً في كل مكرر على وزنه ، وقد يكون الحرف الذي وقع عليه التكرار أشد ثقلا من اللام ؛ فإن (اللام) من الحروف العذبة في النطق والسمع ، ولعلهم لم يبدلوا اللام الثانية استكراها أو استثقالا ، وإنما أبدلوها خوف اللَّبْس بالاشتقاق من (الملل) ، وإن كان بعض الصرفيين ذكر لهذه اللفظة أشباها محصورة لا يصلح

(١) شرح الملوكي : ٢٥١ .

طرد القياس بها ، والأفضل إيقاف ذلك على السماع ، وهي كلمات اختلف العلماء في تخريج أكثرها علىْ أنه أصل لا بدل فيه ، وقد ذكر ابن يعيش منها : « لَبَّيْتُ بالحج » و« فايتصلت » بمعنى « فاتصلت » و« قيراط » على أنها « قراط » و« شيراز » على أنها « شرّاز » و« تسريت » من « تسررت » و« قصيت أظافري » من « قصصت » و « دهديت الحجر » من « دهدهت » و « ديوان » من « دوّان» [1] .

وكل ذلك مع الخلاف فيه لا ينهض بقاعدة تطلق في القياس ، ولا يستدل به على كراهة واستثقال ، لأن ما ثبت فيه التكرار أشمل وأكثر دوراناً في اللغة بلا إبدال ، على أن بعضه فيما أبدلت منه الياء أخف من البدل ، والذي أرجحه أن كلا من اللفظين أصل .

ابن الأثير مرة أخرى :

يعلل ابن الأثير للثقل ـ من جانب آخر ـ بقرب المخارج ، وهو أدعى إلى تحقيق الثقل بالتكرار .

يقول : « وإنما القول السديد في حسن اللفظ المتباعد المخارج ، وقبح اللفظ المتقارب المخارج ، ما سنورده ها هنا ، وهو أن الفائدة في الأشياء المركبة إنما هي اختلاف أجزائها وتباين مفرداتها ، ليؤثر التركيب عند ذلك شيئاً لم يكن ، إما حسناً وإما قبحاً . . . فأما إذا كانت أجزاؤه مشابها بعضها البعض ، فإنه لا يكون لتركيبها حينئذ كبير فائدة ، وهذا مما لا نزاع فيه لوضوحه وبيانه .

وحيث كانت الحال في الأشياء المركبة كذلك قسنا عليه تركيب مخارج الحروف ، وذلك أن من المخارج ما هو مختلف ، ونعني بالمختلف ها هنا

(١) شرح الملوكي : ٢٣٩ .

المتقارب كالراء واللام ، والطاء ، والسين ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ، فمتى كانت الكلمة مركبة من حروف متباعدة المخارج أثر التركيب فيها أثراً وهو الحسن والجودة في الغالب ، ومتى كانت الكلمة مركبة من حروف متقاربة المخارج جاء بخلاف ذلك في الغالب أيضاً [1] .

وقياس ابن الأثير غير مسلم ، وهو قائم على ألفاظ مشكوكة المفهوم ، كاختلاف الأجزاء وتباين المفردات ، ولو قسنا تركيب اللفظ على تركيب الأشياء لصح لنا تركيب الكلمة من مكرر الحرف الواحد مرات ، كما يتركب المثلث المتساوي الأضلاع والمربع والمخمس ، فهل انتفت الفائدة والحسن من هذه الأشكال للتركب من أجزاء متشابهة تمام التشابه ؟

وهل انعدمت الفائدة والحسن من تركيب جسم الإنسان من شقين متشابهين في الأعم الأغلب من الأعضاء ، وتركيب الأصابع المتشابهة في كفى ابن الأثير ؟

إن الكلمة صوت ، فائدته الأساسية التامة هي الدلالة على معناه ، والحروف في أي وضع ومن أي جنس قد اتخذت شكلا يميز معنى عن معنى ، مع رعاية اليسر على اللسان والسمع ، ولا يخلو لفظ موضوع بعد العلم بالوضع من إفادة هذه الدلالة ، فكيف يكون لبعد المخارج وقربها سلطان في تحديد فائدة اللفظ ، حتى يصير التشابه خطراً على هذه الفائدة ؟

إن ابن الأثير يوغل في الخيال حين يقول : « إنها اكتسبت حسناً عند تركيبها من حروف متباعدة المخارج ، واكتسبت قبحاً عند تركيبها من حروف متقاربة المخارج ؛ لأن النطق إذا أتى على مخارج حروف اللفظة وهي متباعدة ليجمعها ويؤلفها كان له في ذلك مهلة وأناة ؛ لأن بين المخرج إلى المخرج فسحة وبعداً ،

(١) الجامع الكبير : ٣٩ .

فتجيء الحروف عند ذلك متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة . وإذا أتى النطق على مخارج حروف اللفظة وهي متقاربة ليجمعها ويركبها لم يخلص من مخرج إلا وقد وقع في المخرج الذي يليه لقرب ما بينهما ، فيكاد عند ذلك يعثر أحدهما بالآخر ، فتجيء مخارج حروف اللفظة قلقة مكدودة غير مستقرة في أماكنها »[1] .

أيةُ مهلة وأية أناة في تجميع حروف الكلمة البعيدة المخارج يتمكن معها النطق ؟ وأية فسحة وبعد بين أبعد مخرج لحرف وأقرب مخرج لآخر ، يمكن أن نتصوره حين النطق بالكلمة ؟

إنه يصور لنا تجميع حروف الكلمة صورة تجميع أرقام الهاتف بالعقل وراء الإصبع على دائرة الأرقام ، وما أظن أحدنا فكر حين ينطق بالمئات من الألفاظ في دقائق معدودة ـ في هذا التجميع للحروف من مخارجها لأنه عمل تلقائي . نعم قد يتصور شيء من ذلك في تعلم الأطفال قراءة الألفاظ من حروف مرسومة لم تنطبع صورها في أذهانهم بعد . وهذا أمر خلاف ما نحن فيه .

ثم أية عثرة يصطدم بها اللسان عند النطق بلفظ ذي حرفين متجانسين أو ثلاثة فضلا على أن يكونا من مخرجين متقاربين ؟ .

لقد مثلنا من القرآن المعجز ، ثم بالكثير من كلام الفصحاء ، بما تجاور فيه الحرف مكرراً ، فما نقص الحسن ولا قلت الفائدة .

إن ابن الأثير يحس عدم الإقناع بتعليله ـ وما كان أغناه عنه ـ فيقول : « واعلم أن تباعد المخارج ليس بكاف في حسن اللفظة ولا مقنــع في جودتها ، فإنه قد تأتي لفظة مؤلفة من حروف متباعدة المخارج ، ولكنها تكون مبنية من

---

(١) الجامع كبير : ٤٠

حركات ثقيلة ، أو تكون وحشية ، أو غير ذلك من الصفات الذميمة ، فيعارض الوصف المحمود هذا الوصف المذموم فيذيله ويذهب به [1] .

ولعله من أجل هذا الانفلات بني كلامه السابق على « الأغلب » بل إنه يكاد ينقض كلامه الأول وهو يرد على ابن سنان : في نظرية قرب المخارج وبعدها ، ويجعل المقياس الصحيح للسمع وللذوق حين يقول في (المثل السائر) :

« إذا سئلت عن لفظة من الألفاظ وقيل لك : ما تقول في هذه اللفظة أحسنة هي أم قبيحة ؟ فإني لا أراك عند ذلك إلا تفتي بحسنها أو قبحها على الفور ، ولو كنت لا تُفْتِي بذلك حتى تقول للسائل : اصبر إلى أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد بما فيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطاً في اختيار الألفاظ » [2] .

« فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ وقُبْح ما يقبح ، وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضاً ، ولو كان التباعد سبباً للحسن ما كان سببا للقبح إذ هما ضدان لا يجتمعان » [3] .

ولقد أحسن ابن جنى كل الإحسان ، حينما بين أن الإدغام إنما هو لتقريب الصوت من الصوت [4] ، وتقريب الصوت من الصوت إذا كان مقصوداً للتخفيف فكيف يكون تقارب الصوتين أو تجانسهما ثقيلا ومستكرها ؟

ونكرر بعض ما أسلفناه من قول ابن يعيش : « وقد حملهم طلب التجانس وتقريب الصوت بعْضه من بعض ، على أن أبدلوا من الفاء دالا وذلك نحو

---

(١) الجامع الكبير : ٤١ .

(٢) المثل السائر : ٩٢ ـ ٩٥ القسم الأول .

(٣) نفسه ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٤) الخصائص : ٣٥١ .

(دولج) في (تولج) كأنهم رأوا التاء مهموسة والواو مجهورة ، فأبدلوا من التاء الدال لأنها أختها في المخرج وأخت الواو في الجهر لتحصل المجانسة . في الصوت . . . »[1] .

ونذكر من إبدال التاء دالاً للتجانس لفظ « يَهِدِّي » في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى ﴾ (٣٥ : يونس) .

قال الزمخشري ومثله أبو السعود وغيرهما : « الأصل (يهتدي) فأدغم . . . »[2] .

وهذا الإدغام القائم على الإبدال للتجانس جوازيٌّ غير مطرد ، فقد ورد الفعل في القرآن على أصله مرات ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَمَن اهتَدَى فَإِنَّمَا يَهتَدِي لِنَفسِهِ ﴾ (١٠٨ : يونس).

﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهتَدِي لَولاَ أن هَدَانَا اللهُ ﴾ (٤٣ : الأعراف)

﴿ نَنظُر أَتهتَدِي أَم تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهتَدُونَ ﴾ (٤١ : النمل)

كما جاء هذا الإبدال للتجانس في أماكن أخرى ، منها :

﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ (٣٨ : التوبة)

﴿ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلإِ الأَعلَى ﴾ (٨: الصَّافَّات).

﴿ وإذ قَتَلتُم نَفساً فَأَدَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (٧٢ : البقرة)

﴿ بَلِ أدَّارَكَ عِلمُهُم ﴾ (٦٦ : النمل)

﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً ﴾ (٣٨ : الأعراف)

---

(١) شرح الملوكي : ٣٢٦ .

(٢) الكشاف : ٢ : ١٩٠ . التجارية .

على أن هذه القيمة الصوتية لا تنفرد عن لمسة معنوية يفيدها الإبدال والإدغام على الوجه الآتي بيانه .

القلقشندي :

وقد تعقب القلقشندي مسألَة بُعْدِ المخارج وقربها رداً على ابن الأثير بما يكفي في بطلان البناء عليها ؛ كما استشعر ذلك ابن الأثير نفسه على ما بيناه ، قال في صبح الأعشى :

« على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ : أهي متباعدة أو متقاربة ؟ لطال الخطب في ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر ينظم قصيداً ، ولا الكاتب ينشىء كتاباً إلا في مدة طويلة والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وتقبيح آخر » .

وقد ضرب أمثلة لما تباعدت مخارج حروفه وهو في غاية العذوبة والحسن « ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت » هذه الأحكام (١) .

على أن الأذواق تتأثر بكثير من العوامل التي تفرق في اللغة الواحدة بين اللهجات وأنواع الإبدال لخفة البدل ، ومثال ذلك ما رواه أبو زيد في نوادره قال :

« وقال علباء بن أرقم » :

يـا قبـح الله بني السعـلات عمرو بن يربوع شرار النّـات
غير أعفاء ولا أكيات

النات : أراد الناس ، وأكيات : أراد أكياس . قال أبو الحسن : هذا من

---

(١) صبح الأعشى : ٢ : ٢٥٦ .

قبيح البدل ، وإنما أبدل التاء من السين ، لأن في السين صفيراً فاستثقله فأبدل منها التاء ، وهو من قبيح الضرورة »(١) .

فالعلة للإبدال عند أبي الحسن هي الاستثقال للسين ، والسين حرف ـ مع صفيرة ـ غير ثقيل ، وقد يكون الراجز إنما استخفه ليجانس صوت التاء الذي بدأ به قافيته ـ كما استحسن أخو الكلحبة إبدال اللام من الهمزة في قوله :

ألم تك قد جربت ما الفقر والغنى   ولا يعظ الضِّلِّيل إلا أولالكا
عقوقاً وإفساداً لكل معيشة   فكيف ترى أمست إضاعة مالكا ؟

« قال : وأولالكا : أراد أولئك »(٢) .

مع توفر القافية دون التزام ، ولكنه ربما رأى في الالتزام كمال النغم فأبدل .

---

(١) النوادر في اللغة : ١٠٤ .

(٢) نفسه : ١٥٤ .

التكرير وَالحُسْن

إن القيمة الصوتية هي قيمة جمالية كالتي في جميع الفنون ، والفنون من رسم ، وموسيقا ، وشعر ، وغيرها ، من ألمع قوانينها التكرير ، وهو في إطار الكلمة مثيله فيس إطار الكلام ، له حسنه وإيقاعه ، ما دام أنيساً غيز نافر ، ومنطلقاً به اللسان غير منكب ، وإن هذه القيمة الصوتية الجمالية توجد في الألفاظ على درجات كما توجد الألوان في الرسم ، والألحان في العزف ، يناسب كل منها مقامه وسياقه طولا وقصراً ، وبساطة وتركيباً ، وتفشياً وعمقاً . وهذا ما تدركه الأذن والوجدان فيما نسمع ، وقد تدركه العين أيضاً فيما نرى ونبصر، والجناس كما يقع على أشكال وأضرب بين الألفاظ يقع على أشكال وأضرب بين حروف الكلمة ، فلا ينقص حسنه تتابع « كرام بررة » ولا انفصال « عينا فيها تسمى سلسبيلا » .

القيمة السمعية
لتكرار الحرف في الكلام

إذا تكرر الحرف في الكلام على أبعاد متقاربة ، أكسب تكرار صوته ذلك الكلام إيقاعاً مبهجاً ، يدركه الوجدان السليم حتى عن طريق العين ، فضلا على إدراكه السمعي بالأذن : وأقول : على أبعاد متقاربة ؛ تفادياً للإكثار المفسد ، والتباعد الذي يفقد التكرار قيمته الصوتية الناشئة عن سرعة التردد .

إن التكرار المتزن نوع من الوزن ، والوزن ـ كما شبهه رتشاردز ـ « إذا ما قصد استعمالهُ لأغراض شعرية ، أشبه ما يكون بالخميرة ، فالخميرة في حد ذاتها

عديمة القيمة . . . ومع ذلك فهي تضفي على الشراب الذي تمتزج به بنسب معقولة روحاً وحيوية [1] .

وتكرار الحرف على هذه الأبعاد يحسن حسناً كبيراً ، إذا جاء بطريق التداعي غير متكلف له ، بحيث يتسق المعنى اتساقاً يشغل النفس عن أن جانباً كبيراً من حسن العبارة راجع إلى التكرار ، وإنما يظهر ذلك عند التأمل .

ومن تكرار الحرف ما يأتي عفواً فيثقل ، وما يأتي مصنوعاً فيكون أشبه بالمطبوع ، أو يظهر فيه التكلف فيزدري ، إلا إذا جاء على وجه الفكاهة والطرفة .

ونمثل هنا لهذه الأنواع ، وأعلى ما نتخذ منه المثال الرائع هو القرآن الذي تداعت الحروف خلال تعبيره ، توفيراً لحسن الجرس ، وتآلف النظم إيقاعاً ومعنى ، على شاكلة تلفت النظر .

إقرأ هذه الآيات وتأمل ما فيها من حروف معادة على أبعاد تتجاوب أصواتها في النفس ، دون أن تفطن إليها إلا عند القصد :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُم أَن تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحكُمُوا بِالعَدلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيْعاً بَصِيراً. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمرِ مِنكُم ، فَإِن تَنَازَعتُم فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِالله وَاليَومِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيرٌ وأَحسَنُ تَأوِيلاً . أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزعُمُونَ أَنَّهُم آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَد أُمِرُوا أَن يَكفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ (٥٨ ـ ٦٠ : النساء) .

وانظر بعد قليل إلى هذا السياق :

---

(١) مبادىء النقد الأدبي : ١٩٢ ت . د محمد مصطفى بدوي .

﴿ وَمَا أَرسَلنَا مِن رَّسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإذنِ اللهِ ، وَلَو أَنَّهُم إذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاستَغفَرُوا اللهَ وَاستَغفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً .. فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيتَ وَيُسَلِّمُوا تَسلِيماً ﴾ (٦٤ ـ ٦٥ وما بعدها : النساء)

تأمل عدد الميمات ومواقعها من النظم .

ثم تأمل عدد النونات وأماكنها .

ثم حرف التاء في (الصالحات ـ جنات ـ تجري ـ تحتها)

ثم انظر في الآية الثانية :

حرف الكاف في : (يأمركم ـ حكمتم ـ تحكموا ـ يعظكم ـ كان) .

والتاء في : (تؤدوا ـ الأمانات ـ حكمتم ـ تحكموا) .

قس على هذا ، ثم انظر في الآيتين الأخيرتين :

إلى السين في : (أرسلنا ـ رسول ـ أنفسهم ـ استغفروا ـ استغفر الرسول ـ أنفسهم ـ يسلموا تسليماً) .

وإلى اللام في : (أرسلنا ـ رسول ـ ليطاع ـ الله ـ لو ـ ظلموا ـ الله ـ لهم ـ لوجدوا ـ الله ـ فلا ـ لا ـ لا ـ يسلموا ـ تسليماً) .

وإلى الميم في (ما ـ من ـ أنهم ـ ظلموا ـ أنفسهم ـ لهم ـ رحيماً ـ يؤمنون ـ يحكموك ـ فيما ـ بينهم ـ أنفسهم ـ مما ـ يسلموا ـ تسليماً) .

وإلى النون في : (أرسلنا ـ من ـ بإذن ـ أنهم ـ أنفسهم ـ يؤمنون ـ بينهم ـ أنفسهم) .

وإلى الجيم في الجزء الصغير من الآية الأخيرة ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيتَ ﴾ .

ثم انظر إلى حرف القاف كيف تردد على هذا الوجه العجيب في السياق الآتي :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً . أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّكُم المَوْتُ وَلَو كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ، وَإِن تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يَقولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَؤُلاَءِ القَومِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ (٧٦ : ٧٨ : النساء) .

إن حرف (القاف) يظهر ظهوراً عجيباً في هذا السياق مع كثير من الأحرف المكررة الأخرى كاللام ، والنون ، والتاء ، والسين ، والكاف ، والشين .

أنظر كذلك إلى قوله تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ المؤْمِنِينَ ، عَسَى اللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا واللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً . مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنها وَمَنْ يَشْفَع شَفَاعةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُّقِيتاً ﴾ (٨٤ ـ ٨٥ : النساء) .

كم مرة عادت أصوات تلك الحروف : (اللام ـ النون ـ السين ـ الشين ـ الكاف ـ الفاء) .

إننا الآن ننظر في ترديد صوت الحرف، مغضين عن تكرار الكلمات لما له من مكان آخر يأتي بعد.

اقرأ النص الكريم الآتي وترقب صوت الكاف، ثم أعد وترقب صوت اللام، ثم زد مع النون ومع الدال ..

﴿ وَلَكُم نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُم إِن لَّم يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ، فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ، الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ. وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُم وَلَدٌ، فَإِن كَانَ لَكُم وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ. وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾. (١٢ : النساء).

وترقب النون في هذه الآيات الثلاث من سورة آل عمران وبخاصة في الثانية والثالثة :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُم، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ والمُنفِقِينَ والمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (١٥ ـ ١٧ : آل عمران).

وانظر إلى الكاف وغيرها وكيفية توزيع الحروف المرددة في قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَالحُكمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيين بِمَا كُنتُم تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُم تَدرُسُونَ. وَلاَ يَأمُرَكُم أَن تَتَّخِذُوا المَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَربَاباً، أَيَأمُرُكُم بِالكُفرِ بَعدَ إِذ أَنتُم مُّسلِمُونَ. وَإِذ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيينَ لَمَآ أتيتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُم

رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُم لَتُؤمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ، قالَ : أأقرَرتُم وَأَخذتُم عَلَى ذَلِكُم إصرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّن الشَّاهِدِينَ ﴾ (٧٩ - ٨١ : آل عمران) .

ثم ألى الهاء ومواقعها فيما يلي :

﴿ كَيْفَ يَهدِي اللهُ قَوماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِم وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ واللهُ لاَ يَهدي القَومَ الظَّالِمِينَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم أَنَّ عَلَيهِم لَعنَةَ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أجمَعِينَ ، خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُم يُنظَرُون ﴾ (٨٦ - ٨٨ : آل عمران) .

ثم لا تسأم وانظر إلى هذه القافات وتأمل غيرها مما يتردد في هذا السياق :

﴿ وَمَا أَصَابَكُم يَومَ التَقَى الجمعَانِ فَبِإذنِ الله وَلِيَعْلَمَ المُؤمِنِينَ . وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أوِ ادفَعُوا قَالُوا لَو نَعلَمُ قِتَالاً لأَتَّبَعنَاكُمْ هُمْ لِلكُفرِ يَومَئِذٍ أَقرَبُ مِنهُم للإيمَانِ يَقُولُونَ بِأفوَاهِهِم مَّا لَيسَ فِي قُلُوبِهِم واللهُ أعلَمُ بِمَا يَكتُمُونَ ، الَّذِينَ قَالُوا لإخوانِهِم وَقَعَدُوا لَو أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُل : فَادرَأُوا عَن أنفُسِكُمُ الموتَ إن كُنتُم صَادِقِينَ . وَلاَ تَحسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَموَاتاً بَل أحيَاءٌ عِندَ رَبِهِم يُرزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضلِهِ وَيَستَبشِرُون بِالَّذِينَ لَم يَلحَقُوا بِهِم مِّن خَلفِهِم ﴾ (١٦٦ - ١٧٠ : آل عمران) ....

﴿ الَّذِينَ يَذكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ . (١٩١ : آل عمران) .

وهكذا ترى صوت النون والميم والهمزة :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَار . رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّر عَنَّا

سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ (١٩٢ ـ ١٩٣ : آل عمران) .

تستطيع أن تتبين بأذنك الحرف الغالب على بقية حروف هذه الكلمات :

﴿ وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ ابني آدَمَ بِالحَقِّ إِذ قَرَّبَا قُرْبانا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَم يُتَقَبَّل مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقتُلَنَّكَ ! قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيكَ لِأَقتُلَكَ ﴾ (٢٧ ـ ٢٨ المائدة) .

هـذا لون من تكـرار الحـرف في القـرآن على أبعـاد تكسب الكـلام حسنـاً ولا تكد السمع جساوة ، فضلاً على ما ترى من تكرار الحرف التزاماً في كثير من فواصل السور التي قد تشمل آيات السورة كلها .

وإليك ألواناً من تكرار الحرف في كلام البشر ، لها من الحسن ما لا يسعنا أن ننكره ، لأنها من اجتلاب المعنى للكلمات المتناسقة بقوة التداعي ولمح الخيال الوثاب ، وكثيراً ما نرى ذلك في شعر أناس توفرت لهم هذه الحاسة الغنائية بالسليقة .

ومن ذلك لابن مخرمة السعدي أو ليزيد بن النعمان كما في حاشية اللآلي على الأمالي :

وهاتفين بشجو بعد ما سجعت ورق الحمام بترجيـع وإرنان
باتا على غصن بان في ذرا فنن يـرددان لحـونـا ذات ألـوان

لعلك ناظر إلى (الجيم) في : (شجو ـ سجعت ـ ترجيع) و (العين) في المتجانس المعنى (سجعت ـ ترجيع) .

(والراء) في (ورق ـ ترجيع ـ إرنان ـ ذرا ـ يرددان) و (التاء) في (هاتفين ـ سجعت ـ ترجيع ـ باتا ـ ذات) و (النون) في (هاتفين ـ إرنان ـ غصن ـ بان ـ فنن ـ يرددان ـ لحونا ـ ألوان) .

فضلا على التنوين فيما نون من الكلمات موصولا .

ولبلال بن أبي بردة ولا أظنه عمد إلى تلك الكلمات ذوات (الصاد) :

فصلت بحكمة فأصبت منها فصوص الحق فانفصل انفصالا

كما لا أظن أن المتنبي قصد إلى (الضاد) في قوله :

مضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي ورؤ ياك أحلى في العيون من الغمض

ولعلك ترى أن عمرو بن كلثوم وهو يرتجل قصيدته ـ كما قالوا ـ لم يكن لديه من سعة الوقت وتحكيم الصنعة ما يجتمع له به كل هذه النونات ، والراءات ، والدالات ، والباءات .

أبا هند فلا تَعْجَلْ علينا وأنْظِرْنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
وأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صَفْواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

كما أن مروان بن أبي حفصة لم ينخل مُعْجَمَه ليختار ذوات الميم في قوله :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في غيل خفان أشبل
هُم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهمُ بين السماكين منزل
لها ميم في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

قد يكون بيته الأخير مشوباً بانتخاب الألفاظ التي تمت بها الموازنة ، ولكن ذلك لا يسوغ طرد الحكم على تكرار الحروف الأخرى كهذه الميمات في : (مطر ـ كأنهم ـ يمنعون ـ كأنما ـ لجارهم ـ السماكين ـ منزل ـ لهاميم ـ الاسلام ـ لم ـ كأولهم ـ هم ـ القوم) .

وهذه اللامات في : (اللقاء ـ لها ـ غيل ـ أشبل ـ الجار ـ لجارهم ـ منزل ـ لهاميم ـ الإسلام ـ لم ـ أولهم ـ الجاهلية ـ أول ـ القوم ـ قالوا ـ أجزلوا) .

وهذه النونات في : (بنو ـ كأنهم ـ خفان ـ يمنعون ـ كأنما ـ بين ـ السماكين ـ منزل ـ يكن ـ إن ـ إن ـ إن ـ الفاعلون ـ إن ـ أحسنوا ـ النائبات . . .) .

قس على هذا ما تكرر من الحروف في قول ذي الرمة :

إذا هبت الأرواح من نحو جانب ... به أهل ليلى هاج قلبي لهيبها
هوى تذرف العينان منه وإنما ... هوى كل نفس حيث حل حبيبها

كم من الهاءات في البيتين ؟

لقد تخلل حرف الباء الشطر الأول مرتين والثاني مرتين .

والكلمات النونية في آخر الشطر الثالث ثلاث ، والحائية في آخر الشطر الرابع ثلاث :

إنه فعل التداعي لا ريب !

التزام الحرف

الآن نعود إلى نوع آخر من التكرار الحرفي ، الذي يلتزمه المتكلم متكلفاً له كقول القائل :

رمتنا يد الأيام عن قوس خطبها ... بسبع وهل ناج من السبع سالم
غلاء ، وغارات ، وغزو ، وغربة ... وغم ، وغدر ، ثم غبن ملازم [١]

إنه التزم في الكلمات السبع أن يبدأ بحرف الغين بعد أن أخبر بعددها آخر بيته الأول .

---

(١) كل الأمثلة في نفحات الأزهار : ٢٢٣ .

إنها بدعة ابن سكرة في كافات الشتاء التي عنه أخذها الحريري ودار حولها ما دار ، وعلى هذا الغرار قول عبد الرحمن الشافعي الطبيب :

إن قدر الله لي في العمر واجتمعت سبع فما أنا في اللذات مَغْبون
قصر ، وقدر ، وقـواد ، و . . . وقهـوة ، وقنـاديـل ، وقـانـون

وقد ساقها ثمانية من ذوات الميم في هذين البيتين :

ثمانية إن يسمح الدهر لي بها فمالي عنها بعد ذلك مطلوب
مقام ، ومشروب ، ومزح ، ومأكل ومُلْةٍ ، ومشموم ، ومال ، ومحبوب

وهو نفسه القائل :

إلى متى أنا لا أنفك في بلد رهين جيمات جور كلها عطب
الجوع ، والجرى ، والجيران ، والجدري
والجهل ، والجبن ، والجرذان ، والحرب

إن ذلك وأشباهه يساق للتطرف والترفيه ، فله علة نفسية من أجلها يخف على القلب .

أما كافات ابن سكرة ففي بيته الثاني (١) .

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبع إذا الغيث عن حاجاتنا حبسا
كن ، وكيس ، وكانون ، وكأس طلا مع الكباب و . . . ناعم ، وكسا

وإليها يلمح الجزار بقوله :

وكافات الشتـاء تعد سبعـاً ومـالي طاقـة بلقـاء سبـع
إذا ظفرت بكاف الكيس كفى ظفرت بمفرد يـأتي بجمع

وعدت طائفة من أدباء الأندلس ، تكرار الحرف في جميع الكلمات على

(١) أنوار الربيع : ٤ . ٢٩٦ .

وجه الالتزام ، اقتدارا على التصرف باللغة ، ومنه ما نراه في مثل كتاب (الذيل والتكملة) [1] من أنه « لما ورد أبو عبد الله بن عابد الأندلس، وتعرض فيها للتلبس بالكتابة عن بعض رؤسائها ، خاطبه أبو عبد الله بن الجنان برسالة اِلتزم العين في كلماتها جمع وهي هذه :

يا ظاعناً عنا ظعنت بعصمة ورجعت معتمداً بعز صاعد
عرج على ربع العلاء معرساً بمعان عز المعتزي للعابد
العالم الأعلى العميد لعصره السـ ـمعلي لأعلى العلوم العاقد
وعساك تعلمه بعقد معظم عني وعهد مساعد كالساعد
لتعود عنه برقعة فرقاعة عندي لعمر علاه أعظم عائد

طاعتك يا عمادي الأرفع، وعتادي الأنفع ـ علا كعبك ـ وعز شعبك، وساعدك عصرك ، وتباعد عنك عصرك ، وارتفعت مصاعدك ، وعمرت معاهدك ، وأعجزت بدائعك ، وأعجبت صنائعك ، وسعد معاشرك وتعاشرك وقعد معاليك عن معاليك . . . » .

ومنها :

فألمعيتك تدعوك للإسعاف ، ومعالاتك تعطفك على الضعاف ، فعلامة عمان ، وشاعر النعمان ، والساعدي وأسجاعه ، والعبادي وإمتاعه ، والأصمعي وسماعه ، يعجزون عن تنويع بديعك ، وبديع تنويعك ، فعذراً لمنتجع تضيع عُشْبُه ، ومتبع تصدع شعبه ، أطلعها عليك متلفعة بالعى عباية ، ومستطلعة عندك عناية ، يدعو عهدك ليجمع شفاعة ، ويطلع عليك شعاعه . . . اعتزت المعلوات لعادتك ، وهمعت عين سعادتك ، وأعزّك العزيز بطاعته ، وعصم العلم بعصمتك عن إضاعته ، بعزته العظيمة ، ونعمته العميمة . . » .

---

(1) الذيل والتكملة : ت إحسان عباس ص ٣٤٨ ـ القسم الاول من السفر الخامس .

وأمام هذا الالتزام ، الذي ذهب بشهرة الملتزم في أبناء العصر ، عجز ابن عابد عن الرد بمثله ، فانبرى له أبو الحسن الرعيني « وزاد التزام العين قبل روى الأبيات التي افتتح بها هذه المراجعة وهي :

أعد التعهد للعميد بعطفه — تعني برجعة عهدك المتباعد
وأعد سمعك للعتاب أعيده — لتعود للأعتاب عود مساعد
أعهدت عقد العزم عندي عاريا — عن رعى عهد معاهد ومواعد ؟
فعدوت عادتك العلية منزعا — وعدلت عن عضد عرفت وساعد
وعطفت عن عمد عنان عناية — عني فعذت بعزك المتصاعد
وتنعمت بعيون سجعك أعين — نعمتها ومسامع لأباعد
عجبا لساع معمل لعناية — تعدوه منفعة العناء لقاعد

يا علمي المتبع ، وعارضي المنتجع ، ومعتدي المطاع الممتنع ، تعهدتك للنعم همع عهادها ، ورعتك للْعِصَم شرع صعادها ، واعتنى السعد بإعلانك ، واعتلى العلم باعتنائك ، ورفعت الأعين لزعامة إبداعك ، وعمدت البراعة بدعامة اختراعك ، وسعد سعيك ، ووسع المعارف وعيك ، وأفرَعَ ربعك وأمعى طبعك ، وصرع عداتك ، وصعدت مَعْلُواتك . . . » .

ومنها :

وعنك يا رافع أعلام المعالي ، والمدافع لليراع عن العوالي عبر الاعتبار واملاك أعيد المستعار ، فعبادان وعمان ؛ والعراق والنعمان ، والصريع ، والخليع ، والبديع والبعيث ، والعقيلي والعتابي والعتبي ، والأعشيان والأعميان والعينان والعلمان ، والأعلام وبقاعهم ، والعلماء وأسطاعهم ، عندك اجتماعهم ، وعليك انعقد إجماعهم . . . » .

ولم ينته الأمر إلى ذلك بل راجعه ابن الجنان يلتزم (العين) برسالة طويلة

صدرها الشعر وعجزها النثر نكتفي منها بما يلي :

أتعتبني عميدي عمد عين ... وعين العذر تعرفه كعين
وعهدي عهد معتقد عليم ... بمعتز اعتزائك في رعين
وعجزي معلن بالعذر عني ... فدع عتبي أيا سمعي وعيني
وعودني التعهد باعتناء ... وعوذ عهدنا عن لقع عين
وضع للعدل معيار اعتدال ... عظيم معتل عن عيب عين
أأعمد للبديع بديع عصري ... بعين العي عنت بالمعين
وعندي عقد إعظام وعلم ... بعلياه لعمدي مانعين
وضعفي عاقني عن بعث عين ... تعوضها بعقيان وعين
فعدت عليَّ معتمدي بصنع ... لتصنعني على رعي وعين

وهكذا إلى البيت العشرين قبل نثر الرسالة الجارية على التزام حرف العين في كل لفظ ، وقد أشار في هذه الأبيات السابقة إلى أنه بديع عصره ، كما نرى التزامه في الروى كلمة مرددة باختلاف معانيها على وجه الجناس الدائم في جميع أبياته ، وقوبل صنيعه بما لا يقل عنه وبالصورة نفسها من الشيخ الرعيني ، ولنا بذلك كفاية ، وهذه النماذج بروح عصرها تعد من الأنماط العالية في البلاغة ، وإن غدت بروح عصرنا ضرباً من إعنات النفس وتكبيل العاطفة ، مهما ألمت بعتاب أو تنصل أو زهو ، من الأغراض التي لها صلة كبيرة بالوجدان ، وللحريري رسائل طويلة من هذا النوع .

ابن الأثير وتفريق المكرر

رأينا أن كثيراً من الحسن والانسجام الصوتي ينشأ عن تكرير الحرف في الكلمات على أبعاد مناسبة لسلامة الجرس وصحة الإيقاع في بناء الجملة أو النسق ، وأن هذا النوع من التكرير عمل تلقائي في أكثر الاحيان ، يأتي من

المتكلم اللماح الخيال دون عمد إليه ، كما أنه يأتي قصداً لمن شاء فيحسن تارة ويقبح أخرى ، وليس كل ناقر على الأوتار عازفاً .

غير أن ابن الأثير يدفع حسن التكرار الحرفي دفعة واحدة دون تفريق ، غير ملق باله لما ورد منه في الكتاب الكريم وفي أجود أقوال البشر ، ترى ذلك في (الجامع الكبير) حيث يقول :

« إعلم أن هذا النوع لا يتعلق بتكرير الألفاظ ولا تكرير المعاني مما سبق ذكره في باب التكرير ، لأن تكرار الحروف هو أن يأتي حرف واحد او حرفان في كل لفظة من ألفاظ الكلام أو في أكثرها ، فيثقل على اللسان النطق بها ، فمن ذلك ما أنشده الجاحظ .

وقبـر حـرب بمكـان قفـر ... وليس قرب قبر حرب قبر

ألا ترى إلى هذه الراءات والقافات التي في هذا البيت من الشعر ؟ فإنها في تتابعها كالسلسلة ،ولا خفاء بما على الناطق بها من الكلفة ، وليس الكلام العاري من ذلك بمعوز ولا عزيز ، ولا هو بالذي لا يستطيعه إلا الشاعر المبرز أو الكاتب المفلق ، بل هو مما يصعب النطق به ، ولذلك كان كلام الناس في محاوراتهم ومكاتباتهم خالياً من هذا القبيل ، ولذلك أنه لا يحصل إلا بالتكلف ، والقصد للإتيان به ، فأما إذا أرسل الإنسان نفسه على سجيتها ، وخلى بينها وبين طبيعتها فإنه لا يعرض له ذلك ، فليت شعري أي أمر يضطر مؤلف الكلام حتى يأتي به مستكرها ثقيلا على اللسان ويترك ما هو سهل عليه ؟ »[1] .

ونحن لا نماريه في فضيلة السماحة والطبع ، وبُغْض التكلف الممقوت ، ولكننا نعارضه في طرد الحكم بالبيت الممثل به على كل تكرير حرفي ، ولو كان مما جره العمد . وقد سبقنا القلقشندي بالرد على ابن الأثير فقال :

---

(١) الجامع الكبير : ٢٧٣ .

« قلت : ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقاً كما يقتضيه كلامه ، بل بحسب التركيب ، فقد تتكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفاصحتها وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها . ألا ترى إلى قوله تعالى : « قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

كيف اجتمع فيه ست عشرة ميما في آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع ، وميمان في موضع ، مع ما اشتملت عليه من الطلاوة والرونق الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله والله أعلم »[1] .

إن القيمة الموسيقية لتكرير الحرف دعت أناساً ليرسموا لها حدوداً في البديع ، وليقفوا عندها موقفاً هندسياً في التركيب ، يحصل للكلام به أنواع من التوازن الصوتي ، كما في « التوأم » و« لزوم ما لا يلزم » و« الجناس » بأنواعه ، و« السجع » بأنواعه ، وسيرد تفصيل ذلك في تكرير الكلمة والكلام .

كما أن أناساً من المتأخرين أدركوا الجمال الصوتي في التكرار الحرفي وشدة العلاقة بين صوت الحرف المكرر ورسم الصورة ، فيقول صاحب « فقه اللغة وخصائص العربية » .

« فإذا استمعت إلى إنشاد بيت البحتري في وصف الذئب الجائع المرتجف بسبب البرد ظننته أمامك :

يقضقض عصلا في أسرتها الردى   كقضقضة المقرور أرعده البرد

فإن تكرر القاف وتواليها خمس مرات ، وتكرر الراء ست مرات مع الحروف الأخرى يوحي بصورة الذئب في ضراوته وجوعه وارتجافه »[2] .

---

(١) صبح الأعشى ٢ : ٢٧٣

(٢) فقه اللغة وخصائص العربية : ٢٦١ ـ دار الفكر ١٩٦٨ .

ولسنا وحدنا الذين يلفتهم جمال الحرف المكرر ورجع صوته إذا عاد على أبعاد متجاوبة في التركيب ، وإن كنا قد سبقنا غيرنا في الدلالة على ذلك .

ينقل : آرثر سيمونز Arthur Symons عن إرنست دوسون إقراره بأن مثله الأعلى في الشعر هو هذا البيت للشاعر الأمريكي (بو) poe

The viol , the violet , and the vine

وأنه كان يرى أن الحرف (V) هو أجمل الحروف في اللغة الإنجليزية [١] وقد أتى هكذا مكرراً في أوائل الكلمات الثلاث متجاوب النغم ، كما رأينا في أمثلتنا من النصوص العربية . والجناس معروف في بلاغات الآخرين كما هو معروف في بلاغة العرب .

تكرار المدود

كما تعطي أصوات الحروف الصحيحة هذه القيمة السمعية عند التكرار ، تهب هذه القيمة بشكل أوفر حروف المد الثلاثة (الألف ، والواو ، والياء)عندما تجانسها حركة ما قبلها ، فتتمحض لانطلاق الصوت مسافة أطول . وهي عند التكرار يُلْمَسُ لها تطريب تطيب به النفس ، ويأنس إليه السمع والوجدان ، وقد انتبه إلى هذه الخصيصة اللغوية المتعلقة بالجرس علماؤنا السابقون ، فقال السيوطي : « كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكن مع التطريب بذلك ، كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون ، لأنهم يريدون مَدَّ الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا » [٢] .

---

(١) الشعر والتأمل : روستر يفورها ملتون د. محمد مصطفى بدوي ص : ٩٣ .
(٢) معترك الأقران : ١ : ٥٣ .

ولتوفير هذه المدود تلجأ اللغة إلى إيجادها إيجاداً ، إذا لم تكن من طبيعة البنية ، وذلك عن طريق القلب والإبدال والنقل للحركة ، فالياء تبدل من الهمزة ـ مثلا ـ إذا كسر ما قبلها ، فيقال في (ذئب) ذيب ، وفي (بئر) بير ، وقد أبدلت من الراء ، والنون ، والباء ، والواو ، في (قيراط) و (دينار) و (ديباج) و (ديوان) وأصولها على الترتيب : قِرّاط ، ودِنّار ، ودِبّاج ، ودِوّان ـ بالتضعيف ، وذلك الإبدال سماعي ، وليس فيه عودة للاستدلال به على التخلص من التكرار بسبب الثقل ، لأنه ـ أولا ـ مسموع في ألفاظ معدودة ، ولأن الثقل ـ ثانياً ـ حاصل بالانتقال من كسر فاء الكلمة إلى التضعيف ، بدليل بقاء التضعيف مطرداً مع فتح الفاء في الصيغة مع هذه الحروف نفسها مثل :

- نقَـرِيهمُ لَهْـذميـاتٍ نَقُـدُّبهـا ... ما كان خاط عليهم كل زَرّادِ
- فأنت ما سِرْتَ في أرجاء بهجتها ... في روضة من رياض القلب غناء
- أُخْفِي همومي فما يدري بها أحدٌ ... غيري ومثلي على اللّأْواء صبّارُ
- يقـول بشعب بوّانٍ حصـاني ... أعن هـذا يصار إلى الطعان ؟

كما أن من الوسائل الموفرة للمد ، إبدال الألف وجوباً من الهمزة الساكنة بعد فتح في مثل : ﴿ وآمَنَهُمْ من خوف ﴾ ومثل : فكيف آسى على قوم مجرمين » و « فلما آسفونا انتقمنا منهم » كما تبدل منها جوازاً إذا تحركت بعد فتح مثل : سال من السؤال ، وقَراَ (دون همز) من القراءة ، ووجوباً من الواو والياء إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما ، كما في : قال من القول ، وباع من البيع ، وسما من السُّمُوّ ، وبني من البناية .

وأبـدلت الواو من الهمـزة المضموم مـا قبلها إبـدالا جائـزاً في مثل « يؤمن بالله » ووجوباً من الياء الساكنة المضموم ما قبلها في مثل : « بلقاء ربكم توقنون » و « إنّا موقنونْ » .

تلك نماذج لتوفير المدود في الكلام ، لما لها من صلة نفسية في راحة القلب بمد النفس ، وراحة الأذن بطيب النغم ، وإعطاء النظم من تجاوب الجرس ما لا يعطيه توالي الحروف والحركات ـ فضلا على ما لهذه المدود من وظيفة دلالية ، كما في أسماء الأصوات والأفعال من دلالة الياء على مد الصوت واتصاله في مثل : الحفيف ، والأزيز ، والصليل . . . بينما يدل المضعف الرباعي منها على التقطع في مثل : الثرثرة ، والصلصلة والوسوسة . . فهذه الأحرف الثلاثة للمد ، يكثر أن تجيء زائدة لتعطي مع القيمة السمعية تمييزاً لصيغة عن أخرى . له دخل في الدلالة وتقويم الوزن أو السجع أو غير ذلك من ألوان البديع .

بل يذهب العلماء إلى أن هذه الأحرف الثلاثة أصل لحروف الزيادة العشرة التي يجمعها قولهم : « هناء وتسليم » .

يقول ابن يعيش : :

« وأصل حروف الزيادة حروف المد واللين ، التي هي : الواو ، والياء ، والألف ، لأنها أخف الحروف ؛ إذ كانت أوسعها مخرجاً » ثم يستشعر معارضةً بكلام النحاة فيدفعها بقوله : « فأما قول النحويين : إن الواو والياء ثقيلتان ، فبالنسبة إلى الألف ، وأما بالنسبة إلى غيرهما فخفيفتان » .

ثم يعود إلى الاستدلال لقضيته فيقول : « ولأنها مأنوس بزيادتها ، إذ كل كلمة لا تخلو منها أو من بعضها ، ألا ترى أن الكلمة إذا خلت من زيادة أحد هذه الأحرف فلن تخلو من حركة : إما فتحة ، وإما ضمة ، وإما كسرة ، والحركات أبعاض هذه الحروف ، وهي زوائد لا محالة ، فلما احتيج إلى حروف تزاد في كلامهم لغرض كانت هذه الحروف أولى ؛ إذ لو زيد غيرها لم تؤمن نفرة الطبع ، والاستيحاش من زيادته إذ لم تكن زيادته مألوفة ، وغير حروف المد من حروف

الزيادة مشبهة بها ومحمولة عليها . . »[1] ويؤكد هذا الكلام خفة حروف المد وطيب صوتها لسعة مخارجها ، وأخفها الألف ، كما يؤكد صلتها النفسية التي مردها أنها مألوفة ، لأنها وليدة الحركات التي لا يمكن خلو لفظ عنها ، ولذلك يأنس بها الطبع ، كما يفهم مصاحبة هذا للوظيفة الدلالية من قوله : « فلما احتيج إلى حروف تزاد في كلامهم لغرض . . » .

ولعل قوله هذا وما أشبهه من أقوال الجدود ، هو الذي جعل الأحفاد يقولون : « إن لها مع وظيفة تنويع الأصل وظيفة موسيقية فنية ، فإنها تفسح المجال لتنوع النغم الموسيقي للكلمة الواحدة، أو الجملة الواحدة، لسعة إمكانياتها الصوتية ومرونتها ، وتقاربها في ذلك بقية حروف الزيادة ، لخصائصها الصوتية المواتية »[2] .

إن المتتبع للأوزان والهيئات التي أتت عليها مفردات اللغة ، والتي كثير منها يباح فيه القياس ، ليجد هذه المدات في عدد ضخم ، لا يختص نوعاً من أنواع الكلمة ، فهي موجودة حتى في الحروف المحصورة بعدد يكاد يكون مستقصى ، مما يشهد لهذه اللغة بالمطاوعة النادرة في العطاء للوزن والترنم ، والمواكبة لأصوات النفس الباطنة من أفراح وأشجان .

مواقع المدود

أما مواقع المدود على أبعاد في الكلام متجاوبة الجرس ، فإليك منه في الكتاب العزيز على سبيل المثال ، وأنت واجد المثال في صحيفة صحيفة من المصحف :

---

(١) شرح الملوكي : ١٠١ .

(٢) فقه اللغة وخصائصها : ٢٥٦ .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَو عَلَىٰ أَنفُسِكُم أَو الوَالِدَينِ وَالأَقرَبِينَ إِن يَكُن غَنِيًّا أَو فَقِيراً فَاللهُ أَولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَىٰ أَن تَعدِلُوا ، وإِن تَلوُوا أَوْ تُعرِضُوا فَإِنّ اللهَ كَانَ بِما تَعمَلُونَ خَبِيراً ، يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ والكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبلُ وَمَن يَكفُر بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ .
(١٣٤ ـ ١٣٦ : النساء)

رتل هذا المثال الواحد أو استمع إليه مرتلا ، وسجل هذه المدات بحسك المتذوق لتعرف ما لها من قيمة إيقاعية مشتهاة للقلب مشتهاة للسمع، ثم قس عليها الأعم الأغلب من آيات القرآن .

أنواع المد

المد قصير يقدر بحركتي إصبع على التوالي ، أو طويل يمتد إلى أربع أو ست ، ليعطي قيمة صوتية أمد ، كالواقع قبل الهمز أو السكون ، ومزج الكلام بهذه المدود على اختلافها لا يختار اختيارا ، وإنما يأتي في الأغلب مجانساً للفكرة والإحساس الممتزج بالفكرة ؛ ليعطيها جانباً من التصوير بقوة التداعي .

ولعلك راء في قوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ـ وقد تكرر في سورة (الرحمن) على أبعاد متجاوبة ـ صوت هذا المد الطويل يكنفه ثلاثة مدود قصار ، تؤدي مع التكرار العام للآية تنغيماً داخلياً فيها له أَخْذُه وأَسْرُه ، ونلاحظ أن المد الطويل قد وقع في لفظ الارتكاز من مدار المعنى وهو (الآلاء) ليزيد تميزاً ووضوحاً في مقام التَّمَنُّن والإلزام بالحجة .

وهكذا تجد قوله تعالى :

﴿ اللهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَـهُ الأَسمَآءُ الحُسنَى ﴾ (٨ : طـه) يمتزج فيـه المدان الطويلان بالمدود القصيرة امتزاجاً يشعر فيه القارىء بتمكين النفي لغير الإله الحق

بهذا الطول ، وبتحقيق (الأسماء) الحسنى مقابل النفي ، بالتركيز عليها بامتداد صوتها .

المدود والفواصل

والمدود في الفواصل وهي نهايات الدفقات الصوتية للجمل عند الوقف . نجد لها في القرآن الكريم من الحلاوة والإطراب حظا يثير الحكم بأن لها دخلا كبيراً في الإعجاز ، وهي إما مدود مطلقة يوقف عليها بصوتها ، وإما ملحقة بحرف صائت تسبقه ، وقد تتكرر في كلمة الفاصلة فيضاعف التكرير قيمتها بما لا يخفي جماله وأسر إيقاعه .

أنظر إلى هذه الفواصل المطلقة ، وقد تكرر في كل من ألفاظها المد ، فضلا على تجانسها العام في السياق :

﴿ وَٱلشَّمسِ وَضُحَاهَا . وَالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَٱللَّيلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَٱلسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاهَا . قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَد خَابَ مَن دَسَّاهَا ... ﴾ . (١ ـ ١٠ : الشمس) .

ثم رتل سورة (ق) كلها ، واقفاً عند كل فاصلة ، وانظر تجاوب المدود في نفسك ، وتثبيتها لجملها كأنها أطناب الخيام في مِنًى .

ما هي إلا إشارات وراءها أن تعطي سمعك للقارىء أو بصرك للمصحف مرتلا واعيا ؛ لترى تكرار المدود وتدرك ما يصنع .

في الشعر

حينما نقرأ الشعر في جميع عصوره ، نحس هذه الخصائص الصوتية ظاهرة قوية هي ألمع الظواهر منه ؛ لأن أوزان الشعر أو مقاييسه وهي تسمى (التفعيلات) لا تخلو إحداها من ساكن ، وكثيراً ما يكون الساكن مدا ، والمدود

للتطريب هي بالشعر ألصق ، لأن الشعر في الأعم ـ وبخاصة العربي ـ يمثل غناء النفس أشواقها وآلامها وأفراحها ، التي تناسبها مدات الشجا ، والأسى ، والحنين ، والأنين ، والسراء ، والضراء .

هذه المدات دخلت في حسبان النقد الأدبي ، وسيلة من وسائل تصوير المشهد الذي ينقلنا إليه الشاعر بنشيده .

فطن إلى ذلك الشاعر الناقد المرهف سيد قطب ـ رحمه الله ـ وهو يتأمل قول أبي العلاء :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد

قال: «فالوزن يؤلف الموسيقا الخارجية المحسوسة، وهناك موسيقا داخلية ، ناشئة من طبيعة توالي الحروف ومخارجها ، لا من حركة هذه الحروف التي يتم بها الوزن العروضي » .

« في البيت الأول : (من أبيات اختارها) رنة إعلان وإشارة إلى مجال فسيح :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب

ولعل لهذه المدات الثلاث المتوالية : (صاح ـ هذي ـ قبورنا) دخلا في ذلك الإيقاع الموسيقي الخاص »[1] .

وهو في هذه الالتفاتة المتذوقة منتفع بما أسسه لهذا التذوق علامة الأصوات أبو الفتح بن جني ، والذي ربط بين الجرس والمدلول ربطا ينبغي أن يكبر كل الإكبار ، وأن يعني الناقدون به كل العناية في تقويم النصوص .

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ٦٩ .

وقد سبق أن مثلنا لتكرير الحروف بأبيات من قصيدة عمرو بن كلثوم ، ونعيدها مرة أخرى لظهور المدات مفرقة فيها على أبعاد دقيقة التصويت ظاهرة التناسب مع تدفق وجدان الشاعر في فخره وزهوه وحماسه .

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا
وأنا المطعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخر له الجبابر ساجدينا

ألا تهزك هذه المدود ، وقد ظفرت كلمات القافية كلها بمدين مدين ، وقع الثاني منهما في مكان الفخامة والإطلاق ؟

اقرأ هذه الأبيات لعروة بن حزام في النسيب :

على كبدي من حب عفراء قرحةٌ ... وعيناي من وجدي بها يكفانِ
تحمَّلْت من عفراءَ ما ليس لي به ... ولا للجبال الراسيات يدانِ
كأن قطاةً عُلِّقت بجناحها ... على كبدي من شدة الخفقان
جَعَلْتُ لعراف اليمامة حكمه ... وعرافِ نجد إن هما شفياني
فقالا : نعم نشفي من الداء كلِّه ... وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سلوة إلا وقد سقياني
وما شفيا الداءَ الذي بِيَ كلَّهُ ... ولا ذَخَراً نصحا ولا أَلَواني
فقالا : شفاك الله ! والله ما بنا ... بما ضَمِنَتْ منك الضلوعُ يدانِ !

إن مد الصوت كتنفس الصعداء ، وهذه المدود الكثيرة المتنوعة والمصاحبة

للنص إلى منتهاه ، إفضاءات بآلام الشاعر داخل إفضائه الظاهر بشكواه . . إنها موسيقا شجوه تخللت موسيقا العروض : إنها أنفاسه داخل كلماته تهب الأبيات حياة وصدقا .

الوظيفة الفكرية لتكرير الحرف

إن صوت اللفظ ومعناه يكادان يرتبطان برباط وثيق ، في هذه اللغة التي تقوم فيها الأسماء والأفعال على صيغ وأوزان ، وعلى خصائص صوتية لتركيب كلماتها من حروف لكل منها مخرج في الفم وصفة في النطق . وقد أجهد هذا الكشف أناساً وهبوه الكثير من أعمارهم فأرسوا هذه اللغة على أشباه القواعد الثابتة ، وجعلوا للصوت جزءاً من الدلالة على المعنى ، فما رق ولان من الحروف لما رق ولان من المدلولات ، وما خشن وصلب منها لما خشن وصلب ، وكل صيغة على صوت هي لمدلول لا يدل عليه غيرها مشتقة كانت أو أصلا ، وأصوات الحروف الأصول في المادة تتقلب تقلباً مكانياً فتعطي معنى عاماً واحداً ، ثم يختص كل وجه تحت هذا العموم بميزة ليست لسواه .

وقد كان لأبي الفتح ابن جني أكبر الأثر في هذا المضمار المجهد ، حتى أصبح مرجعاً وأساساً يرجع إليه ويبني عليه ، وإن كان قد اتخذ مفتاح بحثه من ملاحظات لاحظها سيبويه والخليل ، لم تطل ولم تكثر ، ولم تنفرد بالبحث المتخصص إلا في يديه .

ونحن هنا قاصرون الحديث على سبيل المثال ، فذاكرون بعض النماذج التي يشترك فيها الصوت واختلاف جرس الحروف في الدلالة على المعنى .

الدلالة بالصيغة

بصرف النظر عن أصوات الحروف مفرقة ، أو مجتمعة ، أو مرتبة بترتيب

خاص ، اشتهر في صرف لغتنا ما يدل من الصيغ على الذات الفاعلة ، أو ما وقع عليه الفعل ؛ أو ما دل على زمانه أو مكانه ، وما دل على صفة منقولة ، أو دل على صفة لازمة ، وما تتابعت حركة حدوثه من الفاعل وما تقطعت ، وما ينسب لفاعله المعلوم ، وما جهل فاعله فنسب إلى نائب عنه ، وما بولغ من الفاعل في فعله وما لم يبالغ . .

هذه الهيئات النوعية التي يؤخذ لها ميزان عام في الصرف من مادة (فعل) ينطبق كل منها حيثما وجد على هذا المدلول المفروغ من العلم بمطابقته ،إلا عند قيام القرائن على استعماله مجازاً وتوسعاً لعلاقة قائمة .

وفي هذا الجنس الذي يعزى إلى الاشتقاق الصغير ، يتصل بموضوعنا ـ موضوع التكرير ـ ما تكرر فيه الحرف ، ليفيد صوته جديداً في المعنى ، فيكون للتكرار الحرفي دلالة سمعية ودلالة فكرية .

وأظهر ما يظهر ذلك في المزيد بتضعيف العين أو اللام من الأفعال وما اشتق على غرارها ، وفي بعض المزيدات مما أحدثت الزيادة فيه تكريراً ، ولنا كفاية في التمثيل بتلك الصيغ : (فعَّل ـ تفعَّل ـ افعوعل ـ أفْعَلَّ ـ افعالْ) وهي من أوزان الأفعال ، ومعها صيغة (فِعِّيل) من صيغ الأسماء .

صيغة (فَعَّل)

أما صيغة (فَعَّل) مكرر العين بالتضعيف ، فلهذا التكرير فيها معان يدل عليها هذا الصوت ، قد أنهاها صاحب (أوزان الفعل ومعانيها) إلى الواحد والستين متتبعاً ما ذكره الصرفيون واللغويون ، وركيزته الأولى من هؤلاء (لسان العرب) .

وقد جعل ابن يعيش من أول تلك المعاني (التكثير) قال : « وهو الغالب

على هذا البناء . تقول : كسَّرت المتاع ، وغلَّقت الأبواب ، وقطَّعت الثياب إذا أردت تكرير الفعل ، فتكرير العين أفاد الدلالة على تكرير الفعل مرات . وهذه أهم المعاني المدلول عليها بتلك الصيغة .

١ ـ القيام بالفعل بقدر العدد الذي هو أصله . يقال : سبَّع الإناء : غسله سبعاً ، ومنه الحديث أن النبي ﷺ قال لأم سلمة حين تزوجها . « **إن شئت سبَّعت عندك ثم سبَّعت عند سائر نسائي وإن شئت ثلثت** » . وجاء في اللسان أنه يطرد من الواحد إلى العشرة في كل قول أو فعل .

٢ ـ وجود الشيء على صفة ، ومنه : طَيَّبه : وجده طيباً ، وصعَّب الأمر : وجده صعباً .

٣ ـ بمعنى صار له كذا ، ومثله : قصَّب الزرعُ : صار له قصب ، ولبب الحب : صار له لُبٌّ .

٤ ـ الإقامة بالمكان الذي هو أصل الفعل ، يقال . حصَّب : أقام بالمحصَّب .

٥ ـ الإصابة بأصل الفعل ، يقال : رمَّد الشواء أصابه بالرماد .

٦ ـ جعل له كذا : صدَّر الكتاب : جعل له صدراً ، وخير صاحبه جعل له الخيار .

٧ ـ الظهور : يقال : شعَّر الجنين : نبت عليه الشعر ، وعذَّر الغلام نبت شعر عذاره ، ونوّر الصبح ظهر نوره .

٨ ـ جعْل الاسم المأخوذ منه الفعل في المفعول ، ومنه : قيَّرْتُ السفينة طليتها بالقار ، وحنَّأ لحيته خضبها بالحناء .

٩ ـ الإقامة مدة الوقت الذي هو أصل الفعل : قيَّظوا : أقاموا زمن القيظ .

١٠ـ الطلب : حكّمه : طلب إليه أن يَحْكُم ، وصبره : طلب إليه أن يصبر .

وهكذا إلى آخر المعاني التى زادها تكرير العين وخلا عنها الثلاثي قبل التضعيف .

تفعَّل

كما استنبط صاحب هذا الكتاب من أقوال العلماء خمسة وثلاثين معنى لوزن (تفعَّل) المكرر العين مع زيادة التاء أوله ، ومنها :

١ ـ التحيُّن : يقال : تغفَّله : تحيَّن غفلته ، تغَنَّم الشيء : تحين اغتنامه .

٢ ـ الشكوى : يقال تظلم : شكا ظلمه ، وتوجع : شكا وجعه .

٣ ـ التناول : تخشَّبت الإبل : أكلت الخشب ، وتَعَشَّبَتْ : رعت العشب ، وتسحَّر الرجل : الرجل : تناول السحور .

٤ ـ الانتساب : يقال : تكوَّف : انتسب إلى الكوفة ، وتَشَأَّم : انتسب إلى الشام .

٥ ـ جعل الشيء كذا : يقال : تَمَّوله : جعله مالا ، وتقوَّته : جعله قوتاً .

٦ ـ الدخول في مكان : تغوَّروا : دخلوا الغار ، وتكنَّستْ : دخلت الكناس ، وتجبَّلوا : دخلوا الجبل .

٧ ـ نسَبَهُ إلى كذا : تعيَّبه : نسبه إلى العيب ، وتكذبوا عليه : نسبوه إلى الكذب ، وتنقصوا الرجل نسبوه إلى النقصان .

٨ ـ صار كأصل الفعل : تذأَّب الرجل : صار كالذئب خبثاً ، وتليّث : صار كالليث ، وتفعَّى : صار كالأفعى .

٩ ـ بمعنى الشد : تعصَّب : شد العصابة ، وتنطَّق : شد النطاق ، وتلثَّم : شد اللثام .

١٠ ـ المبالغة : تفصَّح الرجل : ازداد فصاحة ، وتنصَّح : أكثر النصح .

إلى آخر المعاني التي تدل عليها الصيغة بتكرار العين وزيادة التاء أو لا .

افعوعل

مما يأتي له هذا الوزن المكرر العين :

١ ـ أن يكون بمعنى صار كذا . يقال : اخشوشب : صار خشباً ، وأعْصَوْصَبوا : صاروا عصابة ، واخلَوْلَقَ السحاب صار خليقاً للمطر .

٢ ـ وقال ابن يعيش : « وأما افعوعل فهو بناء موضوع للمبالغة ، قالوا : خشُن المكان ، فإذا أرادوا المبالغة والتوكيد قالوا : اخشوشن . وقالوا : أعشبت الأرض ، فإذا أرادوا الكثرة والعموم قالوا : اعشوشب . فمعنى : خشن وأعشب دون معنى اخشوشن واعشوشب ، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو ، وقوة اللفظ مؤذنة بقوة المعنى . . »[١] .

افْعَوَّلَ

وقال : « وأما (أفعوَّل) نحو : اخرَوَّط ، واجلوَّذ ، واعلوَّط ، فمعناه المبالغة (كافعوعل) لأنه على زنته ، إلا أن ثم المكرر العين ، وها هنا المكرر الواو المزيدة »[٢] .

---

(١) شرح الملوكي : ٨٥ .
(٢) نفسه : ٨٧ .

وهذا راجع إلى كلام ابن جني في (باب في قوة اللفظ لِقوة المعنى)[1] قال : « هذا فصل من العربية حسن ، منه قولهم : خشن واخشوشن ، فمعنى (خشن) دون معنى (اخشوشن) : لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو ، ومنه قول عمر (رضي الله عنه) : اخْشَوْشِنُوا وتمعددوا . . .

وكذلك قولهم : أعشب المكان ، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : اعشوشب ، ومثله : حلا واحْلَوْلَى ، وخلق واخلَوْلق ، وغدن واغدودن » .

ويتصل بذلك تكرير الحرف في الأسماء .

قال في الباب نفسه : « ومن ذلك أيضاً قولهم : رجل جميل ووضيء ، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : وضُاَّء وجُمَّال ، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه . قال :

والمـرء يلحقه بفتيـان الندى　　خلق الكريم وليس بالـوضَّاء

وقال :

تمشى بِجَهْمٍ حسن مُـلَّاحِ　　أجمَّ حتـى هم بـالـصبـاح

وقال :

منه صفيحة وجه غير جُمَّال

وكذلك : حسن وحسَّان ، قال :

دار الفتاة التي كنا نقول لها　　يا ظبية عطلا حُسَّانـة الجيد

وكأن أصل هذا إنما هو لتضعيف العين في المثال ، نحو : قطَّع وكسَّر وبابهما ، وإنما جعلنا هذا هو الأصل لأنه مِطرد في بابه أشد من اطراد باب الصفة . . .

فأما قولهم : (خُطَّاف) وإن كان اسماً فإنه لاحق بالصفة في إفادة معنى

(١) الخصائص ٣ : ٢٦٤ .

الكثرة ، ألا تراه موضوعاً لكثرة الإختطاف ؟ وكذلك (سكين) إنما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح به . . . » .

وفي مثل ذلك يقول ابن فارس في الكتاب (الصاحبي) :

« ومن سنن العرب الزيادة في حروف الاسم ، ويكون ذلك إما للمبالغة وإما للتشويه والتقبيح .

سمعت من أثق به قال : تفعل العرب ذلك للتشويه ، يقولون للبعيد ما بين الطرفين المفرط الطول : (طِرمّاح) وإنما أصله من (الطَّرَح) وهو البعيد ، لكنه لما أفرط طوله سمى (طرماحاً) فشوه الاسم لما شوهت الصورة ، وهذا كلام غير بعيد . . .

ويكون من الباب (سِمْعَنّه نِظْرَنّه) ومن الباب (كبير وكُبّار ، وطويل وطوّال) » [1] .

ومثل ذلك يتكرر في كتب الأسلاف من صرفيين ولغويين وبلاغيين ، كالذي نراه في الجامع الكبير لابن الأثير [2] دون زيادة فرق .

فعلل

أما صيغة (فعلل) المضعف الرباعي ، فإن مما تأتي له :

(١) أن تكون بمعنى قال كذا . يقال : بأْبأْت الصبي ، وبأبأت به : قلت له : بأبي أنت وأمي ، وجَأْجَأ بالكبش ، إذا قال له : جأجأ زجراً ، وبخبخ إذا قال : بخ بخ .

(٢) الترجيع والتكرار . يقال : تأتأ الرجُل إذا كان يتردد في التاء إذا تكلم ،

---

(١) الصاحبي : ٧٠ ـ السلفية ١٣٢٨ هـ .

(٢) الجامع الكبير : ١٩٣ .

وفأفأ فلان في كلامه ، قال المبرد : الفأفأة : الترديد في الفاء إذا تكلم . وكذلك : صَرْصَر ، وصلصل ، إذا أردت أن الصوت تكرر . . .

(٣) التناول . في مثل : سلسلَ : أكل السلسلة وهي قطعة طويلة من السنام ، وجثجث البعير : أكل الجثجاث .

(٤) التلبس ، في مثل تخلخلت المرأة : لبست الخلخال .

وهذا الوزن تكراره في مكانين ، ويرده الكوفيون الى الثلاثي المضعف إذا ضعفت عينه ، بحيث يجتمع فيه ثلاثة أحرف من جنس ، فيبدلون من أوسطها حرفاً مماثلا لفائه . ويجعله البصريون كلمة ، والثلاثي كلمة ، على الاستقلال في كل منهما ، ولكنه على أي حال يمثل بتكرار حرفيه تكرار المعنى الذي هو أصل مادته ، سواء كانت فعلا أو صوتا ، وإلى هذا يشير ابن جني في مثل : الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والجرجرة والقرقرة[1] .

ويفسره البطليوسي على فك جزئيه لبيان الوحدة التي هي أصل بنائه فيقول :

« المهامه : القفار الملس التي لا نبات فيها ، واحدها مهمه ، واشتقاقه من قولهم : مهمهت بالرجل إذا زجرته ، فقلت له : مه مه ، كأنهم أرادوا أنه قفر يخاف فيه الهلاك ، فإذا تكلم فيه الرجل زجره أصحابه عن الكلام[2] .

وارتباط صوت اللفظ الذي وقع في حروفه التكرار بالمعنى ، لا يرجع إلى ابن جني ومن سبقه أو لحقه فحسب ، بل هو ظاهرة يراها المحدثون من علماء اللغة ، وبخاصة في طائفة كبيرة من الألفاظ ، ويرجع بعضها الى الرابطة الطبيعية ، والآخر الى الرابطة الوضعية ، كما صنع الدكتور علي عبد الواحد في (فقه اللغة) .

---

(١) الخصائص : ٤٤١ .

(٢) الاقتضاب : ٤٧٣ .

« أما الروابط الطبيعية فأساسها محاكاة الأصوات ، فكثير من الكلمات الدالة على أصوات الإنسان والحيوان والأشياء ، وبعض الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره ، تحكى أصواتها - في صورة ما - الظواهر التي تعبر عنها » .

ومن ذلك القهقهة ، والدندنة ، والنحنحة ، والهمهمة . . .

كما أن منها ما يأتي على وزن آخر ، لم يخل من تكرير الحرف : كالرنين والأنين ، والحنين ، والكرير ، والهرير ، والحفيف ، والصليل والأزيز ، والفحيح ، والكشيش . . .

وأما النوع الثاني وهو العلاقة الوضعية فيكون بالاشتقاق[1] .

تلك عجالة في تكرير الحرف في الكلمة ، ومشيره مزية تعود على الجرس وأخرى تعود على المعنى ، وقد استغل هذه النظرية الازدواجية كثير من النقاد القدامى والمحدثني ، في بيان تمثيل الألفاظ للمشاهد المعبر عنها بما لا يخلو من إصابة نظر، كما أومأنا إلى ذلك من قبل، وقد تمثلت في هذا الصدد، بقوله ﷺ لأم السائب وكانت مريضة بالحمى : « يا أم مالك تُزَفْزِفين ؟ » .

فإن ذلك اللفظ بما فيه من التكرار يصور لنا رعدة الحمى وتكرر الحركة والصوت من فكي أم السائب (رضي الله عنها) وكذلك قوله (صلوات الله وسلامه عليه) « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » فإن الفعل « يتتعتع » بما فيه من التكرار والتضعيف يرسم صورة اللسان وهو يحاول النطق في معاناة ومشقة ، وهذا الفعل مقصود منه (صلوات الله وسلامه عليه) لأداء ما أريد منه على تلك الصفة ، وإلا لصح الاكتفاء بقوله : « والذي يقرأ القرآن وهو عليه شاق له اجران » .

كما نرى مثل ذلك لفظ « الثرثارون » في قوله : « إن أبغضكم إلى وأبعدكم

---

(١) فقه اللغة : ١٧٠ - دار نهضة مصر .

مني أساوئكم أخلاقا : الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » ونظيره الفعل « يتجلجل » في الحديث : « بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه ، مُرَجّل رأسه ؛ يختال في مشيته ، إذْ خسف به في الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[1] .

كما ندرك خشونة الصوت وتكراره ونكاد نلمس في الخيال الصورة المعبر عنها من قول علقمة :

تخشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

ويتجسم بالتكرار صراع الدهر مع سابور وهو يدفعه بعنف دفعة بعد أخرى ليزيله من الوجود ، في قول عدي بن زيد :

فاسأل الناس أين آل قبيس طحطح الدهر قبلهم سابورا

وتكرار المعاناة تحت الضغط يرسمها ذلك التضعيف في قول ابن مقبل يصف لهاة فرسه :

يقلقل من ضغم اللجام لهاته تقلقل عود المرخ في الجعبة الصِّفْرِ

وذلك الهمس الرقيق الجرس المتتابع الإيقاع ، يصوره التكرار في ﴿ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ (٤ ـ ٥ : الناس) .

وعلى ذلك الوجه من مشاركة التكرير الحرفي في تشخيص المعاني وتقريبها من إدراكنا الحسي ، يمكننا التطبيق على هذه المضعفات من صفات أو أفعال ، وهو أمر لا نحكم به تخيلا ، فإن صلة اللفظ فيه بمدلوله منقولة عن الواقع .

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، فصل « تصوير المعنى بجرس اللفظ » ، ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) تكرير الكلمة والكلام

يطرب الإنسان كثيراً إذا رد الصدى صوته ، مع أن الصدى الذي يرده قد تنبهم فيه الكلمات فتفقد صدق المحاكاة، كما يزداد الإنسان طرباً للكلمة ذاتها يعيدها إلى سمعه من يحب أن يسمعها من فمه ، لما طبعت عليه نفس الانسان من طبيعة التكرار ، الممثلة في ذاته وحياته بصورة لا يستطيع الإفلات منها متى شاء . فالإنسان والتكرار صديقان منذ الطفولة المبكرة ، التي يبدأ فيها بسماع دقات قلب الأم جنينا ووليدا ، وبتكرار حركة الفم في الرضاع « فالجنين في بطن أمه يسمع دقات قلبها ، ويتأثر بها ، وينفعل معها ، ويظل يسمعها وهو على صدر أمه بعد الولادة حتى يشب ويكبر ، ولذلك تكون أول كلماته ثنائية التركيب ، مبسطة النطق تماماً مثل دقات القلب ، فيكون أول نطقه لكلمات مثل : بابا وماما . . . وغيرها . . . »[١] .

وكثير من الكلمات ذات التكرير في اللغة مرده إلى محاكاة الطبيعة ، وأصوات الأشياء التي حول الإنسان من مهده إلى منتهاه .

« ولو نظرت إلى الأطفال وهم يلعبون فإنهم يلجأون إلى التكرار في حركاتهم ، وإلى المنظوم في أناشيدهم ، وإلى التصفيق المنتظم المنغم في مرحهم وإلى كل ما يحمل صفة التكرار . . . » .

« فهذا الإيقاع المنتظم المستمر يثير في نفوس الأطفال السرور والبهجة »[٢] .

---

(١) لغة الهمس : ٥٧ .

(٢) نفسه : ١١٢ .

وهذا كما يرى صاحب (فقه اللغة) راجع إلى أسباب كثيرة منها :

أن النشاط الحركي يتجه دائماً إلى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة ، ومنها أن إيقاف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذي يتطلبه استمرارها ، فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين ، وإلى هذا يرجع السبب في حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار أحياناً ، وخاصة حينما يتكلمون بسرعة(١) .

ومع السرعة نضيف هنا الحالات النفسية والانفعالية التي تعد مثيرة للتعبير وحاملة على التكرير ، والإنسان في مثل هذه الحالات ينفلت من قوة التحكم في النطق ، فيعود في صورة ما إلى ما صحب الفطرة من بدء الحياة .

مزية التكرير

إذا كان لتكرير الحرف الواحد في الكلمة أو في الكلام على أبعاد ما قد عرفناه من القيمة السمعية ، فإن تكرار الكلمة في الجملة أو النص ، وتكرار الجملة في السياق ، لا بد أن يكون له من القيمة ما هو أكبر ، وهذا ما يلجأ إليه لقسر المستمعين المطربون وصانعو الألحان ، إذا لم يكن الكلام المغني حاصلا على هذا التكرار أصلا ، وحينما تأخذ المستمع نشوة التأثر ، قد ينطلق هو يكرر المسموع اعجاباً به أو تعجيباً منه أو غير ذلك ، كالذي أخبر به الجاحظ عن عمر (رضي الله عنه) في قوله .

« ولقد أنشدوه شعراً لزهير ، وكان لشعره مقدِّماً ، فلما انتهوا إلى قوله :

وإن الحق مقطعه ثلاثٌ يمين ، أو نفار ، أو جلاءُ

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق ، وتفصيله بينها ، وإقامته أقسامها :

---

(١) فقه اللغة د . علي عبد الواحد ١٣١ : ط السلفيه .

وإن الحق مقطعه ثلاث . . .

يردِّدُ البيت من التعجب .

وأنشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب الطويلة التي على اللام ، فلما بلغ المنشد الى قوله :

المـرء ساع لشيء ليس يـدركه والعيش شح ، وإشفاق ، وتأميل

قال عمر متعجباً :

« والعيش شح ، وإشفاق ، وتأميل - يعجبهم من حسن ما قسم وفصل »(١) .

ومثل هذا الترديد ، ما ذكر عن ارتجاز الصحابة وهم يضربون الخندق حول المدينة ؛ ، فقد كان النبي (صلوات الله وسلامه عليه) يردد لفظ الروي : (عمْراً ، وظهراً) كلما انتهوا إليهما من قولهم .

سمـاه من بعـد جُعَيـلٍ عمـراً وكـان للبـائس يـومـاً ظهـرا

ولتكرار الكلام أوضاع مختلفة ، تتوفر لها القيمة الصوتية ، سواء نظرنا الى المعنى أو تجردنا مؤقتا عنه ، لنسمع جرس الحروف العائدة مرة أخرى أو مرات .

إن هذه النظرة الصوتية المنفصلة الى جرس الحرف في الكلمة ، وجرس الكلمة في الكلام ، وإلى صوت الكلام المعاد - لا يمكن أن تكون إلا فرضية الوقوع عند العالم بمعاني الألفاظ ، التي تجرى هذه الدراسة عليها ، فإن اللفظ ومدلوله غير مفترقين بعد العلم بالوضع أو إدراك قرينة المجاز ووجه العلاقة .

واللغة العربية في كثير من الكلمات تمثل المعنى بصـوت الحرف ، وتصور الخفة ، والثقل والطول ، والقصر ، والخشونة ، والنعومة ، وغير ذلك من المفاهيم بجرس الكلمات . فالصوت والمعنى بذلك مقترنان .

فالدراسة لهذه الجزئية لا تعني استقلال القيمة الصوتية عن غيرها من القيم الشعورية والدلالة الفكرية ، بل هي متجاوبة معها تجاوب صوت المنشد مع سائر

---

(١) البيان والتبيين : ١ : ٢٤٠ .

أصوات المنشدين وآلات الإنشاد في إلقاء نشيد ما ، بحيث لا يعزي التأثير للواحد المنفرد ، حتى إن بعض العلماء كابن تيمية (رحمه الله) يكاد يهمل دلالة المفرد ، لعدم تعينها إلا في التراكيب ، موافقة للمعقول بالفطرة مما نسمع ، حيث لا نتلقى اللغة مفردات ، بل جملا وأساليب تعبير ، يحدد نظمها على وجهه دلالة كل مفرد في المجموع .

فاللفظ ما دام يراد به الحديث لا بد من دلالته على معنى في تركيب ملفوظ أو مقدر ، ساعد جرسه على تمام الأداء أم لم يساعد ، ويعلم الله إذا كان ملحظ ابن تيمية وأمثاله مبعث تنبه النقاد الغربيين لهذه الزاوية ، أو أنها مجال للتوارد ، لما لها من تأكد واقعي في الأذهان بالتجارب .

إن عدم انفصالية العناصر في التجربة بالنسبة إلى وجودها ، هو حقيقة مقررة ، يخبر عنها «روستر يفور هاملتون» على هذا الوجه الذي نعقله إذ يقول :

« إن اعتبار التجربة كما لو كانت تتألف من أجزاء يمكن فصلها افتراض أولي ، لا تستغني عنه أية نظرية موضوعية في الجمال ، ولكنه افتراض كاذب ، فلا يتألف الكل العضوي من أجزاء ، ولا يمكن بناؤه من أجزاء ، ولكنه مركب من عناصر لا توجد منفصلة ، وإنما توجد في هيئة واحدة ، مردها مبدأ حياة معين في باطن الشيء ، وهكذا فالتجربة الجمالية هي كل عضوي ، مصدر الوحدة فيه نوع خاص من الاهتمام الجمالي »(١) .

فالمركب الكلامي ككل المركبات الممتزجة من مجموع عناصرها ، غير أن هذا التحليل يقرب إلينا أسس التأثير الناجم عن التقائها بنفوسنا، ولشدة الاتصال بينها يقول لانسون .

« . . . إن التحليل اللغوي ينتهي بنا إلى التمييز بين ثلاثة أنواع من العناصر : الأصوات ، وتلك عناصر علم الأصوات ، والمفردات ، وتلك عناصر

---

(١) الشعر والتأمل : ٦٣ .

المعاجم ، وعوامل الصيغة ، وتلك عناصر النحو بمعناه الدقيق . . . »

« . . . ومع ذلك فهي شديدة الاتصال بعضها ببعض ، حتى ليمكن اعتبارها دراسة لشيء واحد من جهات ثلاث ، وذلك الشيء هو اللفظ الصوتي مستعملا في الحديث ، ومع ذلك فإن صعوبات المنهج اللغوي لا تنتهي عند تعرفنا على هذه الأنواع الثلاثة التي هي الوحدات الأساسية في اللغة ، ونعني بها : الصوت ، واللفظة المفردة ، وعامل الصيغة »[1] .

وينقل روستر عن رتشاردز قوله :

«ولا يحدد الصوت ذاته طريقة تأثيره بقدر ما تحددها الظروف التي يدخل فيها هذا الصوت . هذه التوقيعات جميعا مرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطاً وثيقا . والكلمة الناجحة هي التي تستطيع أن تشبع هذه التوقيعات جميعاً في نفس الوقت ، إلا أنه يجب علينا ألا نعزو إلى الصوت وحده ميزات تتضمن هذا العدد الكبير من العوامل الأخرى . ولا يعني قولنا هذا أننا نقلل من أهمية الصوت في شيء ، فالصوت في معظم الحالات هو مفتاح التأثيرات الأخرى في الشعر »[2] .

إنه ببعض التحوير في الاتجاه يمثل نظرية النظم عند عبد القاهر ، الذي يؤمن بالقيمة كل القيمة في التماسك والانسجام ، ولا يهمل جانب اللفظ في تلك القيمة ولكنه لا يعزوها جميعاً إليه .

حقاً إن الصوت في معظم حالات لغتنا هو مفتاح سريع الدوران لوضوح الرؤية من وراء المسموع ، فالهيئات بأوزانها وحروف الزيادة في الصيغ ـ وما هي إلا أصوات مكيفة بالحركة والسكون والمد ـ لها كبير الدخل في تصوير المعاني وتحديد الفروق ، غير أنها مع هذا الدخل، ومع القيمة الجمالية للصوت، لا يمكن عد الصوت فيها ـ كما أسلفنا ـ عنصراً مستقلاً يأتي عن طريق الانتخاب الواعي في التجارب الفنية الكاملة ، التي يكون باعثها المثير الوجداني الغالب

(١) منهج البحث في اللغة : ٨٠ .

(٢) الشعر والتأمل : ٩٣ ـ ٩٤ .

على الوعي ؛ إذ تأتي حينئذ دفعة واحدة ، كالسيل الذي يشق مجراه بقوته . قاسراً كل ما يعترضه في هذا المجرى على الخضوع لسلطانه .

وإنما يتصور ـ ضرباً من التصور ـ أن يكون انتخاب اللفظ ذي الصوت الخاص دون آخر يمكن أن يدل ـ في الجملة ـ دلالته ، من صانع للبيت من الشعر أو الفقرة من النثر ، يقف منها موقف البناء والهندسة بكثير من وعيه إن لم نقل بكل وعيه ، مع قليل من الوجدان إن لم نقل مع فقد الوجدان .

وإلى التجاوب الصوتي الذي يقع على التجربة من الغيب ، يشير القرطاجني ، بعد سوقه وجوها من تحسين الكلام بتحسين الهيئات فيقول :

« ومنها أن تتناسب بعض صفاتها ، مثل أن تكون إحداها مشتقة من الأخرى مع تغاير المعنيين من جهة أو جهات ، أو تتماثل أوزان الكلم ، أو تتوازن مقاطعها. ومنها أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلمة أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها . وقد تعدم هذه الصفات أو أكثرها من الكلمة وتكون مع ذلك متلائمة التأليف ، لا يدري من أين وقع فيها التلاؤم ، ولا كيف وقع ، ليس ذلك إلا لنسبة وتشاكل يعرض في التأليف ، لا يعبر عن حقيقته ولا يعلم ما كنهه ، إنما ذلك مثل ما يقع من بعض الألحان وبعض ، وبعض الأصباغ وبعض ، من النسبة والتشاكل ، ولا يدري من أين وقع »[1] .

ومعنى ذلك لا يتأتى إلا عن عمل خفي في العقل الباطن ، الذي يعمل ونحن في غفلة عنه ، فتتسق فيه الكيفيات اتساقاً يمكن الخيال من جذبها إلى اللسان أو القلم عند الإحساس بالمثير والحاجة إلى التعبير ، وإلا فمن أين تأتي للمرتجل المفاجَأ بموقفٍ مَا بلاغةُ خطبة قصيرة أو طويلة ، لو أعطيناها حقها من النقد التحليلي لوجدنا العجب العاجب الذي يفوق صنعة المتصنع في كثير من الأوقات ؟

---

(١) منهاج البلغاء ٢٢٣ .

ومهما يكن من شأن ، فإنا نعيد على الإجمال قولنا : إن القيم الصوتية لجرس الحروف أو الكلمات عند التكرار ، لا تفارق القيمة الفكرية والشعورية المعبر عنها ، ومثير هذا التطريب لتكرير الحرف أو الكلمة ـ غالبا ـ هو حب امتلاك الكلام بإيقاعه قلب السامع ، وهذا المثير قد يتحقق له المرتجى بطريق مباشر هو طريق الصنعة ، أو غير مباشر في أسمى التجارب الفنية الأدبية ، عند كمال النضج في الجانب المحجوب خلف بؤرة الشعور من رأس المبدع ، وقد يكون مرجع هذا النضج محاولات من الصنعة في المبدأ ، ما زالت تتكرر حتى انطبعت على لوح الخيال منها المتجانسات » فصارت كأنها للنفس طبع جديد ، ورب جديد جره اللعب .

المثيرُ للتكريرُ

المثير للتكرير إذن على الإطلاق ، إما أن يعود على الإيقاع ، وإما أن يعود على موضوعه . ولا يتصور أن يخلو أحدهما عن اقترانه بصاحبه ، ولعل هذا النظر هو أساس بناء البديعيين محسناتهم التي يقع فيها التكرير على ما هو لفظي وما هو معنوي ، فقد جعلوا (الإرصاد أو التسهيم) ، مثلا من المحسنات المعنوية ، وهو حاصل بحروف مكررة عائدة الصوت ، فلها جرسها المسموع ، ولكنه كالمغفول عنه . كما جعلوا من المحسن المعنوي (المشاكلة) وشأنها في التكرار شأن (الإرصاد) .

وعلى العكس من ذلك عدوا (الجناس) محسنا لفظيا جاعلين في مقدمة النظر الاعتداد بالصوت ، مع ما في الجناس من تأكيد المعنى بالمخاتلة عنه في إبداع ولطف .

والحق كما ـ أسلفنا ـ أن كل حسن يعود على اللفظ هو ذاته عائد على معناه ، وكل حسن يعود على المعنى هو ذاته عائد على لفظه ؛ إذ الحروف ومضمونها معا هما اللفظ ، غير أننا مع نظرة الاثنينية المفترضة ، سنتحدث عن الأنواع التي كان للتكرير فيها نصيب أوفر من الصوت ، والتي كان له فيها كبير الأثر على المعنى ، رابطين بين هذه الظاهرة الأسلوبية العريقة وفنون القول ، التي تكون فيها المثيرات في الغالب انفعالات النفس مع المواقف ، وهي المقامات الخطابية ، التي عزى إليها شعرنا الغنائي وما أشبهه من نثر يحمل سمات الشعر .

ولعلنا لم ننس مذ بدأنا البحث ، أن مقصودنا بالتكرير هو إعادة اللفظ مطلقا ، فيندرجُ تحت هذا العموم ما عده العلماء نوعاً من الإطناب . وما جرى

على وجه التحسين في علم البديع ، وإن كان الجميع له باعث يحمل على التعبير به ، وأغراض ومقامات يكثر فيها ويحسن .

التكرير على وجه الإطناب

إذا كان اللفظ مكررَ مثله السابق عليه وليس معناه غير معناه ، وإنما كرر لتقريره بالتأكيد ـ عد العلماء ذلك التكرير إطنابا ، وهذا المفهوم هو مقصودهم عند إطلاق اللفظ ، ولا يخلو كتاب تناول موضوع الاطناب من عده في الأنواع المندرجة تحته ، وهو بذلك من فروع علم المعاني ، كما لا يخلو باب التأكيد في كتاب نحوي من عده في المؤكدات ، ولا هذا الباب من كتب علوم القرآن والأصول التي تناولت سنن العرب في كلامها من بيان وجه التعبير به والحاجة إليه ، ولذلك أحببت أن أشير إليه هنا إشارة مسبقة ، قبل الحديث عنه في مكانه من ذكر الأنواع التي معتمدها تكرير اللفظ ، لأجل بيان الأسباب التي حثت هؤلاء جميعاً على الحفاوة به خاصا وعاما ، إطنابياً وغير إطنابي ، في فقرة واحدة أو في مجموع كلام أو كتاب .

السبب الأهم

هذه الدراسة فضلا على أنها لظاهرة أسلوبية تستحق الحفاوة لذاتها ، كان من أكبر الحوافز إليها ما وُجِّهَ على القرآن المجيد من طعن بكثرة التكرار فيه ، وذلك، ممن يجهلون مواءمة التكرار للفطرة أولا ، وأن له وظيفة مزدوجة الأداء ثانياً ، تحمل مع التوثيق للمعنى ودفع المساهلة في القصد إليه ، قيمة صوتية وفنية تزيد القلب له قبولا ، والوجدان به تعلقا ومن هذه الوجهة اتصلت تلك الدراسة عن قرب بمسائل الإعجاز البياني للقرآن .

ولما كان مدار الحديث حول هذا السبب ، والقرآن كما قال الله فيه :

﴿ والكِتَابِ المُبِينِ : إِنَا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبيًّا لَعَلَّكُم تعقِلُونَ ﴾ (٢ ، ٣ : الزخرف) .

﴿ فَإِنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٨ : الدخان)

كان حديث العلماء على اختلافهم في التكرير ، دائراً على محور أبلغية تلك الظاهرة ، ببيان الداعي إلى وجودها ، والاستشهاد لها من مأثور اللغة التي بها نزل الكتاب المبين ، للجلاء عن اتصالها الوثيق بهذا اللسان ، حتى رأيناهم لاتحاد المستشهد به ، يكادون يتفقون على المنقول منه ، فنرى الأمثلة في كتاب المتأخر ما استشهد به المتقدم .

والقرآن في ذاته أعلى من أن يدافع عنه ذووه ، وما أصدق أن ينطبق على هذا الموقف منه قول ابن المقفع : « إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم بما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنهما لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال[1] .

ولكن الفائدة التي لا تنكر لحديث العلماء في ظواهر الأساليب ، هي نقل هذه القيم من جيل إلى جيل ، تذكيراً بها وحفظاً لأصالتها ، ومحاولة لبقاء انطباع أبناء هذا اللسان بطابعه ، حتى لا تبعد المسافة بين الأجداد والأحفاد ، فيصبح القديم متحفا للآثار ، ويصبح الجديد نافراً عنه متعالياً عليه .

---

(١) البيان والتبيين : ١ : ١١٥ .

آراء العلماء :

الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)

ومن أوائل المتكلمين في التكرار وترديد الألفاظ صاحب (البيان والتبيين) الذي كان تكرير اللفظ من أظهر سمات أسلوبه ، فلا تقرأ فصلا من فصول كتبه إلا طالعك بهذه السمة ، فيقول ـ مثلا ـ وهو يذكر العمائم والأزياء .

« وللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللبقالين عمة ، وللأعراب عمة ، وللصوص عمة، وللأبناء عمة ، وللروم والنصارى عمة . . .

ولكل قوم زي ، فللقضاة زي ، ولأصحاب القضاة زي ، وللشرط زي وللكتاب زي ، ولكتاب الجند زي . . . »

« وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب : فمنهم من يلبس المبطنة ؛ ومنهم من يلبس الدراعة ، ومنهم من يلبس القباء ، ومنهم من يلبس البازبكند . . . »[1] .

ومن حديثه عن التكرير قوله :

وليس التكرار عيا ما دام لحكمة كتقرير المعنى ؛ أو خطاب الغبي أو الساهي ، كما أن ترداد الألفاظ ليس بعي ما لم يجاوز مقدار الحاجة ويخرج إلى العبث . وهذا القرآن قد ردد قصة موسى ، وهود ، وهارون ، وشعيب ، وإبراهيم ، ولوط ، وعاد ، وثمود ، كما رَدَدَ ذكر الجنة والنار وغيرهما ؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ؛ أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب »

---

(١) البيان والتبيين : ٣ : ٣١٤ .

وفي هذه العبارات بيان للأمر الداعي إلى التكرار والترداد وللضابط المفرق بين ما يكون منه عيا وما يكون بلاغة ، كما فيه إعلان سبب الترديد القرآني للقصص والأخبار، ثم إنه يرى تحديد المواقف الباعثة على التكرار أمراً عسيراً، فيذكره ويعلل لعسره بقوله :

« وضبط الحاجة إلى الترداد والتكرار غير ممكن ، لأنه أمر يتصل بأقدار المستمعين ، ومن يحضر الحديث من العامة والخاصة »[1] .

ويترك هذا الضابط لبصر المتكلم بالمقام فيقول في صفة الكلام :

« وإنما ينبغي للمتكلم أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره[2] فما فضل على المقدار فهو الخطل » .

ويأتي شبيه هذا الذي أدلى به في كتابه (الحيوان) في كتابه (البيان والتبيين) حيث يقول :

« وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص . . . » .

« وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عيا ، إلا ما كان من النخار بن أوس العذري ، فإنه كان إذا تكلم في الحمالات ، وفي الصفح والاحتمال ، وصلاح ذات البين ، وتخويف الفريقين من التفاني والبدار ـ كان ربما ردد الكلام على طريق التهويل والتخويف وربما حمى فنخر »[3] .

وهو هنا يربط الترداد بالمثير النفسي والغاية النفسية أيضاً ، فإن التكرير في

---

(١) الحيوان ١ ٩١ .

(٢) نفسه .

(٣) البيان والتبيين : ١ : ١٠٥ .

أعلى صوره انبعاث وجداني يفيض على السامع حرارة يتحرك لها قلبه ، وإلا كان صورة باردة تفقد نبض الحياة .

ويؤكد الجاحظ على وجوب الحذر في استعمال هذا الأسلوب إلا عند مقتضاهُ وعلى القدر اللائق به ، فيذكر من قصصه ما فيه إشارة لطيفة إلى ذلك . . .

ويحكى عن ابن السماك أنه جعل « يوما يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ! قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه »[1] .

ويذكر في مقام السخرية من تكرار العي هذه الطرفة .

قال ابن بشار البرقي : كان عندنا واحد يتكلم في البلاغة ، فسمعته يقول : لو كنت ليس أنا ، وأنا ابن من أنا منه ، لكنت أنا أنا وأنا ابن من أنا منه ، فكيف وأنا أنا وابن من أنا منه »[2] .

ويذكر من التكرير الحسن في مقام المدح ما اهتز له قلب الممدوح فأحسن الصلة حتى حسد المادح من كان في مجلسه .

قال : « أخبرني إبراهيم بن السندي قال : دخل العماني الراجز على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال : إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور ، وخفان دمالقان . قال ابراهيم قال أبو نصر : فبكر عليه من الغد وتزيا بزي الأعراب فأنشده ثم دنا فقبل يده ثم قال :

يا أمير المؤمنين قد والله أنشدت مروان ، ورأيت وجهه وقبلت يده ، وأخذت جائزته . وأنشدت يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ، ورأيت وجوههما ، وقبلت أيديهما ، وأخذت جوائزهما . وأنشدت السفاح ، ورأيت

(١) البيان والتبيين : ١ : ١٠٤ .

(٢) نفسه : ٢ : ٣١٥ .

وجهه ، وقبلت يده ، وأخذت جائزته . وأنشدت المنصور ، ورأيت وجهه ، وقبلت يده ، وأخذت جائزته ، وأنشدت المهدي ، ورأيت وجهه ، وقبلت يده ، وأخذت جائزته . وأنشدت المهدي ، ورأيت وجهه ، وقبلت يده ، وأخذت جائزته . وأنشدت الهادي ، ورأيت وجهه ، وقبلت يده ، وأخذت جائزته . هذا إلى كثير من أشباه الخلفاء ، وكبار الأمراء والسادة والرؤساء . ولا والله إن رأيت فيهم أبهى منظرا ، ولا أحسن وجها ، ولا أنعم كفا ، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين ، ووالله لو ألقي في روعي أني اتحدث عنك ما قلت لك ما قلت .

قال : فأعظم له الجائزة على شعره ، وأضعف له على كلامه ؛ وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى ـ والله ـ جميع من حضر أنهم قاموا ذلك المقام »[1] .

---

(١) البيان والتبيين : ١ : ٩٥.

ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)

في كتاب « تأويل مشكل القرآن » يقول ابن قتيبة[١] :

« وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها : طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار . . . مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز إن شاء الله تعالى » .

فتراه ها هنا يعد التكرار طريقاً ومأخذاً من طرق القول ومآخذه، وهي أساليبه وخصائص تعبيره التي تقتضيها مقاماته . ثم يذكر بعد سرد ما سرد منها مكان الاهتمام لديه فيقول : «وبكل هذه المذاهب نزل القرآن » .

وقد حدثنا عن باعث تكرار أخبار القرآن وقصصه ، فذكر نزول القرآن منجما في ثلاث وعشرين سنة ، وعدم حفظ الكثيرين من الصحابة والمسلمين للقرآن كله ، وتلقى بعض الوفود بعضا منه دون بعض . . .

« وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺللإسلام ، فيقرئهم المسلمون شيئا من القرآن ، فيكون ذلك كافيا لهم :

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة ، لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم » وقصة نوح إلى قوم ، وقصة لوط إلى قوم .

فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ، ويلقيها في كل سمع ، ويثبتها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير » .

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٢٠ .

ثم بين الفارق بين القصص والأحكام الواجب علمها أجمع ، فقال : « وليست القصص كالفروض ؛ لأن كتب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة وعددها وأوقاتها ، والزكاة وسنتها ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت ، وهذا ما لا تُعرف كيفيته من الكتاب ، ولم تكن تنفذ بقصة موسى ، وعيسى ، ونوح ، وغيرهم من الأنبياء ، وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين ، فلما نشره الله عز وجل في كل قطر . . . وجمع القرآن بين الدفتين ، زال هذا المعنى ، واجتمعت الأنباء في كل عصر وعند كل قوم »[1] .

تكرار الكلام من جنس

أما التكرار بغير تثنية القصص والأخبار ، وهو الأقرب إلى موضوعنا ، فيرد ابن قتيبة ما وقع منه في القرآن ، إلى ما عرف من سنن العرب .

يقول : « وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض : كتكراره في : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ ، وفي سورة (الرحمن) بقوله : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم ومن مذاهبهم التكرار، إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار؛ إرادة التخفيف والإيجاز . . . وقد يقول القائل في كلامه : والله لا أفعله ثم والله لا أفعله ، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله . . .

قال الله عز وجل : ﴿ **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾ وقال : ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً** ﴾ وقال : ﴿ **أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولىٰ** ﴾ . . .

كل هذا يراد به التأكيد للمعنى الذي كرر به اللفظ » وضرب ابن قتيبة المثل لسنة العرب في ذلك ، والتي عليها جرى القرآن بأقوال منها :

* كم نعمة كانت لكم كم كم وكم .

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٢٣٣ وما بعدها

* هلا سألت جموع كندة يوم ولوا : أين أينا .

* وكادت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أولى فزار .

ثم عاد ليبين بالقياس على الرغبة منهم في تأكيد تلك المعاني ، رغبة القرآن تأكيد مدلول المكرر على وجه أولى ، فقال : « ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون ، ليعبدوا ما يعبد ، وأبدأوا في ذلك وأعادوا ، فأراد الله عز وجل حسم أطماعهم ، وإكذاب ظنونهم ، فأبدأ وأعاد في الجواب ، وهو معنى قوله : « ودوا لوتدهن فيدهنون »[1] .

وعلى هذه الشاكلة مضى يقرر وجه التأكيد الذي اقتضى ظاهرة التكرير ، ليقاس عليه مثله .

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٢٣٦ .

أبو سليمان الخطابي (ت ٣٨٨ هـ)

وفي هذا الاتجاه من الدفع عن القرآن يقول الخطابي :

« وأما ما عابوه من التكرار فإن تكرار الكلام على ضربين : أحدهما مذموم ، وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ؛ لأنه حينئذ يكوْن فضلاً من القول ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع .

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار في الموضوع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه ، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار » .

وهو بذلك يسوي بين الإيجاز والإطناب في الحسن واللزوم متى اقتضى أحدهما مقامه ، وفي الذم ووجوب الترك إذا جاء خارجا عن المقتضى .

ويذكر الخطابي البواعث النفسية الموجبة للتكرار فيقول :

« وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة ، التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها » .

فالاهتمام ، وخوف وقوع الغلط أو النسيان أو الاستهانة ، علل نفسية تدعو إلى التأكيد بإعادة لفظ ما يهتم به ويخاف عليه .

ويفعل ما فعل سابقوه من إسناد ظاهرة التكرار إلى السنة العربية ويضرب لها الأمثال بنص ما قالوا أو بقريب منه : « وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل : عجل عجل ، وارم ارم . كما يكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب ، مهم مهم مهم ، ونحوها من الأمور ، وكقول الشاعر :

هــلا ســألت ربــوع كنــدة يــوم ولــوا : أيــن أيـنــا ؟

وقول الآخر :

يـا لبكـر أنشــروا لي كليبـا يــا لبكــر أين أين الـفــرار

ثم يعقب بأمثلة من القرآن قام فيها التكرار على ذلك الباعث ، منها قوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبـان ﴾ من سورة (الـرحمن) و﴿ ويل يـومئذ للمكذبين ﴾ من سورة (المرسلات)[1].

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٤٧ ـ ٤٩ .

ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ)

وابن فارس في كتابه (الصاحبي) الذي بين فيه سنن العرب في كلامها يقول :

« ومن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر ، كما قال :

قـربـا مـربط النعـامـة مني   لقحت حرب وائل عن حيالي

فكرر قوله : « قربا مربط النعامة مني » في رؤوس أبيات كثيرة ؛ عناية بالأمر ، وإرادة الإبلاغ في التنبيه والتحذير ، وكذلك قول (الأشعر) :

وكـتيبـة لبستهـا بكـتيبـة   حتى يقـول نساؤهم هـذا فتى

فكرر هذه الكلمة في رؤوس أبيات على هذا المذهب ، وكتكرير من كرر :

مهلا بني عمنا مهلا موالينا

قال علماؤنا : فعلى هذه السنة جاء ما في كتاب الله جل ثناؤه ، من قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ويختار ابن فارس من وجوه التعليل لتكرار قصص القرآن وأخباره رأيا له وجاهته فيقول : « فأما تكرير الأنباء والقصص في كتاب الله جلى ثناؤه ، فقد قيلت فيه وجوه ، وأصح ما يقال فيه :

إن الله جل ثناؤه جعل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثله آية لصحة نبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن

كرر ذكر القصة في مواضع ؛ إعلاما أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء ، وبأي عبارة عبر ، فهذا أولى ما قيل في هذا الباب »[1] .

---

(١) الصاحبي : ١٧٧ .

ابن جني (ت ٣٠٢ هـ)

لابن جني في خصائصه (باب في الاحتياط)[١] يقول في مستهله :

« إعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له ، فمن ذلك التوكيد وهو على ضربين :

أحدهما تكرير الأول بلفظه ، وهو نحو قولك : قام زيد قام زيد ، وضربت زيداً ضربت ، وقد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، والله أكبر الله أكبر . وقال :

إذا التياز ذو العضلات قلنا ... إليك إليك ضاق بها ذراعاً

وقال :

وإياك إياك المراء فإنه ... إلى الشر دعاء وللشر جالب

وقال :

إن قوما منهم عمير وأشبا ... ه عمير ومنهم السفاح

لجديرون بالوفاء إذا قا ... ل أخو النجدة : السلاح السلاح

وقال :

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وقال :

أبوك أبوك أربد غير شك ... أحلك في المخازي حيث حلا

---

(١) الخصائص : ٣ : ١٠١ .

وقال :

فـأين إلى أين النجـاة ببغلتي أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس

« وهذا الباب كثيراً جدا ، وهو في الجمل والآحاد جميعا » .

أما الضرب الثاني هو تكرير الأول بمعناه ، وقد أطال في أمثلته كما صنع في هذا الضرب .

وهذه الأبيات التي ذكرها أبو الفتح ، تشير بذاتها إلى الاهتمام الباعث للتكرير على وجه التأكيد ، فقد جاءت في مقامات : الفخر ، فالوعظ ، فالمدح ، فالإغراء ، فالهجاء ، فالتيئيس ، وكلها خطابي يقوم على أساس من انفعال النفس ، ولتصوير هذا الانفعال بالتكرير أثر في السامع يزيده اهتماما بمدلول ما يسمع .

أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)

من ملاحظة أبي هلال لما بدأ به الجاحظ ، أن الحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه ، وأن الإطناب إذا لم يكن منه بد إيجاز[١] ، وقد فرق بينه وبين التطويل الذي هو من العي لخلوه عن الفائدة ، وذكر عدة مقامات يجمل بها الإطناب : كالكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة ، والفتوح الجليلة ، وتفخيم النعم الحادثة والترغيب في الطاعة ، والنهي عن المعصية .

ومن هذه المقامات الموعظة ، والخطابة في الصلح ، والمديح .

ونراه يمثل لذلك الإطناب اللازم بأمثلة التكرير فيقول :

«والموعظة كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرى أَن يَأْتِيهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ. أَو أَمِنَ أَهلُ القُرَىٰ أَن يَأتِيَهُمْ بَأسُنَا ضُحىً وَهُم يَلعَبُون. أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إِلَّا القَوْمَ الخَاسِرُونَ ﴾ (٩٧ ـ ٩٩ : الأعراف) فتكرير ما كرر من الألفاظ هنا في غاية الحسن[٢] ».

« وكلام الفصحاء إنما هو مشوب الإيجاز بالإطناب ، والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسط ، ليستدل بالقصد على العالي ، وليخرج السامع من شيء إلى شيء ، فيزداد نشاطه وتتوفر رغبته ، فيصرفوه في وجوه الكلام : إيجازه ، وإطنابه ، حتى استعملوا التكرار ليتوكد القول للسامع .

(١) الصناعتين : ١٨٥ ط صبيح .
(٢) نفسه : ١٩٠ .

وقد جاء في القرآن وفصيح الشعر منه شيء كثير » .

ثم يأتي بالكثير مما مثل به السابقون ، ولا ينسى أن يشير إلى المثير النفسي في تكرير الحارث بن عباد :

قربا مربط النعامة مني .

وتكرير مهلهل بن ربيعة :

على أن ليس عدلا من كليب .

فيقول : « هذا لما كانت الحاجة إلى تكريرها ماسة ، والضرورة إليه داعية ، لعظم الخطب وشدة موقع الفجيعة . فهذا يدلك على أن الإطناب في موضعه عندهم مستحسن كما أن الايجاز في مكانه مستحب » على أن أبا هلال مع ذلك ينهى عن تكرار الكلمة الواحدة في كلام قصير ، ويمثل له بما كتب سعيد بن حميد : « ومثل خادمك بين يديه ما يملك . فلم يجد شيئاً يفي بحقك ، ورأى أن تقريظك بما يبلغه اللسان ـ وإن كان مقصراً عن حقك ـ أبلغ في أداء ما يجب لك » فكرر ذكر الحق مرتين في مقدار يسير » .

قال صاحب صبح الأعشى : « على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر في (صناعة الكتاب) أن ذلك ليس بمعيب عند كثير من أهل العربية ، وهو الحق ، فقد وقع مثل ذلك من التكرير في القرآن الذي هو أفصح كلام وآنق نظام ، في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (٧ ـ ٩ : الرحمن) فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام ، وأمثاله في القرآن كثير »[١] .

ومع ما نهى عنه من ذلك الاستعمال أبو هلال ، أباح التكرار المعنوي بديلا منه ، وقد استقبحه غيره كابن الأثير ، الذي تعقب أبا إسحق الصابي يعيبه بمثل هذا الترادف في كتابه (المثل السائر) والذي يقرأ أمثلة العسكري التي يؤيد بها

---

(١) صبح الأعشى : ٢ : ٣٢٥ .

ظاهرة التكرير ، يرى الكثير منها تكراراً للفظة واحدة ، ومنها ما ترددت فيه الكلمة خمس مرات كقول الشاعر :

كم نعمة كانت لكم   كم كم وكم كانت وكم

والمكرر هذا العدد كله مفرد ، وهو (كم) الخبرية ، كما أن المكرر في البيت التالي مفرد ، وهو (أين) الاستفهامية :

هلا سألت جموع كنـ   ـدة يوم ولوا أين أينا

ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ)

يعد ابن سنان تكرير الحروف والكلام في ضروب القبح ، فيقول في وسط كلام له : « وإذا ثبت ما ذكرناه فقد بان أن تكرار الحروف والكلام يذهب بشطر من الفصاحة ، وقد كان بعض العلماء بالشعر يعيب في قول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه الورى   معي ومتى ما لمته لمته وحدي

تكرر حروف الحلق ، على سلامة المعنى واختيار اللفظ .

فأما قول أبي الطيب :

العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن فمن أقبح ما يكون من التكرار وأشنعه ، وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج ، فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع »[1] .

غير أنه يعتذر للتكرار الذي لا يستغني عنه بناء الكلام لعدم تمام المعنى إلا به ، كقول أبي الطيب :

وأنت أبو الهيجا بن حمدان يابْنَه   تشابه مولود كريم ووالد

وحمدان حمدون ، وحمدون حارث   وحارث لقمان ، ولقمان راشد

قال : « فليس هذا التكرار عندي قبيحا ، لأن المعنى المقصود لا يتم إلا به ، وقد اتفق له أن ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف ، لأن أبا الهيجاء هو عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن

(١) سر الفصاحة : ٩٤ .

لقمان بن راشد ، ولو ورد هذا الكلام نثرا لم يزد على هذه الصفة ، فلما عرض في هذا التكرار معنى لا يتم إلا به سهل الأمر فيه ، وكان البيت مرضيا غير مكروه ، وعلى ذلك يجب أن يحمل كل تكرار يجري هذا المجرى »[1] .

وبهذا الضابط لقبول التكرار أخرج من المعيب ، قول القائل :

ولــولا دمــوعي كتمت الهــوى   ولولا الهوى لم يكن لي دموع

وقد ساق في المعيب أمثلة لا يرى غيره فيها رأيه كقول أبي الطيب وقد أحسن الكنايات :

لك الخير ،غيري رام منغيرك الغنى   وغيري بغيــرِ الــلاذقيــة لاحق

وقول امرىء القيس :

ألا إنني بــال على جمــل بــال   يقــود بنــا بــال ويـتبعنـا بــال

قال : وهو لعمري قبيح »[2] .

كما يرى ابن سنان قبح تكرير الحروف الرابطة ، وإن اختلفت ألفاظها ، وذلك لأنها جنس واحد ومشتركة في المعنى ، وإن تميزت فائدة بعضها من بعض . يؤيد رأيه هذا برأي قدامة في إنكار تكرار الحروف الرابطة ، إلا أنه يذكر سهولة الخطب ، عندما يفصل بين الحرفين بالفاصل[3] .

ثم يذكر ابن سنان شيوع ظاهرة التكرار في شعر عصره ونثره ، على جهة ولع الشعراء والكتاب به ، والاتكاء عليه خصيصة يعمدون إليها من خصائص التعبير البياني « وهذا الذي أنكرناه من تكرار الألفاظ فن قد أولع به الشعراء والكتاب من أهل زماننا هذا حتى لا يكاد الواحد منهم يغفل عن كلمة واحدة فلا يعيدها في نظمه أو نثره . ومتى اعتبرت كلامهم وجدته على هذه الصفة ، وما

---

(١) سر الفصاحة : ٩٥.
(٢) نفسه : ٩٦.
(٣) نفسه : ٩٧.

أعرف شيئا يقدح في الفصاحة ويغض من طلاوتها أظهر من التكرار لمن يؤثر تجنبه وصيانة نسجه عنه »[1] .

وربما احس ابن سنان بالإغراق في هذا التقبيح ، فعاديستثني في قوله : « وقلما يخلو واحد من الشعراء المجيدين أو الكتاب من استعمال ألفاظ يديرها في شعره ، حتى لا يخل في بعض قصائده بها ، فربما كانت تلك الألفاظ مختارة يسهل الأمر في إعادتها وتكريرها إذا لم تقع إلا موقعها ، وربما كانت على خلاف ذلك » .

ويرى ابن سنان أن دوران ألفاظ معينة في أدب الأديب بعامة ـ وإن لم يكن محموداً عنده ـ أصلح من التكرار في القصيدة الواحدة أو البيت الواحد[2] .

ولا ننكر على ابن سنان كراهة التكرير الخالي عن الفائدة ، والذي لا يدعو إليه المقام ، ولكننا نرى اختلاف الأذواق في تقدير تلك الفائدة وتحديد هذا المقام ، ولهذا نرى المردود من الأمثلة عند بعضهم مقبولا ومحموداً عند الآخرين ، مُعَلَّلاً لحسنه والدفاع عنه ، والعرض لأفكار ابن الأثير الآتي نموذج لاختلاف التقدير .

(١) سر الفصاحة : ٩٨.

(٢) نفسه : ٩٨.

ابن رشيق (٤٥٦ هـ)

قسم ابن رشيق التكرار ثلاثة أقسام[١] : تكرار اللفظ دون المعنى ، وهو الأكثر ، وتكرار المعنى دون اللفظ ، وهو الأقل ، وتكرار اللفظ والمعنى ، وقد حكم عليه بأنه « الخذلان بعينه » .

وابن رشيق يذكر للتكرير مواضع يحسن فيها وأخرى يقبح فيها ، فيذكر مع الأمثلة من مواضع الحسن :

التشوق والاستعذاب ، والتنويه بالمكرر في المدح تفخيما له ، والتقرير ، والتوبيخ ، وتعظيم المحكى عنه ، والوعيد والتهديد في عتاب موجع ،والرثاء،وهو أوْلى ما تكرر فيه الكلام . . . لمكان الفجيعة « وشدة القرحة التي يجدها المتفجع ، كما يَحْسُنُ في الاستغاثة وهي في باب المديح ، ويقع في الهجاء على سبيل الشهرة ، وشدة التوضيع بالمهجو ، كما يقع على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص .

وكلامه واختياره للتطبيق سديد ، غير أن القسم الذي عده « الخذلان بعينه » وهو ما تكرر فيه اللفظ والمعنى ، منه ما هو جيد مستطاب ، على الوجه الذي عرفناه في كل ما سبق ، وعلى ما مثل به ابن رشيق نفْسُه في كثير من أمثلته ، وآية ذلك قوله : « ومن مليح هذا الباب ما أنشدنيه شيخنا أبو عبد الله محمد بن جعفر لابن المعتز ، وهو قوله :

لساني لسري كتومٌ كتومْ ودمعي بحبي نمومٌ نمومْ

(١) العمده : ٢ : ٧٢ .

ولي مـالِـكٌ شغَّـني حبُّـه   بـديـعُ الجمـال وسيمٌ وسـيم
لـه مـقـلتـا شـادن أحـورٍ   ولـفظٌ سحـور رخيـمٌ رخيـم
فـدمعي عليه سَجـومٌ سجوم   وجسمي عليـه سقيم سقيم

وقد ذكر أبيات ابن الزيات يعيب تكرار لفظ « التصابي » فيها قائلا : « فملأ الدنيا بالتصابي ، على التصابي لعنة الله من أجله ، فقد برد به الشعر . . . وأين هذا من تكريره على جهة التفخيم في قوله للحسن بن سهل من قصيدة :

إلى الأميـر الحسن اسْتجدتُها   أي مَـزارٍ ومـنـاخ ومَـحَـلْ
أي مـزارٍ ومـنـاخ ومـحـل   لخـائفٍ ومستريش ذي أمـل

وهذا كقول امرئ القيس .

تقطع أسبـاب اللبـانة والهـوى   عشيـة جاوزنـا حَمَـاةَ وشيـزرا
عشيـة جـاوزنـا حـمـاة وشيـزرا   أخـو الجهـد لا يلوى على مَنْ تعذرا

فهذه الأمثلة مما اتى التكرير فيه للفظ والمعنى جميعاً ، وقد حكم بملاحة الأول ، وجعل الثاني والثالث على الطرف النقيض لأبيات ابن الزيات التي لعن التصابي فيها لكثرة تكراره .

أتعـزف أم تقيم على التصـابي   فقـد كثـرت منـاقلة العتـاب
إذا ذكـر السلو عن التـصـابي   نفـرت من اسمه نفـر الصعاب
وكيف يـلام مثلك في التصابي   وأنت فتى المجـانـة والشبـاب
سأعزف إن عزفت عن التصابي   إذا مـا لاح شيب بـالغـراب
ألم تـرني عَدَلْتُ عن التصـابي   فـأغـرتني المـلامـة بـالتصـابي

بل إنه عد المعجز في باب التقرير والتوبيخ قوله تعالى : ﴿ . . . **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ وهو من المكرر لفظه ومعناه . ترى ماذا كان يريد بقوله : « فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك هو الخذلان بعينه » ؟

ابن الأثير (٦٣٧ هـ)

عرفنا ـ قبلُ ـ رأيَ ابن الأثير في التكرير الحرفي ، وأما تكرير الألفاظ والمعاني[١] فهو عنده من مقاتل علم البيان لدقة مأخذه ، وحَده : هو دلالة اللفظ على المعنى مردداً » ولقد سار ابن الأثير على منهج قسم فيه التكرير إلى ما يوجد في اللفظ والمعنى ، وما يوجد في المعنى دون اللفظ ، ثم قسم كلا منهما إلى مفيد وغير مفيد ، فصارت الأقسام لديه أربعة :

أما « المفيد من التكرير (فهو) يأتي في الكلام تأكيداً له وتشييداً من أمره ، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كرَّرْتَ فيه كلامك ، إما مبالغة في مدحه ، أو في ذمه ، أو غير ذلك » .

والمفيد من تكرير اللفظ والمعنى فرعان :

أولهما ـ ما يدل على معنى واحد المقصودُ به غرضان مختلفان ، وقد مثل له بأمثلة منها قوله تعالى : **﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إحدَى الطَّائِفَتَينِ أنَّهَا لَكُم وَتَوَدُّونَ أنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ تَكُونُ لَكُم وَيُرِيدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقطَعُ دَابِرَ الكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمونَ ﴾** (٧ ـ ٨ : الأنفال) .

هذا تكرير في اللفظ والمعنى ، وهو قوله : **﴿يحق الحق﴾** و**﴿ ليحق الحق﴾** إنما جيء به ههنا لاختلاف المراد ، وذاك أن الأول تمييزٌ بين الإرادتين ، والثاني بيان لغرضه فيما فعَلَ من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه ما نصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض .

---

(١) ينظر الباب في الجامع الكبير : ٢٠٤ ـ والمثل السائر : ١ : ٢٣٢ .

وقد ختم حديثه في هذا الفرْع بقوله : « وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض ، وبه تُعْرَفُ مواقع التكرير والفرق بينه وبين غيره ـ فافهمه ـ إن شاء الله.» .

وثانيهما : «إذاكان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد : كقوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (١٩ ـ ٢٠ المدثر) .

في التكرير دلالة التعجب من تقديره وإصابته الغرض ، وهذا كما يقال : قتله الله ما أشجعه ، أو ما أشعره ، وعليه ورد قول الشاعر :

ألا يا أسلمى ثم اسلمى ثُمَّتَ اسلمى

« وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة . وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته » ومما يشيد بتكريره من هذا الضرب قول الحماسي :

إلى معدن العز المؤثل والندى   هناك هناك الفضل والخلق والجزل

« فقوله : « هناك هناك » من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز ؛ لأنه في معرض مدح ، فهو يقرر في نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الأوصاف المذكورة ، مشيراً إليها كأنه قال : أدلكم على معدن كذا وكذا ومقره ومفاده » وأما غير المفيد من تكرير اللفظ والمعنى ، فلا يأتي في الكلام إلا عبثاً وخطلا من غير حاجة إليه ، وقد مثل له بأمثلة منها قول مروان الأصفر :

سقى الله نجدا ، والسلام على نجد   ويا حبذا نجد على النأي والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها   لعلي أرى نجدا وهيهات من نجد

قال : «وهذا من العيِّ الضعيف، فإنه كرر ذكر نجد في البيت الأول وفي البيت الثاني ثلاثا ، ومراده في الأول الثناء على نجد ، وفي الثاني أنه تلفت إليها ناظراً من بغداد وذلك مرمى بعيد ، وهذا المعنى لا يحتاج الى مثل هذا التكرير .

أما البيت الأول فيحمل على الجائز من التكرير ، لأنه مقام تشوق وتحرق وموجدة بفراق نجد ، ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير ، على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معاً من غير أن يأتي بهذا التكرير المتتابع ست مرات » .

ونحن إذا وافقنا ابن الأثير على كراهة التكرير في باقي أمثلته للخلو عن الفائدة ، فلن نوافقه على فصل البيت الثاني عن مقام البيت الأول في هذا المثال ، لأنه مناط البيان والتقرير ، وهو منه في مكان التعليل ، وإذا كان البيت الأول تكرر فيه لفظ « نجد » دعاء ومدحا ، فما أجدر أن يتكرر لفظها تحسرا على فراقها ، وتحزنا لبعدها ، وتمكينا لشخوصها من وراء بغداد في عين قلبه ، ثم رجاء لرؤيتها في الواقع كما يراها في الخيال ، ثم أسفا واستبعادا للرجاء باستبداد الظروف وانقطاع الأسباب .

لقد نالت نجد من الشاعر ما نالت من غيره ، حتى ضرب بتكرار حديثها المثل في قول العاملي واصفاً مدحته لصاحب الزمان[1] .

إذا رددت زادت قبولا كأنها   أحاديث نجد لا تمل بتكرار

ولا أعذب لقلب الوامق ولا أشفى من حروف اسم محبوبه ، يرددها حتى يقنع الوجد وتسكن الثائرة .

لذلك لا أرى قبح التكرار في قول الشاعر :

ألا طرقتنا بعدما هجعوا هند   وقد سرن خمسا واتلاب بنا نجد
ألا حبذا هند، وأرض بها هند   وهن أتى من دونها النأي والصد

ولا أرى قول أبي العلاء إلا قاصرا ـ لا مجاوزا حد القبول ـ كما يرى أستاذنا صاحب (البلاغة الغنية) حين اعتذر أبو العلاء للشاعر فقال : « من حبه لهذه

---

(١) الكشكول : ٤٠٤ .

المرأة لم ير تكرير اسمها عيبا ؛ ولأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة »[1] فإن هذا التكرار في الرضا والغضب ، ما يزال مسموعا من العامة كالخاصة ، لأنه نتاج الفطرة عند انفعال النفس بالمثير .

كما رد ابن الأثير على أبي نواس قوله :

أقمنا بها يوما ، ويوما ، وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس

قال : « ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام[2] ، ويا عجبا له يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في تلك الأبيات العجيبة الحسن . . . » ولست أرى رأيه هذا ، ولا رأي النقاد الذين شاركهم ، فما كان أبو نواس خامل الذهن حين جعل هذا البيت في قصيدته « العجيبة الحسن » كما يصفها ابن الأثير ، ولو أنه جمع الأيام كما فسروا مراده تفسيراً ناقصاً لما تحقق ما شاءه بتفريقها ، من الدلالة النفسية على إمتاع النفس بطول المقام ، في دار الندامى التي أقام وصحبه فيها هذه المدة ، فلو قال : « أقمنا بها يوما سعيداً» لكفى ، ولما طمع السامع في أكثر منه ، ولكنه ما زال يزيده يوما بعد يوم ، ليملأ خياله باتساع الظرف ، الذي حوى ما حوى من هذه المتعة التي قنصها مع الأحباب . بل أراه لو قال : « أقمنا بها شهرا » لكانت الدلالة الشعورية بالتعبير أدنى من الدلالة بهذه الأيام المفرقة ، ولك أن تقيس هذا بوجدانك ، وأنت تقرأ البيت ، واقفا عند كل يوم ، وقفة معبرة .

وإذا اختلف مع ابن الأثير أو غيره تقديري لبعض ما عابوه، فقد اختلف ابن الأثير مع غيره إلى حد إسقاطه، فدافع عن قول المتنبي :

العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن

الذي اشتد قبح تكراره عند ابن سنان .

---

(١) البلاغة الغنية : ١٩٧ ، وسر الفصاحة : ٩٥ .

(٢) يرى ابن هشام في المغني أن هذه الأيام سبعة ، ويوم الترحل الثامن ، لأنه ذكر أولا ثلاثة أيام ، وعطف عليها يوماً يوم الترحل خامس له ، فقبله اربعة فوق الثلاثة السابقة .

قال ابن الأثير : « وقد زعم قوم من مدعي هذه الصناعة ، أن أبا الطيب المتنبي أتى في هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه . . .

وليس في هذا البيت من تكرير ، فإنه كقولك الموصوف بكذا وكذا : أي أنه عريق النسب في هذا الوصف » .

ثم نظر له بالحديث الشريف في وصف يوسف عليه السلام : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم » كما ناقش الواحدي وخطأه في قياسه قول المتنبي :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيش كلهن قلاقل

على قول الثعالبي :

وإذا البلابل أطربت بهديلها فاقف البلابل باحتساء بلابل

وصوب استقباح الصاحب بن عباد تكرير المتنبي هذا ، والحق معه فبيت أبي الطيب قبيح التكرار ، إلا أن يكون أراد به السخرية والتشنيع على تلك القلاقل .

ابن ابي الأصبع (٦٥٤ هـ)

من العجب العاجب تعريف ابن أبي الإصبع للتكرار إذ تراه يقول :

« وهو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف ، أو المدح أو الذم ، أو التهويل ، أو الوعيد »[١] .

ومناط العجب حصره التكرار في اللفظة الواحدة ، فماذا عساه أن يسمى ما زاد عنها ؟

وأمثلة ابن أبي الإصبع تطابق كلها تعريفه إلا إذا نظرنا للنداء في الثاني فإنه جملة ؛ وقد لا يكون داخل قصده وهي على التوالي :

للذم قول عبيد بن الأبرص :

هلا سألت جموع كنـ دة يوم ولوا أين أينا ؟

وفي التهديد والوعيد قول مهلهل :

يا لبكر أنشروا لي كليبا يا لبكر أين الفرار

وللمدح قول كثير في عمر بن عبد العزيز :

فأربح بها من صفقة لمبايع وأعْظِمْ بها أعظم بها ثم أعظِم

وفي النسيب وقد استلطفه جدا لبعض المحدثين :

يقلن وقد قيل : إني هجعت عسى أن يلم بروحي الخيال
حقيق حقيق وجدت السلو فقلت لهن : محال محال

---

(١) تحرير التحبر : ٢ : ٣٧٥ .

قال وقد يجيء التكرار بالأسماء المضمرات أو المبهمات ، كما يجيء بالمظهرات ، كقول الهزلي .

رقوني وقالوا : يا خويلد لا ترع   فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

ثم مثل من القرآن للمدح بقوله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١٠ ، ١١ : الواقعة)

والتهويل والوعيد بقوله :

﴿ الحَاقَّةُ ما الحَاقَّةُ ﴾ (١ : ٢ : الحاقة)

وللاستبعاد بقوله :

﴿ هَيهَاتَ هَيهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٣٦ : المؤمنون)

ومن السنة بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن أم زرع :

« أبو زرع وما أبو زرع » في معرض المدح .

هذا وقد حاول ابن معصوم أن يلم شعث الأسباب الداعية للتكرار فذكر منها مع التمثيل الوافر :

التوكيد ، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، والإيقاظ من سنة الغفلة ليكمل تلقي الكلام بالقبول ، وتذكر ما قد بعد بسبب طول الكلام ، وزيادة المدح ، والتعظيم ، والتلذذ بذكر المكرر ، والتنويه بشأن المذكور . ثم قال : ولا ريب في قبح التكرار إذا خلا من نكتة ، ومثل لذلك بما كتبه عون إلى محمد ابن عبد الملك .

قد بعثنا بتحفة البستان   بكر ما قد جنى من الريحان
ياسميناً ، ونرجساً قد بعثنا   وبعثنا شقائق النعمان

ولقبح هذا التكرار الخالي عن الفائدة ، أجابه محمد بن عبد الملك بقوله :

عـون فض الإلـه فـاك وأدمـا ه وأقـصـاك يـا عـي الـلسـان
حشـو بيتيـك قـد وقـد فـإلى كم قـدك الله بـالحسـام اليمـانـي

قال : وبعث إلى الوليد بن عبد الملك عمه عبد الله بن مروان قطيفة وكتب إليه : بعثت إليك بقطيفة خز حمراء حمراء حمراء . فكتب إليه الوليد : وصلت القطيفة يا عم وأنت أحمق أحمق أحمق[1] .

---

(١) أنوار الربيع : ٥ : ٣٤٥ وما بعدها .

الأغراض الجزئية للتكرير

يتخلل الأغراض العامة للكلام ، كالغزل ، والفخر ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والوعظ والتذكير . . . أغراضٌ جزئية تعد كالعناصر اللامعة لهذه الأغراض الكبرى ، متى اندرجت في سياق التعبير عنها ، وهي مراكز القوى العاطفية ، التي تنطلق منها الإثارة ، لقسر السامع على المشاركة الوجدانية ، التي هي الغاية من القول في كثير من فنونه ، ولذلك نراها موقع التكرار ، فلنسم التكرار باسم هذه الجزئيات ، ممثلين لها بما يزيدها تقرراً ، ثم ننتقل إلى ما فوقها من الفنون العامة ، التي يجمع كبار البلاغيين والنقاد على جدارتها بأن يكون التكرار مقوما في كيانها .

تكرار المبالغة :

عند انفعالنا بالمواقف تحتجب بالخيال الحقائقُ الواقعةُ ، فإذا بها في مقام التفخيم أكبر مما هي ، وفي مقام التهوين أصغر مما هي ، فإذا انطلقنا نعبر عنها تدخل التكرار عنصراً من عناصر التخييل ، التي توهم أن الحقيقة هي ما نعبر به لا ما يراه من يرى ، وهذا النوع ـ كما أسلفنا عنه وعن أمثاله ـ مشترك بين المقامات الخطابية القائمة على الانفعالات ، فقد يسوق إليه الزهو كقول أبي النجم :

أنا أبو النجم وشعري شعري

وقول الآخر :

وإني من القـوم الذين هم هم   إذا مـات منهم سيد قـام صاحبه

أو المدح كقول النابغة في آباء ممدوحه :

خمسة آباء هم ما هم　　أكرم من يشرب صوب الغمام

وقول الآخر :

هذا رجائي وهذي مصر معرضة　　وأنت أنت قد ناديت من كثب

قال أبو هلال : « فقوله : أنت أنت مُشَارٌ به إلى نعوت من المدح كثيرة »[1] . وكقول امرىء القيس للمسيب :

ولأشكرن غريب نعمته　　حتى أموت وفضْله الفضلُ
أنت الشجاع إذا هُمُ نزلوا　　عند المضيق وفِعْلُكَ الفعلُ

كما قد يأتي في التنصل كقول المتنبي :

وإن كان ذنبي كلَّ ذنْبٍ فإنه　　محا الذنْبَ كلَّ الذنبِ من جاء تائبا

أو التفكه كقول ابن الرومي :

لو تلففت في كساء الكسائي　　وتفريت فروة الفراءِ
وتخللت بالخليل وأضحى　　سيبويه لديك رهن سباءِ
وتلونت من سواد أبي الأسـ　　ـود شخصاً يكنى أبا السوداءِ
لأبى الله أن يعدَّك أهلُ العـ　　ـلم إلا من جملة الجهلاءِ

أو في إظهار الحال كقول علي بن الجهم :

أبلغ أخانا تولى الله صحبته　　أني وإن كنت لا ألقاه ألقاه
الله يعلم أني لست أذكره　　وكيف يذكره من ليس ينساه

وكقول ابن المعتز :

أسرفت في الكتمان　　وذاك مني دهائي
كتمت حبك حتى　　كتمته كتماني
فلم يكن لي بد　　من ذكره بلساني

---

(١) الصناعتين : ٣٥٩ .

أو كقول ابن الجوزي :

أَرَقِي قد رَقَّ لي من أرقي ورثي لي قلقي من قلقي
وبكائي من بكائي قد بكى وتشكَّتْ حُرَقِي من حرقي

هذه أمثلة من تكرار المبالغة ، تتخلل أغراضا مختلفة مَن أغراض المتكلمين ، ولسنا بصدد بيان المقبول منها والجائر ، بقدر ما نحن أمام ظاهرة شائعة ذات لون من ألوان البواعث الشعورية .

تكرار القسم :

حينما تقع النفس في وجدان شعورها بشيء من استهانة المخاطب بأمر تهتم به ، تلجأ إلى التأكيد تقرر به الأمر وتدفع عنه الريب ، والقسم من وسائل التأكيد في ذاته ، ولكنه قد يتكرر من القسم بقدر ما يرى أنه استطاع الإقناع أو أربى ، وتكرار القسم كتكرار المبالغة ، وكل ما سيلي في تخلله الأغراض العامة عند المعبرين . ونلتقي في هذا اللون بأبي صخر الهذلي يقول :

أما والذي أبكى وأضحك ، والذي أمات وأحيا ، والذي امره الأمر
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت لا عرف لدي ولا نكر

إنها المفارقة بين الحزم كل الحزم والخور كل الخور ، يتغلب فيها الثاني على الأول فيدمغه ، لأنه فعل سلطان قاهر غلاب !

تكرار القسم زيادة في تقرير عزمه على الحزم ، ثم هو زيادة في تقرير ضعفه أمام هذا السلطان الساحر الذي ينسيه صولته . . إنه لون من ألوان التبرير للهزيمة في الهوى !

ومع كثير نلتقي بهذا التكرار :

فوالله ثم الله ما حل قبلها ولا بعدها مخلوقة حيث حلت

ويعتذر أبو نواس تائبا فيقول للأمين :

وحـيــاة رأســك لا أعــو د لــمـثـلـهــا وحـيــاة رأســك

أما أبو العتاهية فيكرر القسم في الوعظ ، والتذكير بخطورة الوجود في هذه الدنيا :

وَأَمَــا وربِّ المسجــدين كليهمــا ... وأما ورب مني ورب الصـافنـاتِ
وَأمَا وربِّ البيت ذي الأستار والمـ ... سعى وزمزم والهدايا المشعراتِ!
إن الـذي خلقت لـه الـدنيا ومـا ... فيهــا لنــازلــة تجـل عن الصفــات

وينفي الحطيئة الظلم عن (قريع) ويمدحهم بحميد المكارم فيكرر القسم ، ولسنا بصدد حكم شرعي على ما يجوز به القسم أو يجب ، ولكننا بصدد قول الشاعر تطبيقا على هذا النوع :

فلا وأبيك مـا ظلمت قريـع ... بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيـك ما ظلمت قـريع ... ولا عنفـوا بذاك ولا أســاءوا
بعثـرة جـارهم أن ينعشـوهـا ... فيعثــر بعـدهـا نعم وشــاء

أما العماني الراجز ، ففي التحذير من الفتنة المبيرة يقسم فيكرر القسم إذ يقول :

والله والله الذي يستغفر !

لأن يموت معشر ومعشر !

خير لنا من فتنة تَسَعَّرُ !

يهلك فيها دينهم ويوزروا !

وفي إظهار الضعف والضيق بالحال ، نرى عز الدين المرتضى يقول :

وقالوا : سقيم ! إي ورب محمـد ... ورب عَـلِيٍّ إنــني لــســقــيــم
سقيم جفــاه الأقــربــون فـقلبــه ... بــه من نـدوب الحـادثـات كلوم

تكرير التحذير :

يصدر التحذير ملونا بلون الباعث الداعي إليه فقد يكون مصدره الرحمة والإشفاق ، أو التعالي والزهو ، أو غيرهما من الحوافز النفسية الموجبة للتحذير ، فإذا كان الباعث قويا كان صداه تكرير اللفظ المنبىء بالخطر ، وكثيراً ما يقترن التحذير بالتعليل ليبلغ أثره أعماق وجدان السامع عن طريق الإقناع ، سواء كان التعليل عقلياً أو خيالياً . ومن تكرير التحذير قول الشاعر :

إياك إياك أن ترجو امْرَاً حسنت أحـوالُه بعـد ضر كـان قـاسـاه
فنفسه تيك ما ازدادت وما نقصت وذلـك الفقـر فقـر مـا تنـاسـاه

وذلك التحذير باعثه الإشفاق في مقام النصح ، ولكنه يستبطن ألما في وجدان الشاعر من تجربة مسيئة ، نحس وقعها فيما عرض به من الوصف وما علل به للحذر .

ويكرر الأعشى نداء يزيد بن مسهر الشيباني ، محذراً إياه فتكه وشره :

أبـا ثـابت لا تَعْلَقَنْـكَ رمـاحُنـا أبا ثابت أقصر وعرْضُـك سالم !
وذرنـا وقـومـاً إن هم عمـدوا لنـا أبـا ثـابت واقعـد فـإنـك طـاعم

وأبو الشمقمق يهجو ، فيتخذ من التحذير بالتكرير وسيلة لإفراغ شحنة الشر على رأس مهجوه ، صارفا الخطاب عنه إلى من يعنيه سلامتهم منه ، ويعلل للتحذير بهذا الخيال المسف ليبلغ أقصى الغرض من سخره :

الـطريـق الـطريـق ، جـاءكـم الأحـمق رأس الأنتان والقـذره
وابن عم الحمار في صورة الفيل وخـال الـجـامـوس والـبـقـرة

والآخر حكيم مرت به التجارب في معاملة المجتمع ، الصاخب بالتقلب الخلقي وندرة الثبات على وفاء الأصفياء ، وقد رأى العدو المبدل من الصديق أنكى خطرا من العدو الذي بدأ عدوا فما عرف المكامن التي فيها يرشق السهام فيقتل . إنه يحذر ، ولكنه يكرر التحذير على طريق المفارقة ، مقنعاً بالتعليل الذي يقره العقل والواقع التجريبي حين يقول :

إحـــذر عـــدوك مـــرة   واحـذر صـديقـك ألف مـرة
فـلربمـا انـقلب الـصـديق   فـكـان أعـلم بـالـمضـره

أما ابو تمام فيستخدم تكرير التحذير في المدح كأنما هو ناصح عدو ممدوحه :

الحق أبلج والسيـوف عـوار   فحذار من أسد العرين حذار

وأبو الفرج الساوي يشخص الدنيا متكلمة محذرة ، معللة تحذيرها بما نراه منها على تعاقب العصور :

هي الدنيا تقـول بملء فيهـا   حذار حذار من بطشي وفتكي
فـلا يغـرركم مني ابتسـام   فقولي مضحك والفعل مبكي

تكرير الإغراء :

ومما يتصل بالتحذير الإغراء ، فالتحذير أثر الشعور بجانب الضر من الشيء للابتعاد عنه ، والإغراء أثر الشعور بجانب النفع في الشيء للحصول عليه والاستمتاع به ، وقد يجتمعان في مفهوم السياق ، فيكون الإغراء وسيلة للخلاص من شر يحذر منه ، كقول ابن المعتز والمقام للفخر :

لا صاحَبَتْني يَدٌ لم تُغْنِ ألْفَ يـدٍ   ولم تَـرُدَّ القنـا حمـر الخيـاشيم
بـادر بجـودك بـادر قبـل عـائقـه   فـإن وعد الفتى عنـدي من اللوم

وقد يأتي في مقام النصح للنفس أو سواها : كقول قطري بن الفجاءة :

فصبرا في مجال الموت صبرا   فمـا نيـل الخلود بمستـطاع

وكقول عمر (رضي الله عنه) لبعض قضاته : « الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك » .

تكرار التعليل :

في مقام الإقناع بالحكم تذكر العلة ، فإن ذكر الحكم للشيء أو عليه معللا

أدعى للنفس إلى قبول الكلام والرضا به ، وكثيرا ما نرى في ذلك اللون من التعبير ظاهرة التكرير ، وأكثر ما يكون التكرير فيها بأسلوب التذييل ، الذي يعده علماء المعاني من شعب الإطناب ، وتكرير التعليل مختلف الموقع ـ ككل ما سبق ـ بالنسبة للغرض العام من القول ، وإن يكن ظاهره جانحا إلى النصح والإرشاد .

يقول أحيحة بن الجلاح محذرا بنيه من أفعال السوء :

يا بنيَّ التخومَ لا تظلموها … إن ظلم التخوم ذو عقال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه … إن مال اليتيم يرعاه وال

ويقول أبو الأسود :

لا يكن برقك برقاً خلباً … إن خير البرق ما الغيث معه

وأبو منصور النمري :

أقلل عتاب من استربت بوده … ليست تنال مودة بعتاب

أما الخريمي وقد فقد نظره فيقول :

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً … فإن البعض من بعض قريب

ويعلل دعبل الخزاعي للتعجب من فعل الدهر ، الذي لا تتناهى عجائبه فيكرر الدهر والعجب في بيته الأول ، ويعيد ترديده الدهر في مكان العلة إذ يقول :

ما أعجب الدهر في تصرفه … والدهر .لا تنقضي عجائبه
فكم رأينا في الدهر من أسد … بالت على رأسه ثعالبه

إن المقام مقام الشكوى والتبرم بالحال . ولكن المتنبي يستخدم تكرير التعليل في مقام القدح حين يقول :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه … إن العبيد لأنجاس مناكيد

ولكنه لا يتركه في مقام الترقيق وطلب العطف في بائيته :

ترفق أيها المولى عليهم … فإن الرفق بالجاني عتاب

كما يكون التعليل بلا تذييل كما في بيت سيف الدولة :

رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق

تكرير البيان والتصويب

حينما تمتلىء النفس بشيء إعجاباً به أو بغضاً له، تفرده بما لغيره من حكم أو صفة ، على سبيل المبالغة التي تنفي عن سواه ما ثبت له ، وعندما يخاف على الموصوف اللبس بسبب الاشتراك فيه ، والمتكلم مدفوع بعاطفته للحكم له أو عليه ، نراه يلجأ إلى تكرار البيان ، حتى لا يدع لغير موصوفه نصيبا من صفته .

إن تكرير البيان ينزل الموجود منزلة المعدوم أحياناً لعرائِه عن النفع وقد يعكس ، وينتزع اعتقاداً شائعاً جرى عليه العرف ، ليصحح المفهوم بغرس غيره في القلب ، وهو يدور مع أغراض القول كما يدور غيره مما تكرر التنبيه عليه .

فمن تصحيح المفهوم بتكرير البيان قول عمرو بن معد يكرب :

ليس الجمال بمؤزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال مآثر ومناقب أورثن مجدا

فالموصوف هو الجمال المكرر لبيان ما يقاس به القياس الصحيح عند الشاعر ، فنفى أن يكون الجمال على ما اعتقد الجهال من تعلقه بالمظهر ، وأثبت ما يعتقده هو الحقيقة فيه ، ليحمل من شاء طريق الهدى إلى تبديل نظرته .

وأبو الشمقمق يقف من الحج موقف التصحيح فيقول .

إذا حججت بمال أصله دنس فما حججت ولكن حجت العير
ما يقبل الله إلا كل طيبة ما كل من حج بيت الله مأجور

إنه يكرر الحج فيثبته أولا ثم ينفيه ، تنزيلا له منزلة المعدوم ، لِعدم بنائه على شرط قبوله ، ويزيد بإثباته للعير الجاهلة بما تصنع ، غير المأمورة بما شرع ، لذعا لقلب الجاهل مفهوم الحج الصحيح ، ثم يزيد في البيان بيته الثاني لتأكيد ما قدم .

وهكذا يكرر ابن المعتز بين النفي والإثبات ، ليصحح بيان مفهوم الكريم الذي ينحرف كثيراً عن فهمه .

ليس الكريم الذي يعطي عطيته   على الثناء وإن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذي يعطي عطيته   لغير شيء سوى استحسانه الحسنا

وهذا الأسلوب من تأكيد البيان ، يجيء هكذا على صورة القصر كثيرا ، ولكنه قد يأتي على الإتباع كثيراً كذلك ، مثل قول أبي تمام :

إن الأسود أسودَ الغيل همتها   يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

إنه اتكاء على مدلول (الأسود) يزيد التأكيد ببيان الإضافة قبل إصدار الحكم والإدلاء بالخبر .

وعدي بن زيد يكرر للبيان في مقام التذكير ، ليقرر الذات التي يعنيها وقد كانت ما كانت ، فيسوق الأثر إلى السامع في عين العبرة وتأمل المصير حين يقول :

أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان ؟ أين قبله سابور ؟

وفي الغزل يكرر ابن أبي ربيعة (الوجه والمعاصم) من الحبيبة تكرير البيان ، ليؤكد جمالها العاذر له في غزله ، بالوصف المشعر بالنعمة والسيادة والحسن جميعاً ، حين نسمعه يقول :

وَمَدَّ عليها السجْفَ يوم لقيتها   على عَجَلٍ تُبّاعُهَا والخوادمُ
فلم أستطعها ! غير أنْ قد بدا لنا   عشية راحتْ وجْهُهَا والمعاصم
معاصم لم تضرب على البهم بالضحى   عصاها ووجه لم تلحه السمائم

ولا يبعد أبو ذؤيب عن ذلك الوادي ، حين يصف حديث المحبوبة اللاذ ، وإن جاء تكرير البيان في المشبه به حديثها .

وإن حديثا منك لو تبذلينه   جنى النحل في ألبان عوذ مطافل
مطافيل أبكار حديث نتاجها   تشاب بماء مثل ماء المفاصل

إن ألبان العوذ المطافل أشهى الألبان عندهم ، ويؤكد طيبها أن تكون أبكاراً حديثة النتاج ، فإذا مزجت بأعذب الماء وجنى النحل فلا شراب لديهم أحب منها ، لذلك نراه كرر للبيان تلك المطافيل ، ليكون ما شبه به حديثها أكمل في الوجه العائد على مشبهه .

وأما ابن ميادة فلا يدع لغير مقصوده مجالا للشركة في الحكم ، فيدفع بتكرير البيان كل احتمال ليخصه وحده الوصف .

يقول ابن ميادة :

ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت على الشمس لم تطلع عليك حجابها

ولكن تكرير البيان قد يجيء للكشف عن المجمل بتفصيله ، فيكون أعظم تقريراً من التفصيل المبتدأ به ، لما سبقه من تشويق إليه بسبب ما في المجمل من تحريك النفس لكشف المراد ، وهنا نلتقي برابعة التي تجمل بالتثنية ثم تستفيض بتكرير البيان غارقة في لذة المناجاة :

أحبك حبين : حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وفي رثاء سراقة بن مرداس البارقي لعبد الرحمن بن مخنف ، نرى ذلك اللون من تكرير البيان :

ثوى سيد الأزدين : أزد شنوءة وأزد عمان رهن رمس بكازر
وقاتل حتى مات أكرم ميتة بأبيض صاف كالعقيقة باتر

وعلى دفع اكتئاب النفس بحيرة الإجمال والإبهام ، يكرر أبو تمام في مقام الوصف لما راعه من مشاهد الطبيعة . ليجلي بالبيان إشراق الصورة المجملة حيث يقول :

يـا صـاحبي تـقصيـا نـظريكمـا   تـريـا وجـوه الأرض كيف تـصـور
تـريـا نهـارا مشمسـا قـد شابـه   زهـر الـربى فكـأنمـا هـو مقمـر

التكرير للتعجب ، والتهويل ، والتفخيم

ألوان من روعة النفس للشيء يستغرب ، أو يستعظم ، فنجد أسلوب التكرير مسعفاً لها بالكشف عن انفعالها به .

هذا بشار يقول :

يـا عجبا للخـلاف يـا عجبـا   في فم من لام في الهوم حجر

وهذا الآخر يقول :

ومـا الـليـل والأيـام إلا مـنـازل   يسير بها سـار إلى الموت قـاصد
فيـا عجبـا منهـا وتلك عـجيبـة   منـازل تسـري والمسـافر قـاعـد

وقد يكون مدلولا على التعجب بغير مادته ، مما عهده الأسلوب العربي دالا عليه كقول الآخر :

لمـا تبـدت من الأستـار قلت لها   سبحـان سبحـان ربي خـالق الصـور
ما كنت أحسب شمساً غير واحدة   حتى رأيت لها أختا من البشـر

وأسلوب الاستفهام في سياق المكرر ، كما في قول الآخر :

عجـوز علتهـا كبـرة في مـلاحـة   أقـاتلتي يـا لـلرجـال عجـوز ؟

والتهويل والتفخيم يكثر فيهما التكرير ، ويحدث ذلك من ذكر الشيء على طريق الإخبار عنه بما يشفي النفس من كشفه ، فإذا بالمتكلم يعيد ذكره بلا زيادة بيان ، فيزداد الغموض ، وكأنَّ المتكلم رأى ما يصفه به أقل مما حقه أن يوصف به ، فتركه على ما كان قبل التكرار ، لتذهب فيه نفس المخاطب كل مذهب ، وهو من أساليب القرآن في مثل قوله تعالى :

﴿ الحَاقَّةُ ما الحَاقَّةُ . ومَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ ﴾ قبل ورود ما بينت به ، لشد

الانتباه إلى إكبار ما يساق من شأنها . وكقوله تعالى :

﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ . ومَا أدرَاكَ مَا القَارِعَةُ ﴾ .

وقد يكون التهويل في تكرير الفعل من الفاعل ، ما دام على أي صورة يكتنفه الإبهام . ومن ذلك قول ابن الدمنية :

عزيت نفساً عن هواك كريمة ... على ما بها من لوعة وغليل !
بكت ما بكت من شجوها ثم راجعت ... لعرفان هجر من ثواك طويل

وقول امرىء القيس :

فإن تهلك شنوءة أو تبدل ... فسيري إن في غسان خالا
بعزهم عززت .. وإن يذلوا ... فذلهم أنالك ما أنالا

وقول كثير :

وأدنيتني حتى إذا ما ملكتني ... بقول يحل العصم سهل الأباطح
تجافيت عني حين لا لي حيلة ... وخلفت ما خلفت بين الجوانح

ومن أشعارهم في الضرب الأول قول كعب بن سعد الغنوى :

أخي ما أخي لا فاحش عند ريبة ... ولا ورع عند اللقاء هيوب

تكرار التحسر والتحزن

إذا وجع القلب لما أصيب به من أسى ، وجد في تكراره للفظ البث راحة ، تحل مكان وخذة من وخذات الهم ، التي يتضور بها فؤاد المهموم ، وقد رأينا من تكرار اللفظ في ذلك ، ألوانا ربما نحن نطقناها ، وربما سمعناها أو قرأناها ، ومنها قول ابن الرومي في ثورة الزنج :

لهف نفسي عليك أيتها ... البصرة لهفا كمثل لهب الضرام !
لهف نفسي عليك يا معدن ... الخيرات لهفا يَعَضُّني إبهامي !
لهف نفسي عليك يا قبة ... الإسلام لهفا يطول منه ضرامي !

لهف نفسي عليك يا فرصة البلدان لهفا يبقى مع الأيام !
لهف نفسي لجمعك المتفاني لهف نفسي لعزك المستضام

أما توجع الشريف الرضي وتحسره ، فلما فات من طيب الشباب ، الذي هو بهجة الحياة ونضرتها ، وقد قلص عنه كظل طائر :

واها على عهد الشباب وطيبه والغض من ورق الشباب الناضر
واها له ! ما كان غير دجنة قلصت صبابته كظل الطائِرِ

ثم على ما مناه به القدر من فرقة الأحباب بعد التلاقي ، وقد أوجع قلبه التذكر لما كان :

نظرتك نظرة بالخيف كانت جلاء العين بل كانت قذاها
ولم يك غير موقفنا وطارت بكل قبيلة منا نواها !
فواها ! كيف تجمعنا الليالي وآها من تفرقنا وآها

وليس تحزن مهيار لفراق الليالي العامرة بهواه ، بأنقص من تحزن الرضى إذ يقول مهيار :

آه مما أسارت في كبدي من جوى تلك الليالي البيض آها

ويهيج الوقوف بالديار قلب ابن مقبل ، فنرى اللهفة على الزمان الغابر والماضي البهيج الذاهب ، لا تقنع النفس منها بغير التكرار حين يقول :

ألهفي على عز عزيز وظهرة وظل شباب كنت فيه فأدبرا
ولهفي على حَيَّيْ حنيف كليهما إذا الغيث أمسى كابي اللون أغبرا
يذكرني حَيَّيْ حنيف كليهما حمام ترادفن الركيَّ المعوَّرا
ومالي لا أبكي الديار وأهلها وقد حلها رواد عك وحميرا

وإذا كان للتحزن والتحسر ألفاظ في اللغة تدل بذاتها ، فإن أفعالا أخرى بما

تعلق بها في النظم تفيد الحزن أو الحسرة أو مرارة الألم لموقف من مواقف الألم ، كذلك الفعل المكرر من قول الحارث بن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماء   رب ثاو يمل منه الثواء
آذنتنا ببينها ثم ولت   ليت شعري متى يكون اللقاء ؟

إن تكرار هذين الفعلين على هذا الوجه من التعلق وإسناده إلى أسماء ليحمل فاجعة مذهلة ، ما كان الشاعر يدرك قبل وقوعها مداها من قلبه ! لقد أعقب الإيذان ما تركه موجعاً ، بين ماض ذهب فجأة عنه ، ومتمنى لا طمع للقلب في موعد له يضرب ، إنها عاطفة يصورها البيتان مهما قيل في المقدمات الغزلية للشعر الجاهلي .

تكرار التهكم :

التهكم أسلوب يعبر عن الشعور بالتعالي ممتزجاً بالبغض وحب الانتقام في كثير من الأحيان ، ولهذا يغلب أن نراه قائماً على التكرير ليكون أشفى لنفس القائل وألذع لنفس المتهكم به ، وقد برع عجرد في الوصول إلى هذا الهدف المزدوج حين خاطب ابن نوح بقوله :

فيا ابن نوح يا أخا الحلس ويا ابن القتب
ومن نشا والده بين الربى والكثب
يا عربي يا عربي يا عربي يا عربي

وينقل ابن معصوم عن مؤدب كان له في صباه ، يتهكم بمن يحسنون جمع العلم في الكراريس ، ولا يحسنون جمعه في صدورهم :

صاحب الكتب تراه أبداً   غير ذي فهم ولكن ذا غلط
كلما فتشته عن علمه   قال علمي يا خليلي في سفط
في كراريس جياد أحكمت   وبخط أي خط أي خط

وهكذا نحس لذعة التهكم بتيم وعكل ، في تكرير الزمان الذي كان ظرفاً لعلو شأنهم ، تكريراً يجمع بينهم وبين زمانهم في النيل منهم :

إذا كان الزمان زمان تيم ... وعكل فالسلام على الزمان
زمان صار فيه العز ذلا ... وصار الزج قدام السنان

وهذا ذفافة بن عبد العزيز أحد رجال الدولة العباسية ، يبلغ منه الشاعر ومن خيله ما شاء من إسقاط لفضله ، بذلك التكرار الذي يسلطه على الخيل دونه ، كأنه يهتم بها أكثر مما يهتم به :

لو جرت خيل نكوصا ... لجرت خيل ذفافة
هي لا خيل رجاء ... لا ولا خيل مخافة

وكم بلغ الخريمي من مقتل أبي دلف بهذا التكرار:

إخلع ثيابك من أبي دلف ... واهرب من الفجفاجة الصلف
لا يعجبنك من أبي دلف ... وجه يضيء كدرة الصدف
إني وجدت أخي أبا دلف ... عند الفعال مولد الشرف

تكرار التحدي:

يرجع التحدي إلى حب الانتصار ووضع الآخرين في مكان العجْز ، وقد يكون مع ابتداء الحكم لقطع المتكلم على المخاطب من أول الأمر سبيل الشك أو النقض ، وقد يكون استجابة لثورة النفس تحقيقاً للذات وإباء للإهانة .

ولما كان التعبير عنه أسلوباً خطابياً هذا مكانه من النفس ، حسن وكثر معه التكرار ، الذي يزيد عزيمة المخاطب ضعفاً أو انهياراً أمام المتكلم .

ابن الرومي يبتدىء بإصدار الحكم على الصديق ، فيقف ممن يتأتى خطابه موقف التحدي والتعجيز ، ويكرر الفعل كالواثق من صدق حكمه ، ليوقع

المخاطب في اعتقاده ، وينسيه أن ينظر في أناة لعله ينتصر على دعوى العجز والتحدي يقول :

أرني صديقاً لا ينوء بسقطة   من عيبه في قدر صدر نهار ؟
أرني الذي عاشرته فوجدته   متغاضياً لك عن أقل عثار

أما الآخر فقد أخبره صاحبه أن آل حبيبته يتهددونه بالقتل لما ينوه بها في شعره ، فتحداهم بتكرير اللفظ الذي كرهوه مرات ، تقريراً لذاته ودفاعاً عن إبائه وعزته ، ووضعاً لهم في موضع العجز عن أن يفعلوا ، ونرى في التكرار تدفق الثورة العارم دليلا على صدقه :

ولا غرو إلا ما يُخبِّرُ سالمٌ   بأن بني أستاهها نذروا دمي
وما لِيَ من ذنب إليهم علمتُهُ   سوى أنني قد قلت : يا سرحة اسلمي
نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي   ثلاث تحيات وإن لم تكلمي

ولعل هذا الأسلوب الثائر الصادق عن النفس هو الذي دفع ابن خطيب داريا أن يقول :

أنظر إليَّ فإنني لك عاشق   واعطف عَلَيَّ فإنني بك شائق
واحكم تجدني طوع أمرك في الذي   تختاره ! واللهِ إني صادق
وإذا جرى العشاق في ميدانهم   لهواك كنت أنا المحب السابق
إن كان ذنبي أنني لك عاشق   أنا عاشق أنا عاشق أنا عاشق

فإنه يكرر الذنب المفترض تكرير المصر عليه الذي لا يقلع عنه مهما يكن الجزاء .

تكرير التشريك والموافقة :

قد يستخدم التكرير لتشريك أمرين على التوافق في الوصف أو الحكم المكرر ، ومن الممتع فيه قول ابن الرومي في وصف روضة راقته :

ورق تغني على خضر مهدلة   تسمو بها وتمس الأرض أحياناً
تخال طائرها نشوان من طرب   والغصن من هزه عطفيه نشوانا

فقد كرر النشوة التي اتصف بها الطير والغصن على سبيل التوافق فيها ، تكريراً يؤكد انسجام المشهد وتكميل بعضه حسن بعض ، تحت لمسة من التشخيص لا تجعل الغصن أدنى حياة من الطير.

وأبو تمام يكرر الفعل المشترك بين الشبيهين المتوافقين ، ليمكن مدلوله كل التمكن من نفس سامعة ، ويجعل الطرفين لا أحد منهما أكثر فاعلية له من الآخر ، حيث يقف هذه المرة واعظاً يقول :

تلقح آمالاً وترجو نتاجها   وعمرك مما قد ترجيه أقصر
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوءه   وليلته تنعاك إن كنت تشعر

تكرار المفارقة :

كما يكون التكرار لتأكيد التوفيق ، يكون لتأكيد التفريق على وجه التضاد ، وتكرير اللفظ يدل أولا على توهم التماثل فيما تعلق به . فإذا اختص كل من اللفظين بما ارتبط به تمت المفارقة وزاد التبين ، لما هو مغروس في الطبع من حب الموازنة وانتخاب الأوفق .

وانظر إلى هذه الموازنة في التكرار للمشترك يعقبه التفريق ، في قول ربيعة الرقي :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى   يزيد سليم والأغر بن حاتم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله   وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

ثم انظر إلى بشار يجمع بين عمرو وضيفه في السهر معاً ، ثم يكر على ذلك بتكرير المفارقة الناجمة من الموافقة :

وضيف عمرو وعمرو يسهران معاً عمرو لبطنته والضيف للجوع

ما أشد ما بين علتي السهر من فرق يضع عمْراً في مكان الزراية .

إنه أسلوب دقيق المسلك في هذا الإيجاع !

ويكرر المتنبي على هذا الغرار ليجعل كلا في كفة من الميزان :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ثم ما أجمل توليد المفارقة من الموافقة للإقناع في هذين البيتين :

وللزنبور والبازي جميعاً لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز وما يصطاده الزنبور فرق

وعودة إلى المتنبي في هذا المثال :

وما يوجع الحرمان من كف حارم كما يوجع الحرمان من كف رازق

تكرار التشبيه :

قريب من تكرار الموافقة تكرار التشبيه ، وفيه تقع أداة التشبيه بين اللفظ ومكرره مذكورة أو مقدرة ، مع اتحاد المادة والصورة معاً أو المادة دون الصورة ، وكل غرض للتشبيه غرض لهذا التكرار لأنه نوع منه لا يختلف عن بقيته إلا بذلك التكرار ، وهذه أمثلة منه لا أراها بحاجة إلى تعليق .

يمدح مروان بن أبي حفصة بني العباس فيقول :

أيادي بني العباس بيض سوابغ على كل قوم بادئات عوائد
فهم يعدلون السمك من قبة الهدى كما تعدل البيت الحرام القواعد

ويمدح المتنبي ويصف جيش الممدوح :

سحاب من العقبان يزحف تحتها سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

ويذكر أبو صخر نسيانه سبب الهجر عند اللقاء :

وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها   كما قد تنسى لب شاربها الخمر

ويهجو الآخر فيشبه بكاء مهجوه على الرغيف ببكاء الخنساء على صخر :

فتى لـرغيفـه قـرط وشنف   وإكـليـلان مـن در وشـذر
إذا ذكـر الرغيف بكى عليـه   بكا الخنساء إذ فجعت بصخر

ويمدح مروان بن أبي حفصة الفضل بن يحيى فيقول :

نفى عن خراسان العدو كما نفى   ضحى الصبح جلباب الدجى فتعردا

ويهجو الخاملين الذين لا نفع في حياتهم أبو الطيب فيقول :

في الناس أمثلة تدور حياتها   كممـاتها ومـمـاتها كحيـاتهـا

ويقول في تحفيز الهمم إلى المعالي :

فطعم الموت في أمـر حقير   كطعم الموت في أمر عظيم

وفي حظه من حبيبه :

نصيبك في حياتك من حبيب   نصيبك في منامك من خيال

وفي وضع الشيء خطأ في غير موضعه :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف في موضع الندى

وفي اتحاد النهاية الخاتمة للمسالم والمحارب :

وغـايـة المفـرط في سلمـه   كغـايـة المفرط في حـربـه

هذه أنواع من الأغراض الجزئية يكثر فيها أن تعتمد على التكرير ، وقد نسبتها إلى الجزئية لأنها كما رأيت ، تندرج في سياق الأغراض الخطابية الكبرى للكلام : كالمدح ، والغزل ، والفخر ، والهجاء ، والرثاء وغيرها ، مما سنأخذ منه نماذج تعتمد التكرار وسيلة من وسائل التقرير فيها بعد هذه اللافتة .

الأغراض العامة للتكرير

التكرير أسلوب تعبيري يصور انفعال النفس بمثير من أشباه ما سلف ، واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان ، فالمتكلم إنما يكرر ما يثير اهتماماً عنده ، وهو يحب في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه ، أو من هم في حكم المخاطبين ، ممن يصل اليهم القول على بعد الزمان والديار .

فاللفظ المكرر ـ بوجه عام ـ مصدره الثورة وهدفة الإثارة ، حباً أو بغضاً ، في أي غرض من أغراض الكلام ، والتكرار مرتبط بقانون التردد ، من قوانين تداعي المعاني ، ولذا يعد وسيلة تربوية من وسائل التقرير « ويرجع أثر التكرار إلى أنه يزيد الشيء المكرر تميزاً من غيره ، فالأشخاص الذين يقع عليهم نظري كثيراً يزدادون وضوحاً في إدراكي وتصبح صورهم بمثابة الصبغة القوية التي تستأثر بذاكرتي ، وكذلك الأقوال أو الأحكام التي تتوافر في سمعي تكون أكثر وروداً على لساني أو خلال تفكيري من الأقوال والأحكام العابرة ، ولهذا كان التكرار والإلحاح في التكرار هو الركن الأساسي الذي يقوم عليه فن الدعاية »[1] .

هذا حقيقة لامراء فيها ، فليس أثر دقة على مسمار كأثر دقتين ، ولا رشفة ماء على قلب صاد كرشفتين .

هذا ما يحمل الشعراء أو غيرهم ممن يريدون تقرير إحساسهم بمعاني

---

١) مبادىء علم النفس العام .

الحياة على أن يتخذوا التكرار أداة معبرة بنجاح عن مرادهم ، وهنا نسوق نماذج من الأغراض الخطابية العامة ، لنرى ظاهرة التكرار فيها ألمع ما يبث النشاط في جوانب الصورة ويعمل على نمو التأثير بها في المستمع . والتكرار الذي سيدخل هذا الجانب من التطبيق ليس قاصراً على ما أخذ الاسم بالمعنى الخاص ، بل كل ما أعيد فيه صوت المادة بوجه ، مما سنفصله بعد هذه المرحلة التطبيقية العامة .

١ ـ الغزل :

كان الشعر العربي إلى عهد قريب يتبع تقليداً يكاد يعمه ، هو افتتاح القصائد بالغزل وذكرى الأحباب ، وأغلب ما كان يشغل المطالع تهييج الدمن والأطلال عواطف العشاق ، وعلى ما كان لهذا الاستهلال الموروث من رتابة التقليد ، نراه لا يخلو على الإطلاق من صدق العاطفة ، فالذكرى المثيرة من وقفة بالطلل ، مجلوبة باستحضار الخيال ، تتعدى وعي الشاعر ، وتنقله إلى الماضي فتغرقه في غيبوبة تطول أو تقصر ، بمقدار ما يعبر عنها في قصيدته ، ثم يدركه الوعي فيعيده إلى ما شاء قبلها أن يكون غرضاً هادفاً لقصيدته . ومثل الطلل كل ما له علاقة بالمحبوب تثير الذكرى ، من ناطق وصامت ، ومن حي وجامد ، مما نراه منبثاً في أشعارهم ؛ ومثيراً لوجداناتهم وعواطفهم . فإذا تمحضت الأبيات لموضوع الحب والغزل ، استأثر بها ذلك المثير على وجه أشد ظهوراً وأكثر عمقاً .

ونحن هنا واجدون ألفاظاً بعينها تكرر ، إذا أعطيناها الفكر يبحث عن سر تكريرها ، وجده في أنها أدعى الألفاظ لتحريك عاطفة الشاعر ، لأنها تمس قلبه مسا يضيء النور أو يشعل النار ، وفي كل من النور والنار للعاشق متعة ، فتكريره فيه راحة لنفسه ، وإشباع لذكراه ، وإرخاء لظل أطول مدا ، يرسل فيه أنفاساً تصل حاضره بماضيه ، ذلك الماضي الغارب الذي انقطع إلا من هذه الذكرى .

(١)

ارتحلت نُعْمُ وآل نعم ، وتركت للنابغة حسرة القرار في دمنة الدار ، ولوعة الحزن في نؤى وأحجار ، ولكنها مهما تكن هي دار نعم ، عليها وحدها يحوم طائر حبه ، وعندها وحدها يسفح دموع وجده ، وفيها وحدها سره الذي استعجمت أن تبوح به ولو تكلمت لأجابت شعره بشعر مثله ، وتحيته بتحية ربما كانت خيرا منها .

نُعْمُ ودار نُعْم ، أي شيء سواهما في دنْيا حبه ، وغزله ، وتحزنه ، وتفكره ، يكون أولى منهما بالتكرار ، ولكل حرف يفوه به نشوة ، ولكل مرة يتردد فيها الحرف تسرب حالم إلى عمق ماضيه ؟

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ! ماذا تحيـون من نؤى وأحجار ؟
أقـوى وأقفر من نعم وغيـره هوج الرياح بهابي الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أمونا عبر اسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنـا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئاً أعوج به إلا الثمـام وإلا مـوقـد النـار

إن هذا التكرار على سذاجته ، يكتسب من الوزن العاطفي ، ما يكسبه الوزن التنسيقي في وضع المكرر ، فتحية نعم في الصدر من أول بيت والاستدراك عليها بما يؤكد عدم الجدوى في صدر البيت الثاني ، والإخبار عنها بالاستعجام في صدر الرابع . يمثل اسم نعم فيها جميعاً موضعاً واحداً هو حشو الشطر . وفي العجزين من الثالث والرابع ، يكاد يقع على التوازي (آل نعم) ودار نعم .

لا أظن هذه المقدمة الغزلية تقليداً لا واقع للتعبير فيها ، ولا أظن النابغة إلا معبراً عن حقيقة مَلَكَتْهُ ، ما يزال مثلها يملكنا ، ووقوفه سراة اليوم ما يعوج بغير الثمام وموقد النار ، ووراءه من المعاني الكثيرة ما مفتاحه تلك الرموز اليسيرة ، وما

استحقت دار قواد ، أن تذكر فتكرر ، بل ولا استحق الراحلون عنها سؤال الدار عنهم ، إلا لأن الدار دار (نعم) والآل (آل نعم) وقلب الشاعر وصول بحب (نعم) .

(٢)

وأية رحلة تلك في رحاب الذكريات ، يسبح فيها خيال زهير ، يتنقل من مكان إلى مكان يحل فيه ركب المحبوبة ، فيأخذ كل مكان أو مشهد حظه من اتكاءة التكرير عليه ، بما لا يجعله متهماً بفتور العاطفة نحوه ، وقد كان للمحبوب النازح عنه وقع قدم فيه :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم	بحومانة الدراج فالمتثلم
وقفت بها من بعد عشرين حجة	فلأياً عرفت الدار بعد توهم
فلما عرفت الدار قلت لربعها	ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم
تبصر خليلي هل ترى من ظعائن	تحملن بالعلياء من فوق جرثم
جعلن القنان عن يمين وحزنه	وكم بالقنان من محل ومحرم
ظهرن من السوبان ثم جز عنه	على كل قيْنيٍّ قشيب ومفأم
ووركن في السوبان يعلون متنه	عليهن دل الناعم المتنعم
بكرن بكورا واستحرن بسحرة	فهن ووادي الرس كاليد للفم

عشرون حجة تمضي على دار بالرقمتين : دار بدوية ، لا هي قصر غمدان ولا إيوان كسرى ، يشغل مكانها الشاعر حتى يتجلاها بعد لأي من غيابة الوهم : كيف لا تكون داراً تستحق أن يتكرر اسمها ؟ .

ومن حسن المصادفة ما أدرى أو القصد ، يأتي اللفظ نكرة ممهداً للتيه أولا ، ثم يأتي معرفة بلام العهد حين يزول الوهم ويصدق اليقين ، ثم تتكرر معرفة الدار وفاء بحق الفرحة ، كأنما زارها وفيها (أم أوفى) كما كان يفعل ،

وتجيش الأشواق باستيقان ربعها ماثلا أمامه ، فيحييه ويدعو له ، مكرراً اسمه ، ناقلا إليه بصيغة الأمر وصيغة النداء قيمة الحياة وذاتية العاقل . إنه التعويض لما فقده بالحقيقة ، يُرَدُّ عليه في ظل الخيال هبةً وعلالة .

ثم القنان : هذا الجبل الذي سارت يمينه الظعائن من محل ومحرم ، لم ينس الشاعر أن يتكىء إليه بتكرار اسمه ، لأن في تكراره تركيزاً على استحضار الصورة في عين ذاكرته : ومَدًّا لوقت مثولها أمامه .

ثم هذا السوبان يصاحب منهن كل ما ذكر زهير من أعمال ؛ ليس أقل تلبثاً بخياله ، ولا إمتاعاً باستطالة الذكرى ، فهو يشغل به صدر بيتين متتالين : « ظهرن من السوبان » . « وركن بالسوبـان » وما أحلى ما تراه من تكرار المادة مرة بمصدرها في « بكرن بكوراً » وأخرى بظرْفها في « واستحرن بسحرة » مع إمكان الاستغناء عن التكرار ، لولا أن فيه مدا للظلال ،وتضافراً في النسق القائم على هذه الظاهرة ، يشعر بانسجام الصورة الكلية مع كل صورها الجزئية ، تحت هيمنة واحدة للصدق الساري في جوانب النص .

(٣)

وهل ننكر على عنترة وقد قرأنا ما قرأنا من قصة حياته ، أن يتخذ من اسم (عبلة ودَارِ عبْلة) مروحة لقلبه ، ومتكأ لوجدانه ، فيكون لهما من التكرار بقدر ما لهما من الحب ؟

إن هذا التكرار يحرك أبياته ويبث فيها الحياة والنمو والتدفق ، وكأنما الاسم كلما عاد فجر ينبوعـاً جديداً لئلا يخفت صوت الوجدان أو يضعف دفق العاطفة .

هذا الذي نلمسه في قوله :

هل غادر الشعـراء من متردم　　　أم هل عرفت الدار بعد توهم

أعياك رسم الدار لم تتكلم		حتى تكلم كالاصم الأعجم
إلا رواكد بينهن خصائص		وبقية من نؤيها المتهدم
ولقد حبست بها طويلا ناقتي		أشكو إلى سفع رواكد جثم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي		وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي
دار لآنسة غضيض طرفها		طوع العناق لذيذة المتَبَسَّم
فوقفت فيها ناقتي وكأنها		فدن لأقضي حاجة المتلوم
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا		بالحزن فالصمان فالمتثلم
حييت من طلل تقادم عهده		أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
وتحل عبلة في الخدور تجرها		وأظل في حلق الحديد المبهم

(٤)

ثم لنعش مع قيس وليلاه في هذه الأبيات الثلاثة :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى		فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما		أطار بليلي طائراً كان في صدري
دعا باسم ليلى ! ضلل الله سعيه		وليلى بأرض عنه نازحة قفر

إن ليلى ، هي ليلاه وحدها . . وإن ذلك الاسم كاذب على غيرها . . كيف ينادي بهذا الاسم وأرض ليلى نازحة نائية ؟

هكذا تحرك حروف اسمها أرقام الهاتف أو مفتاح التلفاز ليعكس مشهد الحب الحزين فيهيج القلب المحروم فيهتف من أعماق نفسه بهذه الشكوى الغاضبة .

إن اسم (ليلى) هو أشجان قيس كل أشجانه ، لذلك يتكرر أربع مرات في أربعة شطور . . وإن دعاء الداعي باسمها هو مثير تلك الأشجان . ومطير هذا الطائر المنزعج ، لذلك يتكرر مقروناً باسمها مرتين ، بعد ذكره مطلقاً في أول

الأبيات . إن دعاءه باسمها ذلك الغير جناية ، والتكرير يحقق استحقاقه للعقاب الذي ألحقه به ، وهو دعاؤه أن يضلل الله سعيه .

أتظن أن قيساً وهو يصرخ هذه الصرخة كان لعقله الحاكم اختيار لتكرير ما كرر ؟

أما أنا فلا أرى هذا التكرير إلا صوت وجده !

(٥)

ومع كثير وعزة فلنقف قليلا ، لنرى الربع الذي سعد بعزة يوماً يعقله عن السير باكياً ، لأنه يرتسم له فيه كل ما ألهبه من حب ، وأمل ، وإشفاق ، وخيبة ، ويحضر له صورة عزة جانية عليه بكل ما يرى ، فيكرر اسمها مع شدة العذاب بها ، بين الاستعتاب والاستعذاب وخديعة النفس بالتمني :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرة نذراً فأوفت وحلت
فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
فليت قلوصي عند عزة قيدت بحبل ضعيف غر منها فضلت

(٦)

إن الشاعر قد يكره الربوع لذاتها ، والديار لخصائص طبيعية أو نفسية تنفره منها ، ولكن حبه يطغي على بغضه لما غمرها من عبق ريح المحبوب ، وتفويف أرضها وسمائها بخيوط زاهية من ألوان عشقه ، فلننظر ذلك مع تكرار اسم (لبنى) في هذه الاعترافات ، وقد تبعها الشاعر يوماً حتى اختفت عن باصرة وجهه ، فقبل ممشاها ، فلامه من خلا صدره من قلب كقلبه :

وما أحببت أرضكم ولكن أقبل إثر من وطىء الترابا
لقد لاقيت من كلفي بلبنى بلاء ما أسيغ له الشرابا
إذا نادى المنادي باسم لبنى عييت فلا أطيق له جوابا

وكيف لا يكرر اسم محبوب قبل تراب الأرض من خلفه ، لأنه في عين حبه مغمور بنفحة منه ؟

إن قلبه من القافة الذين يعرفون ما لا نعرف من دلالة التراب على صاحب القدم ، وقد جاء في قصة السامري « فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي » .

إن العاشق مسحور ، وساحره لبناه ، وكل ما مسته لبنى فيه أثارة من سحر ! أليس هو القائل يكرر الضراعة والشكوى واليتم :

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله بعد الوالدين يتيم !
يتيم جفاه الأقربون فجسمه نحيل وعهد الوالدين قديم !

(٦)

وفي القصيدة (المؤنسة) للمجنون يتكرر اسم ليلاه ، حتى يغمرنا لكثرة ما كرره فجعله معتمد شجونه وتحزنه - في هذه الشجون والتحزن :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لا أعدى على الدهر عاديا
ويوم كظل الرمح قصرت طوله بليلي فلهاني وما كنت لاهيا
فياليل كم من حاجة لي مهمة إذا جئتكم بالليل لم أدر ماهيا

. . .

وعهدي بليلى وهي ذات مؤصد ترد علينا بالعشي المواشيا
فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها وأعلاق ليلى في الفؤاد كما هيا

سقى الله جارات لليلى تباعدت بهن النوى حيث احتللن المطاليا

...

بتمرين لاحت نار ليلى وصحبتي بقرع العصا تزجى المطى الحوافيا
فقال بصير القوم لمحة كوكب بدا في سواد الليل من ذي يمانيا
فقلت لهم بل نار ليلى توقدت بعليا تسامى ضوءها فبداليا
خليلي لا والله لا أملك الذي قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
وخبرتماني أن تيماء منزل لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت فما للنوى ترمي بليلي المراميا

(٧)

إن في تكرار الحروف المحبوب تكرارها نشوة للمحب ، كررها بلسانه ، أو سمعها من سواه ، يسعده أن يعيش في غيبة من شعور اليقظة عندها ، لهذا يناشد ابن الجوزي صاحبه ، أن يردد الحديث عن المحبوب ويعيد :

فقلت له : رد الحديث الذي انقضى وذكراك من هذا الحديث أريد
يجدد تذكار الحديث مودتي فذكرك عندي والحديث جديد
أناشده إلا أعاد حديثه كأني بطيء الفهم حين يعيد

(٨)

وإذا كان المجنون ـ كما يرى من يرى ـ شخصية أسطورية ، فإن مدلول التكرير فيما قيل بلسانه مدلول حقيقي ، وموضوعه ماثل واقع : لجميل ، وكثير ، والعباس بن الأحنف الذي ترك ديواناً كاملاً يقوم على جنون الحب وتكرار اسم المحبوب ، وما تعلق به من أحداث تنسج قصة العمر .

انظر إلى مادة (حب) كم تتكرر منه في هذه الأبيات ، وحق لها أن

تتكرر . . إنها سعده وشقاؤه وعذابه وبهجته . . إنها دنياه كل دنياه ، يصطبغ بها كل شيء في وجوده :

كتب المحب إلى الحبيب رسالة والعين منه ما تجف من البكا
هـذا كتـاب نحـوكم أرسلتـه يبكي السميع له ويبكي من قرا
فيه العجائِبُ من محب صادق أطفاه حبك يا حبيبة فانطفأ
وصبرت حتى عيل صبري كله وهويتكم يا حب نفسي للشقا
وكتمت حبك فاعلمي واستيقني والحب من غيري فديتك قد أبى
أفمـا لهذا حـرمـة محفـوظـة أو ما لهذا يا فديتك من جَزَا ؟

إنه يقف منها موقف الواله ، فيناديها ذلك النداء المكرر في صدور تلك الأبيات ، يتقاذفه الضنى كالأمواج مرة إلى اليأس وأخرى إلى الرجاء . . ولكنه مع كل حال نداؤها الذي يتكىء إليه ويلح به ، لعلها تسمعه ساعة فترثي لبلواه :

فيا من رضيت بما قـد لقيت من حبـه مخـطئـاً أو مصيبـاً
ويـا من دعاني إليـه الهـوى فلبيت لمـا دعـاني مجيبـا
ويـا مـن تعـلقتـه نـاشئـاً فشبْتُ ومـا آن لي أن أشيبا
لعمري لقد كذب الزاعمـون بـأن القلوب تجازي القلوبـا
ولـو كان حقـاً كما يـزعمون لمـا كان يجفـو حبيب حبيبا

إن التكرار ليدرك (ليله) الذي يصف حاله فيه ليقرر همه به وبثه إذ يقول :

أراني أبيت الليل صاحب عبرة مشوقاً أراعي منجدات الكواكب
أراقب طول الليل حتى إذا انقضى رقبت طلوع الشمس حتى المغارب

كما يدرك التكرار (قلبه) ليضعه أمامها مصوراً ملهوفاً فائض الوجد شاكي الصد ، و (لسانه) الذي يريده لغيرها فيأبى غيرها :

أريد لأدعو غيرها فيجرني لساني إليها باسمها كالمغالب
يظل لساني يشتكي الشوق والهوى وقلبي كذي حبس لقتل مراقب
كأن بقلبي كلما هاج شوقه حرارات أقباس تلوح لراهب
ولو كان قلبي يستطيع تكلما لحدثكم عني بكل العجائب

ويكرر العباس كل نبضة لها صلة بالمحبوب ، حتى حروف العتاب التي ترد في بيت واحد ثلاث مرات ، ولم لا تتكرر والعتاب عتابها ؟ إنها به تعذبه ولكنه العذاب المشتهي :

عذبت قلبي بالعتاب . . فكلما فني العتاب بدأته بعتاب
وزعمت أني لا أحبك صادقاً والله يعلم ما تجن ثيابي

وحتى الدموع والسهد والبكاء :

فراقك كان أول عهد دمعي وآخر عهد عيني بالرقاد
فلم أر مثل ما سالت دموعي وما راحت به من سوء زاد
أبيت مسهداً قلقاً وسادي أخفف بالدموع عن الفؤاد

إنه يبكي ثلاث مرات في بيت واحد :

أبكي ظلوم ! وأبكي ما فجعت به منها ! وأبكي على قلبي الذي ذهبا

إنه يثبت غيابها وقربها منه بالتكرار وينفيه . . أليس القرب والبعد هما سعادة الحب وشقاؤه ، فهما بذلك يستحقان ذلك التكرير ؟

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي
أقر لكم بالذنب مني مخافة من الهجر لما رمت أن تخلقي حبي

بل إن اسم محبوبه لينتقل من لسانه إلى كفه ليكون منطوقاً ومرئياً ، إنه يتشخص أمام عينه فيكون ذات المحبوب ، فيقم أحوال نفسه أمام شخصه على هذا الذي ترى :

كتبت اسمها في راحتي ولثمته		أقبله طوراً .. وطوراً أعـاتبه
يذكرني الفردوس ريح كتـابه		وقد كنت حينا قبل ذاك أكاتبه

إن الشاعر يكتم اسمها الحقيقي في عمق سره : يقل اسمها الذي نحلها إياه اهتماماً به ؛ لأنه العَلَم الذي اقترن بذاتها يوم ميلاد حبه .

كتمت اسمها كتمان من صان عرضه		وحـاذر أن يفشو قبيـح التسمـع
فسميتها فوزاً ولو بحت باسمها		لسميت باسم هائل الذكر أشنع

وإنه ليعكس خطوه في اتجاه غير اتجاهها ، ولكنه يرى أمامه بعين حبه ما هو ماثل بعين الناس من وراء ظهره ، ويموه في وصفها ليسترها فلا يزيد التمويه صورتها إلا تحققاً في فؤاده :

أبكي إلى الشرق لو كانت منازلهم		مما يلي الغرب خوف القيل والقال
أقـول بالخـد خال حين أنعتهـا		خوف الوشاة وما بالخد من خال
يا أغفل الناس عما بي وأعلمهم		بمـا يداوي بـه حزني وبلبـالي
لسنا وإن كنت تجفونا وتقطعنـا		بتـاركيك على حـال من الحال

وإذن فهي ـ كما شاء أن يسميها ـ (فوز) .

هل تراه وقد تكرر ـ كما شهدت ـ كل ماله علاقة بها ، غافل الوجد عن تكرار اسمها الذي يرسمه في كفه يقبله طوراً وطوراً يعاتبه ؟ لا !

قد خفت ألا أراكم آخر الأبـد		وأن أموت بهذا الشوق والكمد
الموت يا فوز خير لي وأروح لي		من أن أعيش حليف الهم والسهد
لما أتاني كتاب منك يا سكني		جعلته شبه التعويذ في عضدي
يا فوز يـا زهرة الـدنيا وزينتهـا		أنضجت قلبي وألبست الهوى كبدي
ما ضر قوماً وطئت اليوم أرضهم		أن لا يروا ضوء شمس آخر الأبد

وإن دارها لتفعل به الأفاعيل لأنها دارها وكفى ، فلا عجب أن يكرر حروفها هذا التكرار ويناجيها تلك المناجاة :

طال الوقوف بباب الدار في علل ... حتى كأني لباب الدار مسمار
إني أطيل وإن لم أرج طلعتها ... وقفي وإني إلى الأبواب نظار
أقول للدار إذ طال الوقوف بها ... بعد الكلال وماء العين مدرار
يا دار هل تفقهين القول عن أحد ... أم ليس ـ إن قال ـ يغني عنه إكثار
يا دار إن غزالا فيك برح بي ... لله درك ما تحوين يا دار ؟
ما زلت أشكو إليها حب ساكنها ... حتى رأيت بناء الدار ينهار!

لقد هجرته فوزه حتى تشخص الهجر حاكماً عاتياً يظلم الهوى المغلوب . فيكرر نداءه بين السخط والضراعة في حرارة تصل إلى قلوبنا من أنفاسه وهو يقول :

يا هجر كف عن الهوى ودع الهوى ... للعاشقين يطيب يا هجر
ماذا تريد من الذين قلوبهم ... مرضى وحشو قلوبهم جمر

وإن جَرَسَ هواه ليتكرر رنينُه فلا يجعله يغفِي ، وكيف يغفى وصورة من يهواه ماثلة حيثما جلس يبثها ما يشكو من ضنى وضياع ؟

ترى المحب لما يلقى يصوِّر مَنْ ... يهوى فيشكو إليه حيثما جلسا
وللهوى جَرَسٌ يُدْعَى المحبُّ به ... فكلما كدْتُ أغفى حَرَّكَ الجرسا

لذلك الجرس المتكرر الدق على قلبه ، أصبح لا يملك مشيئة أمام الحاكم المستبد على قلبه ، فيقرر مشيئة حاكمه بالتكرير ويجعل لها التخيير .

أنا لكِ مملوك فإن شئْتِ عذبي ... وإن شئت مني أي ذا شئت فاصنعي
تريدين إلا مشفقاً ذا نصيحة ؟ ... فدونك حبل الطائع المتطوع

وبعد فهل كان ابن الأحنف بإعطائها تلك المشيئة بعيداً عن الله ؟ ذا هو يدعوه بالربوبية مؤمناً بقدرته ، ويكرر دعاءه إياه راجياً أن يجاب :

فيا رب ألِّفْ بين قلبي وقلبها ... لكيلا تعدي بي أمامي ولا خلفي
ويا رب صبرني على ما أصابني ... فأنت الذي تكفي وأنت الذي تعفي

ويا رب عذبها بما بي من الهوى ولا كالذي عذبت قارون بالخسف

وما ندري كيف بلغ به الأمر حتى كان دعاؤه الثالث هكذا ، وهو الذي يكرر استعطافه وإظهار حاله على هذا الوجه الذي تراه في تلك الأبيات :

أمــا تــرين عــظامي قــد شفهــن نحــول
أمــا تــريــن بــلائي عــليَّ منــه دلــيــل
أمــا تـرين دمــوعي لكــل جفن مسيــل
أنــا الأسيــر الــذليــل أنــا الجـريـح القتيـل
نـشــدتكـم عـللوني إن لم يكن تنـويـل

وأخيراً لا يسعنا إلا أن نقول ما قال ابن الأحنف نفسه :

ألا ذهبَتْ فوزٌ بعقل أبي الفضل وما خلت إنساناً يعيش بلا عقل

وماذا ينال وقد أصبح في العراق وأصبحت في الحجاز ؟ أمّا ألح بتكريره على هذا ليقرر البعد واليأس إذ قال :

أصبح القلب بالعراق وأمسى بالحجاز الهوى فكيف النعيم ؟
أصبحت بالحجاز فوز ، وعبا س أبو الفضل بالعراق مقيم !
خندقت حول قلبه بالصبابا ت فمـا حولـه حمى مكلوم
إن فيمـا بين البقيع وبطحـا ن لـداراً فيها الهـوى مكتوم

إذن فلنتركه للهجران يكرر بكاءه مما كان :

ليس الحبيب على ما كنت تعهده قد غير الدهر ذاك الحب ألوانا
فلن تـزال عليه العين بـاكية ولن يعود إلى ما كان ما كانا

(٩)

ثم لنقف قليلا مع (مي) مدلهة ذي الرمة ، لنرى اسمها ملء قلبه ونور حياته ، ولنرى ربع (مي) يكاد يشاركه الوجد ويهفو عليه قلبه بالحنين ، وهو باك لديه مناج إياه !

وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاه مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه
كأن سحيق المسك ريا ترابه إذا هضبته بالعشي هواضبه

إنه يسلم على أماكنها وقد خلت ، وهو واع أنها لا تجيب : على الرغم من عقله ما يصنع ، فإن ذلك التسليم لغة القلب والعاطفة ، وشتان ما العقل والعاطفة ، وهذه اللغة ينكرها عليه من لم يشاركه لذعة الوجد ، ومن لم يذق نشوة خطاب الأطلال .

هذه أماكن (مي) واسم (مي) نراها كالمصابيح المنتشرة في سماء تلك الرقعة الزاهية ، لها في كل موضع إشعاع جديد :

أمنزلتي مي سلام عليكما هل الأزمن اللائي مضين رواجع
وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ثلاث الأسافي والرسومُ البلاقع ؟
توهمتها يوماً فقلت لصاحبي وليس بها إلا الظباء الخواضع
قف العيسَ ننظرْ نظرةً في ديارها وهل ذاك من داء الصبابة نافع ؟
فقال : أما تَغْشَى لميَّةَ منزلا من الأرض إلا قلت : هل أنت رابع ؟
وقَلَّ إلى أطلال ميٍّ تحيةٌ تُحَيِّ بها أو أن تُرَشَّ المدامع
ألا أيها القلب الذي برحت به منازل مَيٍّ والعراصُ الشواسع
ولا بد من مَيٍّ وقد حيل دونها فما أنت فيما بين هاتين صانع ؟
أمستوجبٌ أجْرَ الصبور فكاظمٌ على الأجر أم مبدي الضمير فجازع ؟

إن التكرار لغة العاطفة الملتهبة باسم الحبيب . وكل اسم له صلة بالحبيب .

(١٠)

فلنر هذه الظاهرة في شعر ابن الدمينة ، صاحب أميمة جالية بصره وهمه :

خليلي زورابي أميمة فاجلُوا بها بصري أو غمرة من فؤاديا
فإن لا تزورا بي أميمةَ تعْلما غداة غد أن لا أخا لكما بيا
ألا يا قَطَاتَيْ سدرة الماء بلغا أميمة عني واحفظا قيلها ليا

ولقد يكرر نداءه عينيه يسألهما أن يربآ به عن البكاء الذي طال حتى ليخاف فقدهما بشدته :

أعينيَّ ما لي لا نسأمت ببلدة من الأرض إلا كان دمعي قراكما ؟
ألا قد أرى والله أن قد قذيتما بمن لا يبالي أن يطول قذاكما
أعينيّ مهلا أجملا الصبر تحظيا فقد خفت من طول البكاء عما كما

وإذ لا يجد مسعداً من الإنس يكرر نداء الجن عل فيهم من يعين .

أخا الجن بلغها السلام فإنني من الإنس مُزْوَرُّ الجناح كتوم
أخا الجن لا تدري إذا لم يدم لنا خليل صفاء الود كيف ندوم
ولا كيف بالهجران والقلب آلف ولا كيف يرضى بالهوان كريم

إنها (ليلى) ابن الدمينة يرعى هجرها كلقائها ، ويجعل من تكرير اسمها في كل حال نغم سعادة ونشوة قلب :

يقولون : ليلى بالمغيب أمينة له وهو راع سرها وأمينُها
فإن تك ليلى استودعتني أمانة فلا وأبي ليلى إذن لا أخونها
أأرضى بليلى الكاشحين وأبتغي كرامة أعدائي بها وأهينها ؟
معاذة وجه الله أن أشمت العدى بليلى وإن لم تجزني ما أدينها

ترى هل تجزيه ليلى وفاء بوفاء ؟

أمزمعة بالبين ليلى ولم تمت كأنك عما قد أظلك غافل
ستعلم إن زالت بهم غربة النوى فزالوا بليلى أن عقلك زائل

وأنك لا تخلو من البث والنوى إذا ما خلت ممن تحب المنازل

إن الحصى وهو الحصى في صلابته ليفلقه ما بابن الدمينة من الوجد ، وإن الريح وهي الريح ليخمد همه صوت هبوبها هل تراه كرر لفظ الحصى مرتين إلا ليؤكد انهيار صلابته متى أصابه وجده ؟ .

فلو أن ما بي بالحصى فلق الحصى وبالريح لم يسمع لهن هبوب

إنه دون حصر يكرر ذكر ليلاه ، فلو كان بعدد ما يكرر يستغفر الله لعاش في الدنيا بلا ذنب . إن « كلما » في هذا المقام واسعة الصدى بلا حد ، يمتد تحت دلالتها تكراره لاسم ليلاه بلا نهاية .

ولـو أنني أستغفـر الله كلمـا ذكـرتك لم تكتب على ذنـوب

ألا يجدر بنا أن نقول بعد تلك النماذج : إن التكرير فيها مثيره الوجد ، وأنه يشيع في النص حرارة العاطفة ، وأنه ينقل هذه القيم من قلوب الأحباء إلى قلوبنا ؛ لنقول لهم في رفق المواسي : أيها المساكين ما أعظم البلوى وأقل المعين ، عافاكم الله من جنون الحب وعافانا باتزان العاطفة ؟

٢ ـ التذكر والحنين :

من أقرب الأغراض المتصلة بالغزل إلى الاتكاء على أسلوب التكرير ، التذكر والحنين ، أعم من تذكر المحبوب والحنين إليه ، وإن يكن محبوباً كل ما يحن إليه القلب من بلد نازح ، أو ماض غارب ، أو شباب مرتحل ، أو ساعة صفو أدرك النفس فيها ضياء الأمل .

كل ذلك مشدود إليه قلب الإنسان ، مهما شغله الحاضر عنه ، أعادت حنينه إليه شرارة، من كلمة عابرة ، أو حمامة طائرة ، أو غصن يهزه النسيم ، أو حلم يعيد عيشه القديم ، فيرسل ذلك الحنين لوناً من الوجد ، يكون فيه المكرر من اللفظ ، هو القاعدة أو الينبوع ، الذي انطلق منه الخيال يسجل الصورة .

١ ـ وموطن الإنسان وحماه عزيز على النفس غال على القلب ، لا يعرف

قدر حبه مثل المبتلي بفراقة ، وقد رأينا الوفاء الجم والحنين اللاهف إلى الحمى والمرابع ، يأخذ في الشعر مكاناً أخلق به أن يأخذه ، ورأينا ترديد الغوالي من الأسماء التي أثارت الحنين وامتلكت زمام العاطفة ، وهي أنات تتكرر أو دموع تتابع ، لا نملك وجداننا أمام استرسالها ، أن يهتز يردد صداها كأوتار معزف حزين ، ولقد يدفعك مثلي إلى العجب أن ترى بعض النقاد يذم تكرير لفظ لو كان هو المصاب ببلوى شاعره لضاعف تكريره ؛ لأن في ذلك الإفضاء به بثا بعد بث ، وتنفساً مديداً يعالج به القلب من ضواغط الأشجان .

قف قليلا مع جميل يشتاق أثلاث القاع في حنين ولهفة ، وكن جميلاً صاحب هذه الأثلاث، أكنت لو عبرت عن هذا الحنين أقل منه ترديداً لندائها الذي ناداها ، كأن الريح تحمل إليها النداء فتسمع ثم تجيب ؟

فيا أثلات القاع من بطن توضح ... حنيني إلى أطلالكن طويل
ويا أثلات القاع قلبي موكل ... بكن وصبري دونكن قليل
ويا أثلات القاع قد مل صحبتي ... مسيري فهل في ظلكن مقيل
فأشرب من ماء الحجيلات شربة ... يداوي بها قبل الممات عليل
أريد انصباباً نحوكم فيصدني ... ويمنعني دين عليَّ ثقيل
أحدث نفسي عنك أن لست راجعاً ... إليك فحزني في الفؤاد دخيل

ثم تأمل ما علق بشعب بوان من حنين هذا الشاعر الوامق :

إذا أشرف المحزون من رأس قلعة ... على شعب بوان أفاق من الكرب
والهاه بطن كالحريرة مسه ... ومطرد يجري من البارد العذب
وطيب ثمار في رياض أريضة ... وأغصان أشجار جناها على قرب
فبالله يا ريح الشمال تحملي ... إلى شعب بوان سلام فتى صب

أننكر إذن على ميسول بنت بحدل أن تنزل في قياس قلبها كل مظاهر الحضارة ، حين تزوجها معاوية وهو خليفة ، فكررت « أحب إليَّ» سبع مرات ، تفضل بها ماضي البادية مشتاقة إليه ، مخلوعة القلب لفراقه ؟

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إليَّ من قصر منيف
وبكر يتبع الأظعان سبقا أحب إليَّ من بغل زفوف
وكلبٌ ينبح الطراق عني أحب إليَّ من قط أليف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب إليَّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب إليَّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب إليَّ من نقر الدفوف
وخرق من بني عمي نحيف أحب إليَّ من علج عنيف
خشونة عيشتي في البدو أشهى إلى نفسي من العيش الطريف
فما أبغي سوى وطني بديلا فحسبي ذاك من وطن شريف

والحمى ، وأهل الحمى ، وهوى الشاعر وهوى ناقته ، وكبد الشاعر وكبدها ، يطالعنا في صوت عروة بن حزام كما رواه المبرد :

فمن يك لم يغرض فإني وناقتي بحجر إلى أهل الحمى غرضان
هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإني وإياها لمختلفان
تحن فتبدي ما بها من صبابة وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني
فيا كبدينا أجملا قد وجدتما بأهل الحمى ما لم يجد كبدان
إذا كبدانا خافتا وشك نية وعاجل بين ظلتا تجبان

أتراه مع تكرير أهل الحمى ، والهوى وما يلاقي الكبدان ـ قد أخفي تجلداً فاختلف لهفة وحنيناً عن الناقة ؟

إن خلع الحنين بالتعقيل على الناقة ، حتى كأنها شريكة النازح المكروب في لذعات وجده ، لدليل انطلاق العاطفة من قلبه إلى كل صاحب في رحلته وليس هذا بغريب ، ولم لا يكون للحيوان حنين إلى ما ألف من الربوع ، وأنت لو جعلت حبله على الغارب فخليته ، لسبقك إلى الدار فرأيته بها راتعاً .

لا مكان لطير أحب إليه من عشه ، ولا جحر لنملة أبهى في عينها من

جحرها ، ولو صنع لها من زبرجدة خضراء ، أو ياقوتة حمراء ، وامتلأ حولها تيناً وسكراً وماء ورد !

هذه أم الحسام المرية البدوية ، وهي في أرق حياة بالمدينة ، ومع أحفل زوج بإكرام عشير ـ تحن أشد الحنين إلى البداوة الأ '   ، باكية عهدها الغارب في ربوع نجد ؟

أقــول لأدنى صــاحبـيَّ أسـره وللعين دمع يحدر الكحل ساكبه
لعمري لَنِهْيٌ باللِّوى نازح القذى نقي النواحي غير طرق مشاربه
أحب إلينـا من صهاريـج مُلِّتَتْ للعب فلم تحسن لدى ملاعبـه
فيـا حبذا نجـد إذا ما تنسّمتْ ضحى أو سَرَتْ جُنْحَ الظلام جنائبه
بـأجـرع ممـراع كـأن ريــاحـه سحاب من الكافور والمسْكُ شائبه
فأشهد مـا أنساه مـا دمت حيةً وما انحاز ليل عن نهار يعـاقبه
ولا زال هذا القلب حِلْفَ صبابةٍ بذكراه حتى يترك الماء شـاربه

وهل ننكر على الصمة القشيري هيامه بالنير : ذلك الهضب الذي رافقه فيه ماضي حياته ، وهو يكرر اسمه رابطاً به قلبه ووجده ؟

خـليـليَّ إنـي واقـف فـمـسـلِّمٌ على النير فارتاحا قليـلا فسلما
فـإني أحب النيـر والبـرق التي بها النير حبا خالط اللحم والدما
فلو زال هضب النير من سكناته ليممتِ من وجد. به حيث يمما
ولو كلَّمَتْ صم الجبال بموطن صـديقـاً لحيـانـا إذن وتكلمـا

أم ننكر عليه ترديده ذكر الحمى وبشامه ، بذلك القلب الخافق كأنه فوق جناح طائر ؟

تعـز بصبر لا وجَـدِّكَ لا تـرى بشام الحمى أخرى الليالي الغوابر
كأن فؤادي من تذكـره الحمى وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

لقد أنكروا في جمود عاطفة ، تكرار أبي السمط اسم (نجد) هذه

المرات كلها في قليل من الأبيات ، وما أراه بمنكر عليه ، لولا بثه الوجد بنجد في مديحه المتوكل :

سقى الله نجداً والسلام على نجد ويا حبذا نجد على النأي والبعد
نظرت إلى نجد وبغدادُ دُونَها لعلّي أرى نجدا وهيهات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتي ولا شيْءَ أحلى من زيارتهم عندي

ولكن مالك بن الريب ما كان يكرر في مدح ولا غزل ، حينما دهمه الهم غريباً عن الغضا ، موحشاً في خراسان ، يقلب طرفه حوله فلا يرى آسياً أو مواسيا !

بعيد غريب الدار ثاو بقفرة يد الدهر معروف بأن لا تدانيا
أقلب طرفي حول رحلي فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا

إنه كابن زريق يوم سجل عينيته ، أدركه اليأس من أن يعود ظافراً ، فإذا تشهى الغضا ، وأن لو لازم الغضا ، فكرر اسمه ست مرات في ثلاثة أبيات ـ فهو آخر عزاء لنفسه ، إنه عيش ساعة في ذكراه إذ فقد العيش في حقيقته !

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا ؟
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشي الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا مزار ولكن الغضا ليس دانيا ،

لله دره وهو يكرر « لله دري » في صدور هذه الأبيات ، إنها معذرة له في تكريره « الغضا » كل هذا العدد ، فالغضا هو مسرح ماضيه ، ومستقر أحبابه وأهله ، والغضا هو المكان الذي سيجد فيه رثاءه ودموع البواكي عليه إذا مات !

فلله دري يوم أترك طائعاً بنيّ بأعلى الرقمتين وماليا
ودر الظباء السانحات عشية يخبرن أني هالك من ورائيا
ودر كبيريّ اللذين كلاهما عليّ شفيق ناصح لو نهانيا
ودر الرجال الشاهدين تفتكي بأمْرِيَ ألا يقصروا من وثاقيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابه ودر لجاجاتي ودر انتهائيا

نعم لقد ترك بالرمل ما يحلو به تكراره ،وما له مع تكراره نشوة ذكرى ، في ساعة يظن أنها الفراق إلى حيث لا يكون التلاق .

وبالرمل منا نسوة لو شهدنني   بكين وَفدِّين الطبيب المداويا
وما كان عهد الرمل عندي وأهله   ذميما . . ولا ودعت بالرمل قاليا
فمنهن أمي ! وابنتاي . ! وخالتي !   وباكية أخرى تهيج البواكيا !

٣ ـ أما تذكر الشباب والحنين إليه ، فما نرى ممن تركهم الشباب عراة من البهجة بالعيش ، إلا حانا إليه باكياً عليه ، يردد ذكره ترديد العاشق البائس من عودة الهوى ، متعزياً برجع الصوت ورنين الصدى . . ولو صاحَب الترديد من قلبه زفرات الحزن وعبرات الفقد لأغلى حبيب في الحياة !

سمع الرشيد منصوراً النمري يذكر عبور الشباب في حسرة ، ويكرر حروفه في حزن :

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع   إلا ذكرت شباباً ليس يرتجع
بان الشباب وفاتتني بشرته   صروف دهر وأيام لها خدع
ما كنت أوفى شبابي كنه عزته   حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع !

فبكى الرشيد وقال : يا نمري ، ما خير دنيا لا يُخْطر فيها ببرد الشباب ؟

إن فقد الشباب ثكل عند فاقده ، وغصة يشجى بها مفارقه ، وقد عبر عنه كذلك النمري !

إن كنت لم تطعمي ثكل الشباب ولم   تشجي بغصته فالعذر لا يقع
أبكي شباباً سلبناه وكان ولا   توفي بقيمته الدنيا ولا تسع
ما واجه الشيب من عين وإن ومقت   إلا لها نبوة عنه ومرتدع

وابن الرومي الشاعر الفياض ، تصبيه الكبرة ، ونفسه نفس شاعر يصبو ، فيذكر الشباب عند كل عزوف عنه من غانية ، وعند كل هوان لعتابه على حسناء ، ثم لدى كل روضة غناء كانت لشبابه مغنى ، وكل جدول ماء كان شريكاً لشبابه في

اطراد الأمل ، بل عند كل صبا كان له عند هبوبها نديم صبوة ، وكل برق يلمع وحمامة تسجع .. أي لا ينهى شبابه وكيف ينسى ، وهو به يستضيء في حلكة تسبق جدران رمسه إلى قدميه ؟ إن الشباب وإن رحل شمس تطل على الشيخ من وراء الغمام :

يقول من قصيدته إلى عبد الله بن عبد الله :

صبا من شاب مفرقه تصاب — وإن طلب الصبا والقلب صاب
أعاذل راضني لك شيب رأسي — ولولا ذاك أعياك اقتضابي
فلومي سامعاً لك أو أفيقي — فقد حان اتئابك واتئابي
وقد أغناك شيبي عن ملامي — كما أغنى العيون عن ارتقابي
غضضت من الجفون فلست أرمي — ولا أرمي بطرف مستراب
وكيف تعرضي للصيد ؟ أني — وقد ريشت قداحي باللغاب
كفى بالشيب من ناه مطاع — على كره ومن داع مجاب
حططت إلى النهى رحلي وكلت — مطية باطلي بعد الهباب
وقلت مسلماً للشيب : أهلا — بهادي المخطئين إلى الصواب

* * *

يذكرني الشبابَ صدى طويل — إلى برد الثنايا والرضاب ؟
وشح الغانيات عليه إلا — عن ابن شبيبة جون الغراب
فإن سقينني صردن شربي — ولم يك عن هوى بل عن خلاب
يذكرني الشباب هوان عتبي — وصد الغانيات لدى عتابي
ولو عتب الشباب ظهير عتبي — رجعن إليّ بالعتبي جوابي
وأصغي المعرضات إلى عتاب — تحط به الوعول من الهضاب !

* * *

يذكرني الشباب سهام حتف — يصبن مقاتلي دون الإهاب !
رمت قلبي بهن فأقصدته — طلوع النبل من خلل النقاب

فـراحت وهي في بال رخي ورحت بلوعـة مثل الشهـاب
وكـل مبـارز بـالشيب قـرنـاً فمسبي ـ لعمرك ـ غير ساب !
ولو شهد الشباب إذن لراحت وإن بها ـ وعيشك ـ ضعف ما بي !



يذكرني الشبـاب جنان عـدن على جنبـات أنهار عـذاب !
تفيء ظلهـا نفحـات ريـح تهـز متـون أغصـان رطـاب
إذا مـاست ذوائبهـا تـداعت بـواكي الطيـر فيها بـانتخاب
يذكرني الشباب رياض حزن تـرنم بينهـا زرق الـذبـاب
إذا شمس الأصائل عارضتها وقد كربت توارى بالحجـاب
وألقت جنـح مغربهـا شعاعـاً مريضاً مثـل ألحاظ الكعـاب
يـذكرني الشبـاب سـراة نهي نميـر المـاء مـطرد الحبـاب
قـرتـه مـزنـة بكـر وأضحى تـرقرقه الصبا مثـل السـراب
على حصباء في أرض هجان كـأن تـرابهـا ذفـر المـلاب
لـه حُبُكٌ إذا اطـردت عليه قرأت بها سطوراً في كتاب
يـذكرني الشبـاب صبـاً بليـل رسيس المس لاغبة الركـاب
أتت من بعد ما انسحبت مليا على زهر الربى كل انسحاب
وقد عبقت بها ريـا الخزامى كريا المسـك ضوع بـانتهاب
يذكرني الشبـاب وميض برق وسجع حمامة ، وحنين ناب !
فيا أسفا ! ويا جزعـا عليه ! ويا حزنا إلى يوم الحساب !
أأفجع بالشبـاب ولا أعزى ؟ لقد غفل المعزي عن مصابي !
تفـرقنـا على كـره جميعـاً ولم يك عن قلبي طول اصطحاب
وكـانت أيكتي ليـد اجتنـاء فعـادت بعده ليـد احتطاب !
أيا برد الشباب لكنت عندي من الحسنات والقسم الرغاب
بليت عَلى الـزمان وكـل برد فبين بلى وبين يد استلاب !
وعـز عليَّ أن تبـلى وأبقـى ولكن الحـوادث لا تحابي!

لبستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو مُلِّكْتُ صونك فاعلمنه لصنتك في الحريز من العياب
ولم ألبسك إلا يوم فخر ويوم زيارة الملك اللباب

أرأيت كم ردد ابن الرومي حروف الشيب والشباب في حرقة وجد ، ولوعة حنين وفقد ؟

أئذا كنت محرر هذا الفصل كنت تقنع من قصيدته تلك بأقل مما قدمته بين يديك ؟

إن التكرير في أدب التذكر والحنين أصدق اتصالا بأعماق الوجدان ، وألصق أصالة ببلاغة العبارة ، ولهذا كان اهتزازنا لروعته !

٣ ـ الاعتذار والتنصل :

يتصل الاعتذار والتنصل بغريزة الخوف ، التي يتشعب منها أنواع لها امتزاج بكثير من عواطف الإنسان وميوله ؛ ولهذا نرى ظاهرة التكرار في مواقف الاعتذار والتنصل ، منبعثة من وجدان المعتذر ، تأكيداً للبراءة من الذنب ، أو للتوبة من موجب المؤاخذة ، أو رد الاتهام على الواشي ، والدفاع عن النفس بالتنصل نشيد حماس تفرضه البراءة ، والإقرار عليها بالجريرة زجل ندم يستدر الصفح ممن يملك التثريب والعقاب .

فيما حدث به الجاحظ : « جلس الحسن بن سهل في مصلى الجماعة لنعيم بن خازم ، فأقبل نعيم حافياً حاسراً وهو يقول : ذنبي أعظم من السماء ! ذنبي أعظم من الهواء ! ذنبي أعظم من الماء .. فقال له الحسن بن سهل : على رسلك ! تقدمت منك طاعة ، وكان آخر أمرك إلى توبة ، وليس للذنب بينهما مكان ، وليس ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو » .

هذا الترديد المتلاحق للذنب وعظم مقداره ، ما دفع نعيماً إليه إلا خوف العقوبة ، والإحساس الصادق بما جنى من المخالفة .

هل تراه كتكرير الحسن بن سهل في الجواب ، وهو هادىء النفس رابط الجأش مستحضر العقل ؟

وأبو نواس يلهج لسانه بدفع قلبه فيجد في التكرير سعة في التأثير فيقول للخليفة :

بـك أستجيـر من الـردى ... متعـوذاً من فـرط بـأسـك
وحـيـاة راسـك لا أعـو ... د لـمثلهـا وحيـاة راسـك
مـن ذا يـكـون أبـا نـوا ... سـك إن قتلت أبا نـواسـك

أكان أبو نواس ما قويت بالأمين صلته يأمن جانب الغضب عليه ؟

أما الحارث بن هلال التميمي ، فقد عذلته امرأته للفرار من الوغى ، فوقف أمامها يكرر النداء في مقام الاعتذار والتنصل من عار الفرار لعلها تعذره :

أعاذل إني لَمْ أُلَمْ في قتالهم ... وقد عض سيفي كبشهم ثم صمما
أعاذل كم من يوم حرب شهدته ... أكر إذا ما فارس القوم أحجما
أعاذل ما وليت حتى تبددت ... رجالي وحتى لم أجد متقدما
وحتى رأيت الورد يدمي لبانه ... وقد كعَّتَ الأبطال فانتعل الدما
أعاذل أفناني السلاح ومن يطل ... مقارعة الأبطال يرجع مكلما

وتعذل علي بن الجهم عاذلته وقد سجنه المتوكل ، فيكرر مادة « الحبس » في التنصل ودفع الملامة مرات ، ويذكر شرفه وبراءته ، ويكرر تذكير الخليفة بالنسب الشريف تعطفا ، كما يكرر نداء أحمد بن أبي دؤاد يستنهض همته ليسعى في خلاصه .

قالت :حبست فقلت ليس بضائري حبسي وأي مهند لا يغمد ؟
أو ما رأيت الليث يألف مثله كبراً وأوباش السباع تردد

* * *

والحبس ما لم تغشه لدنية شنعاء نعم المنزل المتورد
لو لم يكن في الحبس إلا أنه لا يستذلك بالحجاب الأعْبُدُ
بيت يجدد للكريم كرامة ويزار فيه ولا يزور ويحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه خوف العدى ومخاوف لا تنفد
أنتم بنوعم النبي محمد أولى بما شرع النبي محمد
ما كان من حسن فأنتم أهله كرمت مغارسكم وطاب المحتد

* * *

أمن السوية يا أبن عم محمد خصم تقربه وآخر يبعد ؟
يا أحمد بن أبي دؤاد إنما تدعي لكل كريمة يا أحمد
إن الذين سعوا إليك بباطل أعداء نعمتك التي لا تجحد
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا فينا وليس كغائب من يشهد

إنه كاد أن ينقلب عاتباً لائما لشدة إيمانه ببراءته .

وهذا فروة بن مسيك الدارمي ، يبرر ما أصابهم في يوم (رزم)متنصِّلا بما كان لهم من نجاح في الماضي . ويستعمل في ذلك تكرار القياس والتماثل :

فإن نُغْلَبْ فغلابون قِدْما وإن نُهْزَمْ فغيْرُ مُهزِّمينا
وما إن طَبُّنَا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا
فلو خلد الملوك إذاً خلدنا ولو بقي الكرام إذا بقينا
كذاك الدهر دولته سجال تكر صروفه حيناً فحينا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفنى القرون الأولينا

أما قيس بن الخطيم فيكرر ذكر الحرب التي هي مدار اللوم والرد على العاذلين ، كما يكرر دفعه إياها ومحاولة البعد عنها متنصلا أن يكون أتاها غير مضطر دون إباء عوف وإلحاحهم على شنها .

دعوت بني عوف لحقن دمائهم ... فلما أبوا سامحْتُ في حرب حاطب
وكنت أمْرَأً لا أبعث الحرب ظالما ... فلما أبوا أشعلتها كل جانب
أربت لدفع الحرب حتى رأيتها ... على الدفع لا تزداد غير تقارب
فإن لم يكن في غاية الحرب مدفع ... فأهلا بها إذ لم تزل في المراجب

ويقتل توبة بن الـ...رس العبدي خاله ، فتبكي أمه حزينة عاذلة لقتله أخاها ، وقد رأت آثار دمه على سيف ابنها ، فيعتذر ابنها بأنه إنما قتله ثأراً بخليله طارق ، الذي لم يجد من بني عوف مكافئاً لدمه إلا ذلك الخال الذي وقع عليه سوء الطالع .

إنه يكرر اسم طارق ، ويكرر خلته ، تكريراً يؤكد حبه العميق له ، الذي به اختل شعوره لمصرعه حتى فعل ما فعل .

بكت جزعاً أمي رميلة أن رأت ... دماً من أخيها بالمهند باقياً
فقلت لها : لا تجزعي إن طارقاً ... خليليَّ الذي كان الخليل المصافيا
وما كنت لو أعطيت ألفي نجيبة ... وأولادها لغواً وستين راعيا
لأقبلها من طارق دون أن أرى ... دماً من بني حصن على السيف جارياً
وما كان في عوف قتيل علمته ... ليوفيني من طارق غير خالياً

وقديماً أتى النابغة خبر لوم أبي قابوس ، ووعيده الذي ضاق به على النابغة كونه ، عن أن يكون له فيه مهرب يقيه فتك النعمان به ، فكرر ذلك الفعل الذي أزعجه وأطار أمنه ، كرره واقعاً إليه بالنذير ، وكرره واقعاً إلى النعمان بالنميمة والحقد ، متبرئاً من مقالة السوء ، آملاً شفاعة ماضيه في حاضره :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع
أتاني ـ أبيت اللعن ـ أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع
مقالة أن قد قلت : سوف أناله وذلك من تلقاء مثلك رائع
لعمري وما عمري على بهين لقد نطقت بطلا على الأقارع
أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
أتاك بقول لم أكن لأقوله ولو كبلت في ساعدي الجوامع

وقد جاء كعب بن مالك إلى النبي ﷺ يعتذر ، ويتنصل من أقوال الوشاة ، فكرر لفظ (رسول الله) مرات حيث يقول :

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذراً والعفو عند رسول الله مقبول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الأقاويل

لقد عرف كيف ينتخب اللفظ الذي يجب أن يكرر ليدفع عن نفسه بتأكيد مدلوله ريب المرتاب في عقيدته ، فتأكيد اعترافه بأنه رسول الله ينفي التهمة ويزيل الريبة .

ويلحق بالاعتذار والتنصل في الإلحاح بالتكرار مقالة الندم ، كما نرى في قول عبد الرحمن بن أبي بكر ، إذ ندم على تطليق عاتكة بنت زيد :

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير ذنب تطلق
لها خلق سهل ،وحسن ،ومنصب وخلق سَوِيٌّ ما يعاب ، ومنطق

أعـاتك قلبي كـل يـوم وليلة   إليك بما تخفي القلوب معلق
أعاتك ما أنساك ماذر شارق   وما لاح نجم في السماء محلق

٤ ـ المدح :

المدح صدر انفعال المادح بمحاسن الممدوح ، متى كان مدحاً ينبوعه الصدق ، فالتكرير الذي يصحبه هو صوت التعبير عن تأكد مدلول اللفظ المكرر في نفس المادح ، سواء كان الممدوح شخصاً ، أو بلداً ، أو معنى ، أو غير ذلك مما يملك الإعجاب ، ونحن لا نخلي أشعار المتكسبين بالمدح ، من أن يكونوا مدفوعين بصدق العاطفة في أحيان كثيرة ، فإن خلوا عن الإعجاب بمحاسن الممدوح فإنهم ما يخلون عن حب الفلج بمدحهم واكتساب الخلود ، ومن الممادح التي اتكأت على التكرير ، ما نادت الحجاج به ليلى الأخيلية فاتخذت ألواناً من الترديد للألفاظ التي تعد ركائز القوة في مدحه إذ تقول :

أحجاج إن الله أعطاك غـاية   يقصـر عنها من اراد مـداهـا
أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ   ـمنايا بكف الله حيث تـراها
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة   تتبـع أقصى دائها فشفـاهـا
شفاها من الداء العضال الذي بها   غـلام إذا هز القنـاة سقـاهـا
سقاها دمـاء المارقين وعلهـا   إذا جمحت يوماً وخيف أذاها
إذا سمـع الحجاج رزّ كتيبة   أعـدّلها قبـل النـزول قـراهـا
أعـدلهـا مصقـولـة فـارسيـة   بأيدي رجال يحلبون صـراها
أحجاج لا تعط العصاة مناهم   ولا الله يعطي للعصاة منـاها
ولا كـل حـلاف تقلد بيعـة   فأعظم عهـد الله ثم شراهـا

ويمدح أيمن بن خزيم بشر بن مروان ، فيكرر نسبه الذي له في العراقة ما يزيده فضلاً على فضل ، فهو كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ! .

أنظر بنوته لهذا الأصل كم تكررت ؟ إنه إلى منتهى الأجداد كابر يرث كابراً .

يا ابن الذوائب والذرى والأرؤس | والفرع من مضر العَفَرْنَى الأقعس
وابن الأكارم من قريش كلها | وابن الخلائف وابن كل قلمس
من فرع آدم كابراً عن كابر | حتى انتهيت إلى أبيك العنبس

وهكذا يمدح جرير عبد العزيز بن مروان ، فانظر كيف أدار المدح على اسم الذات التي امتلكت إعجابه ، وعلى تكرار التقسيم لأيام مجده ، وتكرار البيان لأنواع فضله :

إذا قلت لي : عبد العزيز كفيتني | زماناً فَشَتْ علاته ومباخله
فيومان من عبد العزيز تفاضلا | ففي أي يوميه تلوم عواذله
فيوم تجير المسلمين جياده | ويوم عطاء ما تغب فواضله
وللترك من عبد العزيز وقيعة | وللروم يوم ما تتم حوامله
فما وجدوا عبد العزيز مغمرا | ولا ذا سقاط عند أمر يحاوله
ولا جافيا عن قائم السيف قبضه | إذا يفشل الرعديد قفت أنامله
يقلص بالفضلين : فضل مفاضة | وفضل نجاد لم تقطع حمائله
فلا هو من الدنيا مضيع نصيبه | ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
فهذا بديع ليس في الناس مثله | وهذا مديح لا يكذب قائله

ولا عجب أن يكرر شاعر علوي ، هو السيد الحميري ، اسم ممدوحه (علي - رضي الله عنه) فلا يترك بيتاً من مدحته إلا جعله له فاتحاً ، وذلك حين نقرأ :

عَلِيٌّ أمير المؤمنين وعزهم | إذا الناس خافوا مهلكات العواقب
عليٌّ هو الحامي المرجى بفعله | لدى كل يوم باسل الشر عاصب

عليٌّ هو المرهوب والذائد الذي | يذود عن الإسلام كل مناصب
عليٌّ هو الغيث الربيع مع الحيا | إذا نزلت بالناس إحدى المصائب
عليٌّ هو المأوى لكل مُطَرَّدٍ | شريد ومنحوب من الشر هارب
عليٌّ هو القاضي الخطيب بقوله | يجيء بما يعيا به كل خاطب
عليٌّ هو البدر المنير ضياؤه | يضيء سناه في ظلام الغياهب
عليٌّ أعز الناس جاراً وحامياً | وأقتلهم للقوم يوم الكتائب
عليٌّ أعم الناس حلماً ونائلا | وأجودهم بالمال حقا لطالب
عليٌّ أكف الناس عن كل محرم | وأتقاهم لله في كل جانب

كما يخاطب مسلم بن الوليد ممدوحه الفضل بن يحيى ، فيتخذ من تكرير لفظ واحد ثلاث مرات ، على وجه الطباق من وجه والوفاق من وجه ـ أعظم وصف مما يوصف به الممدوح :

قطعت في الله أرحام القريب كما | وصلت في الله أرحاماً وأرحاما
يصيب منك من الآمال صاحبها | حلماً ، وعلما ، ومعروفاً ، وإسلاما

أما وجه الطباق فبين القطع والوصل ، وأما وجه الوفاق فبأن كلا منهما « في الله » حيث تكرر في الموقعين من الشطرين . فضلا على تكثير الأرحام بالتكرير ، ثم إلى هذا الشطر الأخير فانظر ، من قول كثير يمدح عمر بن عبد العزيز :

ولو يستطيع المسلمون لقسّموا | لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب | مغذ مطيف بالمقام وزمزم
فأربح بها من صفقة لمبايع | وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

وبصفة (الملك) يتشبث أبو نواس ، يكررها في مدحة الأمين ، ليبني على هذا المكرر من صفات الممادح ما يرى أنه كفاء ممدوحه :

إن الذي يرضي الإله بهديه ملك تردى الملك وهو غلام
ملك إذا اعتسر الأمور مضى بها رأي يفل السيف وهو حسام
ملك إذا علقت يداك بحبله لا يعتريك البؤس والإعدام

وقَدِيماً مدح زهير هرماً ، فجعل من تكرار اسمه عماداً لمدحه :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا
من يلق يوماً على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقاً

تماماً كما اتخذ الشماخ تكرار اسم عرابة الأوسي في قوله :

رأيت عرابة الأوسيّ يسمو إلى العلياء منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وجمال التكرير وقوة اتصاله بالمدح نراه جليا في جمال المقابلة من قول أبي العتاهية :

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسبا ورمالا
فإذا وردن بنا وردن خفائفا وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

كما يكرر الكميت عطاء مخلد بن يزيد تكريراً على وجه التصريح ، ثم يرى العجز عن الحصر بالعد فيجمل ، ويسجل لممدوحه في كل عطاء تبسما وانشراحا فعل الكريم بالسجية .

فأعطى ، ثم أعطى ، ثم عدنا فأعطى ، ثم عدت له فعادا
مراراً ما أعود إليه إلا تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

وطوق بن مالك يفد عليه أعرابي مكروب ليمدحه ، فإذا اسم طوق يتردد بقدر ما طوّق الأعرابي من جميل المكارم .

يا طوق إن الزمان حاربني وكنت في إخوة وأخوال

فقلت : من لي وللزمان ومن يصدق ظني به وآمالي
فقيل . طوق بن مالك ملك النا س ومأوى الطريد والجالي
طوق إذا عاذ واستعاذ به الـ ـملهوف أضحى بموضع الوالي
فجئت يا طوق عائذاً بك من شـ ـرّ الزمان وسوء أعمالي

أما عبد الله بن جعفر فيعطي أعرابياً مدحه راحلته وسيفه ، وما كان لديه غيرهما ! وماذا يصنع أقل من ذلك واسمه يتردد في شعر سيبقى على الزمان كما نسجله اليوم .

أبو جعفر من أهل بيت نبوة صلاتهم للمسلمين طهور
أبا جعفر إن الحجيج ترحلوا وليس لرحلي فاعلمن بعير
أبا جعفر ضن الأمير بماله وأنت على ما في يديك أمير
وأنت امرؤ من هاشم في صميمها إليك يصير المجد حيث تصير

إنها سُنّة في المدح ذلك التكرير ، تحقق مشتهى النفس من الممدوح والمادح ، لهذا نرى أبا الأسود الدينوري يقول في مدح الفيض :

أرادت لتثني الفيض عن عادة الندى ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر
كأن وفود الفيض يوم تحملوا إلى الفيض لاقوا عنده ليلة القدر
مواقع جود الفيض في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر

٥ ـ الفخر :

يثير الفخر نازع : كالإعجاب بالنفس ، أو الشعور بالنقص ، أو إثارة الغامزين أو تحدي المعارضين . .

والتكرير ظاهرة يغلب وجودها مع الفخر كما غلبت مع غيره من الأغراض الخطابية ، فيتخذ الفاخر شخصا ، أو وصفا ، أو حادثا يراه بالتكرار أجدر بتأكيد الغرض ، فيجعله محوراً يدير عليه ما شاء من إملاء عاطفته .

وذات المفتخر هي أولى الذوات بأن تكون ذلك المحور ، كالذي نراه في

قصيدة عمرو بن كلثوم من تكرير ضمير المتكلم ، موصوفا بمعالي الصفات إلى أن بلغ غاية ما يشبع الوجدان ويستنفذ الثورة :

أبـا هـنـد فـلا تعجـل علينـا | وأنـظرنـا نـخبـرك الـيقـيـنـا
بـأنـا نـورد الـرايـات بيضـاً | ونصـدرهن حمـراً قـد روينـا
وأيـام لـنـا غـر طـوال | عصينا الملك فيهـا أن نـدينـا
وسيـد معشـر قـد تـوجوه | بتـاج الملك يحمي المحجرينا
تـركنـا الخيـل عـاكفـة عليه | مـقلدة أعـنـتـهـا صـفـونـا
وأنـزلنـا البيـوت بـذي طلوع | إلى الشامات تنفي الموعدينا
وقـد هـرت كـلاب الحي منـا | وشـذبنـا قتـادة مـن يلينـا
متى نـنقـل الـى قـوم رحـانـا | يكـونـوا في اللقـاء لنا طحينـا

إلى أن يقول :

ونحن غداة أوقـد في خزازي | رفـدنـا فـوق رفـد الـرافـدينـا
ونحن الحـابسـون بـذي أراطي | تسف الجلة الخـور الـدرينـا
ونحن الحـاكمـون إذا أطعنـا | ونحن العـازمـون إذا عصينـا
ونحن التـاركـون لما سخطنـا | ونحن الآخـذون لمـا رضينـا
وكـنـا الأيمـنيـن إذا التـقينـا | وكـان الأيسـرين بـنـو أبيـنـا

إلى أن يقول :

وقـد علم القبـائـل من معـد | إذا قـبب بـأبـطحـهـا بنينـا
بـأنـا المطعمـون إذا قـدرنـا | وأنـا المهلكـون إذا ابتلينـا
وأنـا المـانعـون لمـا أردنـا | وأنـا النـازلـون بحيث شينـا
وأنـا المـانعـون لمـا يلينـا | إذا مـا البيض زايلت الجفـونا
وأنـا التـاركـون إذا سخطنـا | وأنـا الآخـذون إذا رضـيـنـا
وأنـا العـاصمـون إذا أطعنـا | وأنـا العـارمـون إذا عصينـا
ونشـرب إن وردنا المـاء صفوا | ويشـرب غيـرنـا كـدراً وطينـا

إن الدق بهذه الضمائر المتوالية بصيغة الجمع على أذن المخاطب ليكاد ينسيه ذاته . . إن كل ضمير منها يقذف ما أسند إليه في قلب عمرو بن هند وابلا من فزع ورعب ، فهو فخر غير مجرد من سهام التهديد .

وتكرير الانتقاص والإنكار والتهكم في هذه المعمعة يزيد تكرار الفخر عمقا ، فالفخر تثبيت لذات المفتخر ، والانتقاص والإنكار هدم لذات المخاطب حتى تتلاشى أمام صاحبه .

انظر إلى هذه الجمل الاستفهامية المتكررة لتحقيق هذا الغرض :

بـأي مشيئـة عمـرو بن هنـد نكـون لقيلكم فيها قـطينا ؟
بـأي مشيئـة عمـرو بن هنـد تـرى أنـا نكـون الأرذلينـا ؟
بـأي مشيئـة عمـرو بن هنـد تـطيع بنـا الـوشـاة وتـزدرينا ؟
تـهـددنـا وأوعـدنـا رويـدا متى كنـا لأمـك مقتـوينـا ؟

لقد بلغت قمة الثروة الوجدانية والإثارة العاطفية . وقد مهد لها الشاعر تمهيداً ساقته طبيعة الاتساق الشعوري ، والتكامل في التداعي ، بتكرار حرف التنبيه كجرس يدق للهجوم مرتين :

ألا لا يـعـلـم الأقـوام أنـا تضعضعـنـا وأنـا قـد ونيـنـا
ألا لا يـجهـلن أحـد عـلينـا فنجهـل فوق جهـل الجـاهلينـا

إنه تعميم الترهيب والتحذير قبل تخصيص الخطاب بعمرو بن هند ، لينبهه مرة باللزوم وأخرى بالمواجهة ، وما أجمل أن يجعل مجازاة الجاهلين عليهم جهلا ، إنه لا يكرر هذه المادة لتحصيل المجانسة اللفظية والمشاكلة المحضة ، فليس ذلك مقتضى انفعاله العارم ، وإنما يريد التفزيع والترهيب باستيفاء الصاع صاعين إن لم يزد ، فلا يكتفي بالجزاء على المساواة .

هكذا نرى ضمير المتكلم يتكرر في الفخر لتأكيد الذات والإعلان عنها بما توصف به من مفاخر في قول عنترة :

إن تغدفي دوني القناع فإنني طب بأخذ الفارس المستلئم
أثني عليّ بما علمت فإنني سمح مخالطتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم

وعلى هذا الغرار يأتي فخره في معلقته ، وفخر الفاخرين في حديثهم .

أما محمد بن حازم فيفتخر شاعراً ، وفخر الشاعر إنما يكون بأشعاره ، فيجعل التركيز والتكرير لمناط الفخر من قصاره البالغات ما لا تبلغ طوال القصائد :

أبي لي أن أطيل الشعر قصدي إلى المعنى وعلمي بالصواب
فأبعثهن أربعة وستا مثقفة بألفاظ عذاب
وهن إذا وسمت بهن قوما كأطواق الحمائم في الرقاب
وهن إن أقمن مسافرات تهاداها الرواة مع الركاب

وصدق ابن حازم ، فهن قد سافرن إلينا لنجعل منهن مثالا لتكرار الفخر هاهنا .

وأما أبو فراس فلا يفوته الفخر وهو في منفاه ، فيردد افتداءه مقرونا بافتداء الفارس الحامي وافتداء شرف العلي ومن يذود عن قومه بالبيان والسنان :

فإن تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتى غير مردود اللسان ولا اليد
وإن تفتدوني تفتدوا شرف العلى وأسرع عواد إليها معود
يدافع عن أحسابكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

ويفتخر الأخطل فيصب فخره وتيهه على ممدوحيه بندائهم نداء التشهير بهم ، فيكرر النداء قبل الخبر في البيتين كأنه يقول : إياكم أنتم لا غيركم أعني غير موارب :

أبني أمية إن أخذت كثيركم دون الأنام فما أخذتم أكثر
أبني أمية لي مدائح فيكم تُنسَوْنَ إن طال الزمان وتذكر

لقد فخر عليهم حتى هجاهم بزيادة فضله على فضلهم ، وجعل نفسه فريداً بكثير عطائهم لاستحقاقه دون سواه ، على ما قلدهم من عقود مدح تذكر إذا نسوا ، وإن تقديمه إياهم مرتين في صدري البيتين لتَأكيدٌ لهذا الذكر الباقي بعده وبعدهم .

ونرى ذلك الأعرابي الأبي يفخر بالكرم على ما هو فيه من الضيق ، فهو يقسم طعامه بين بطنه وبطن طارق ليل غرثان ، فيجعل المفارقة في تكرار الطباق تقريراً لمكرمته .

وإني لأطوي البطن من دون ملئة ... لمستنبح في آخر الليل صائح
وإن امتلاء البطن في حسب الفتى ... قليل غناء وهو في الجسم صالح

إنه زهو فيه لطف التعريض والنصح .

أما عمرو بن معد يكرب فإنه يتخذ متكأً لفخره من تكرار نداء عاذلته :

أعاذل إنما أفنى شبابي ... ركوبي في الصريخ الى المنادي
أعاذل شكتي بدني ورمحي ... وكل مقلص سلسل القياد

وتكرير القدر وهي وسيلة إكرام الضيف ، نراه متكأً زياد الأعجم في فخره حين يقول على سبيل المفاكهة :

بوأت قدري موضعاً فجعلتها ... برابية ما بين ميث وأجرع
جعلت لها هضب الرجام وطخفة ... وغولا أثافِي هضْبها لم تنزع
وقدر كجوف الليل يبعد قعرها ... ترى الفيل فيها طافياً لم يقطع
يعجل للأضياف وادي سديفها ... ومن يأتها من سائر الناس يشبع

وبتكرير الفتوة المقرونة بالشجاعة والجود والنجدة ، يخبر عن نفسه مزهوا مسافر بن ترهية العجلي فيقول :

فتى يكره القرن الكمي لقاءه ... ويهوى ذراه الضيف في السنة المحل
فتى يأمنْ الجيران خذلانه لهم ... إذا طرقت إحدى الأوابد بالأزل

هكذا رأينا التكرير ظاهرة أسلوبية تشيع في الفخر لتأكيد الذات أو ما يتصل بها من الصفات ، فلنثره على هذا النمط في غرض آخر مهم عندهم وهو الهجاء .

٦ ـ الهجاء :

لا يهجو الهاجي دون انفعال بشعور البغض ، ولا يتهكم إلا مثاراً بشعور الاستخفاف ، لذلك نرى ما يجيء من التكرار في الهجاء هادفا إلى محل الزراية والعيب ، ألصق بالنفس مما يجيء من التكرار في المدح ؛ لأن المدح قد يصدر عن افتعال التأثر بالممدوح رجاء الثواب ، وكما يجسم التكرار النقاط المطلوب إبرازها في كل الأغراض ، نجده كذلك في الهجاء على شكل أظهر ، كالذي نراه في قول حماد عجرد يهجو بشاراً ، فإنه : أولاً : أبدل المهجو من القرد بدلاً مساوياً ، أو عطفه عليه عطف البيان ، وأخذ

ثانياً : يكرر هذا اللفظ تكريراً ينسينا أنه يريد إنساناً اسمه بشار الشاعر الكبير ، ثم وصفه بالخبث في يومه وأمسه وغده فكرر الصفة ، وقد أخذ بعد ذلك يفضل عليه الخنزير في كل صفة مشتركة بينهما على وجه التكرير للموازنة والترجيح ، حتى أشبع رغبته واستنفد طاقته :

قُلْ لشقي الجد في رمسه	ومن يفر الناس من رجسه
للقرد بشار بن برد ولا	تحفل برغم القرد أو تعسه
للقرد بالليث اغترار به	فما الذي أدناك من مسه
يا ابن استها فاصبر على ضغمه	بنابه يا قرد أو ضرسه
نهاره أخبث من ليله	ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيه	حتى يدلي القرد في رمسه
ما خلق الله شبيها به	من جنه طرا ومن إنسه
والله ما الخنزير في نتنه	من ربعه بالعشر أو خمسه
بل ريحه أطيب من ريحه	ومسه ألين من مسه

ووجهه أحسن من وجهه ونفسه أنبل من نفسه
وعوده أكرم من عوده وجنسه أكرم من جنسه

ثم نتجه إلى ابن الرومي ، فنجده يهجو متكئاً إلى ألوان من تكرير القياس ، والمقابلة ، والمفارقة ، حتى يترك مهجوه وقد فارق كل فضيلة حسية ومعنوية :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
والكلب واف وفيك غدر ، ففيك عن قدره سفول
وقد يحامي عن المواشي وما تحامي ولا تصول
وأنت من أهل بيت سوء قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات لكن أقفاءهم طبول
مستفعلن فاعلن فعول مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

مداورة عجيبة تقوم على التكرير من ابن الرومي صاحب كل عجيبة .

وهذه قبيلة تيم يكررها الهاجي في بيتين اثنين ثلاث مرات ، تقذف بها بعيداً عن مكرمة يشعر بها الحي الكريم :

ويقضي الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود
فإنك لو رأيت عبيد تيم وتيماً قلت : أيهم العبيد ؟

مثل ذلك تشهير الآخر بقبيلة سعد بن عمرو ، حين يدير الهجاء على ذلك الاسم ، يتكىء بذهن السامعين عليه لئلا ينسوا أنه المراد بالنقيصة :

وكاثر بسعد إن سعداً كثيرة ولا تبغ من سعد وفاء ولا نصراً
ولا تدع سعداً للقراع وخلها إذا أمنت من روعها البلد القفرا
يروعك من سعد بن عمرو وجسومها وتزهد فيها حين تقتلها خبرا

إن تكرير الاسم تشهير بمدلوله ، واستئناف لتقديمه مع كل مقبحه ، إن

تكرار تكراره خمس مرات على هذا الوجه لا ينقص عن خمس رصاصات في القلب:

كذلك صنع الفرزدق في بني كليب:

ولو ترمي بلؤم بني كليب نجوم الليل ما وضحت لساري
ولو لبس النهار بني كليب لدنس لؤمهم وضح النهار
وما يغدو عزيز بني كليب ليطلب حاجة إلا بجار

هكذا مع هذا الاتساق والتوازن في مكان المكرر من الأبيات أخفى الفرزدق بلؤم بني كليب نجوم الليل ووضح النهار، وجعل عزيزهم فضلا عن سواه أحط من أن يقضي حاجة إلا بشفيع.

أما الحطيئة فلا ينسى أن يهجو أباه الشيخ فيكرر جملة الذم مرتين ليستوعبه بالهجرو في مختلف ظروفه.

فبئس الشيخ أنت لدي تميم وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

كما لا ينسى أن يكرر هجاء نفسه بقبح وجهه فيقول:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما بسوء فما أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجها قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

وهجاء الحطيئة أباه يذكرنا بهجاء ذلك الأعرابي أباه الذي يشهر بتكرار أبوته على وجه الذم والتقبيح قائلا:

إذا كانت الآباء مثل أب لنا فلا أبقت الدنيا على ظهرها أبا
إذا شاب رأس المرء أقصر وارعوى وإن أبانا حين شاب تشببا

كما يذكرنا هجاء الحطيئة نفسه هجاء حميد الأرقط نفسه بشدة البخل والاعتداء على الضيف:

إذا ضافني ضيف سلبت ثيابه وإن كان ذا طرف أقام على الخسف
أحذره ألا يعود لمثلها فإن عاد عدنا في الجهالة والعنف

والتهكم والازدراء من أنكى ما يرضخ به الهاجي رأس المهجو ، فانظر كيف كان لتكرير زياد الأعجم وقعه في هذه الضربات :

فمن أنتم ؟ إنـــا نسينـــا مَنَ أنتم   وريحكم من أي ريح الأعاصـر ؟
أأنتم أولى جئتم مع البقل والدبي   فطار وهذا شخصكم غير طائـر ؟
فلم تعـرفـوا إلا بمن كـان قبلكم   ولم تـدركـوا إلا مـدق الحـوافـــر

إنه أسلوب غريب في تتابع الجمل الاستفهامية المجازية ، التي تحمل كل منها تهكماً جديداً فادح الثقل ، وهكذا يكون التهكم والازدراء .

وإن يكن من الشعراء من هجا أباه أو نفسه ، ألا نتوقع أن يهجو إنسان قبيلته ؟

هذا السمهري بن جحدر يكرر اسم قبيلته مشهراً بها وقد كان سجيناً فلم يزره زائر :

ألا ليتني من غيـر عكل قبيلتي   ولم أدر ما شبان عكـل وشيبها
قبيلة لا يقـرع البـاب وفـــدهـا   لخير ولا يأتي السـداد خطيبهـا
فإن تك عكل سرها ما أصابني   فقد كنت مصبوباً على من يريبها

ولا أقسى ولا أوجع من تكرار مساور بن مالك القيني ، الذي يؤكد نسب المهجو لأبيه ليدفع الريب ، ثم يكر عليه ليجعل تأكيد النسب ألذع من نفيه بما رتب عليه من حطة وخزي :

أبـوك أبـوك أربــد غيـر شــك   أحلك بـالمخـازي حيث حـلا
فــلا أنفيـك كي تــزداد لؤمـا   لألأم مــن أبـيــك ولا أذلا

وإذا هجا إنسان أباه ونفسه وقبيلته ، ألا يهون عليه هجاء زوج تسيء عشرته أو يسيء عشرتها ؟

هكذا نرى هاشم بن خروعة يتكىء بالتكرار على مكان الألم في هجاء امرأته :

وإني متى عاتبتها كـان عذرهـا   وإعتابها : إن كنت غضبان فازدد
هي الغول والشيطان لا غول غيرها   ومن يصحب الشيطان والغول يكمد
تعـوذ منها الجن حين يـرونهـا   ويـطرق منها كـل أفعى وأسود
فـإني لشاكيهـا إلى كـل مسلم   وداع عليها الله في كل مسجد

أما هذه اللذعة في تكرار وجه عمرو وقفاء مقترنين بالسخرية الممهورة بلباقة التصوير ، فهي جديرة بأن تكون من ابن الرومي :

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه   يـذكـرنـا قبح الخيـانـة والغـدر
فتى وجهه كالهجر لا وصل بعده   وأما قفاه* فهـو وصل بـلا هجر

إن الشطر الأخير لتظليل أشنع من السفور ، لأخبث ما يهجي به من الصفات !

ولعلك واجد في تكرير الفرزدق اسم قبيلة جرير ، ووراثتها ، ولؤمها ما لا يعوزه البيان حين تقرأ :

أنـا ابن العـاصمين بني تميم   إذا مـا أعـظم الحـدثـان نـابـا
أتـطلب يـا حمـار بني كليب   بعـانتـك اللهـاميم الـرغـابـا

* * *

ولم تـرث الفـوارس من نميـر   ولا كعبـاً بـلغت ولا كـلابـا
ولكن قـد ورثـت بنـي كليـب   حـظائرهـا الخبيثة والـزرابا
وتحسب من مـلائمهـا كـليب   عليهـا النـاس كلهم غضـابـا
فـأغـلق من وراء بـني كـليب   عـطيةُ من مخـازي اللؤم بـابـا
بثـدي اللؤم أرضـع للمخـازي   وأورثـك المـلائم حين شـابـا

لكن ما أخف هذه الملحة من أبي العتاهية ، في لذع صاحبه بالبخل ، إنه يكرر رقيته رجاء أن يشفيه الله بها من بخله :

أرْقيك أرقيكَ باسم الله أرقيكا   من بُخْل نفسك علَّ الله يشفيكا
ما سلـم نفسك إلا مَنْ يتاركها   ولا عـدوُّك إلا مَـنْ يُـرَجِّـيكـا

ثم ما ظنك بجعل اللؤم المكرر أكرم من المهجوّ وأصله وفرعه ؟

لقد أصابوا منه شيئا حتى أمَّنهم لؤمُ الأحساب أن يقاد منهم لدنو شرفهم .

اللؤمُ اكـرم من وَبْـر ووالـده ... واللؤمُ أكرم من وَبْر وما ولدا
قـومٌ إذا ما جنى جـانيهمُ أمِنُوا ... من لؤم أحسابهم أن يُقَتّلوا قودا

ولنختم هذه الجولة من التكرار في الهجاء بقول فضالة بن شريك في عاصم بن عمر :

ألا أيها الباغي القِرى لسْتَ واجداً ... قِرَاكَ إذا ما بتّ في دار عاصم
إذا جئتـه تبغي القرى بـات نائمـاً ... بـطينـا وأمسى ضيفُـه غيْـر نـائِم
فدَعْ عاصماً ! أفٍّ لأفعال عاصم ... إذا حُصِّل الأقوامُ أهل المكارم
فتى من قريش لا يجود بنـائل ... ويحسب أن البخل ضَرْبةُ لازم
ولولا يَدُ الفاروق قلّدْتُ عاصماً ... مطوقةً يُحدَى بها في المـواسم

هكذا يثير التكرارَ في مقام الهجاء حبُّ الانتقام ، ويكون أثره في نفوس السامعين حطةَ المهجو ، وفي نفس المهجوِّ ذاته لذعةَ الغيظ والأسى ، وكم بالغ بالتخييل ما لا يُبْلَغُ برشق السهام ووقع الحسام .

٧ ـ الرثاء :

قال الأصمعي : قلت للأعرابي : ما بال المراثي أشرف أشعاركم ؟

قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة !

وجواب الأعرابي مبين عن مثير الرثاء ، وهو احتراق القلب بالحزن لحبيب رحل ولن يعود ، مع استحكام اليأس وانعدام الأمل ، ولا أقسى على القلب من فراق الأحباب فراقا إلى الأبد !

وإذا شاع التكرير في غرض خطابي لتقرير المعاني وتوكيد الصفات ، ولاستنفاد طاقة الانفعال في متكآت الاستثارة ـ فإن الرثاء بالتكرير أجدر ؛ لأن شدة

الوجد فيه أوفر ، ولهذا قل أن نقرأ رثاء لا تظهر فيه خصيصة التكرار ، ويشير إلى ذلك قول البحتري في وصيف التركي :

إذا جــدّ نــاعيــه تــوهمتُ أنــه   يكــرر من أخبــاره قــول كــاذبِ

أنشد الرياشي لرجل من غطفان (يقال له سالم) في رثاء رسول الله ﷺ ، وقد كان له صحبة .

أفــاطــم بكّــي ولا تســأمي   لصبحـك مـا طلع الكـوكبُ
فقد هُدّت الأرض لمـا ثوى   وأي الـبـريـة لا ينـكـب
فمــالي بعـدك حتى الممــات   إلا جَـوًّي داخـل مُنْصِبُ
جوّي حل بين الحشا والشغاف   فـخيَّم فيـه فمـا يـذهب
فيا عين ويحـك لا تسـأمي !   وما بال دمعـك لا يسكب ؟
وقد بان منـك الذي تعلمين   وضاقت بك الأرض والمذهب
ومن ذا ـ لك الويل ـ بعد الرسول   يُبَكّي من النـاس أو يندب؟
فـإن تبكه تبْـك خيـر الأنـام   كثيـر الفـواضــل لا يجـدب
وإن تبكه تبك سهل الجناب   محض الضــرائب لا يؤشب
وإن تبكـه تبـك نـور البـلاد   ضخم الـدسيعـة لا يحسب
وإن تبكـه تبـك خيـر الأنـام   ســريعــا ســوابله مـخصـب
وإن تبكـه تبك واري الـزناد   صـدوق المقـالـة لا يكـذب
وتبكي الـرسـول وحقت لــه   شـهــود المــدينــة والغـيب
وتبكي له الصم صم الجبال   وشــرق المـدينـة والمغـزب
وتبكـيــه شعـثـاء مضــرورة   إذا حجب الناس لا تحجب
ويبكـيــه شيــخ أبــو ولــدة   يــطيـف بعـقـوتـه أشـيـب
ويبكيـه أهل النهى والحجى   من النـاس والطارق الأخيب
ويبكيه ضيف جفاه الصـديق   وذو النسب الـداخل الأقـرب
ويبكيه شعث خماص البطون   أضرَّ بهم زمــن أنــكــب

والرثاء يتخذ من التكرير ألوانا ، فقد يكون لاسم المرثيِّ الذي هو مثار الحزن ، وقد يكون لأوصافه ، كما يكون لاسم الموت ، الذي حال بين الراثي والمرثى ، بقوة لا حيلة في ردها لمحتال « فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين » كما يكون التكرار للبكاء والنحيب ، يقرر الفجيعة في الذاهب ، ويرضى حق الوفاء من المقيم !

هذا متمم بن نويرة يرثي مالكا أخاه ، فيعلن باسمه المكرر دفقات أحزانه ، وكأنه كلما أعاد حروف اسمه مرة ، مرة ، أعاد مالكا إلى دنياه ، ليملأ عينه منه ويشبع وجدانه !

سقى الله أرضا حلها قبر مالك ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا
لعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
وكنا كندمانَيْ جذيمة حقبةً من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
فما وَجْدُ أظآر ثلاث روائم رأين مجرًّا من حوار ومصرعا
ولا شارف جشاء ريعت فرجعت حنينا فأبكى شجوها البرك أجمعا
بأوجد مني يوم فارقت مالكا ونادى به الموت الحبيبَ فأسمعا
فإن يك حزنٌ أو تتابعُ عبرة أذابت عبيطا من دم الجوف منقعا
تجرعتها في مالك واحتسيتها لأعظمُ منها ما احتسى وتجرعا

إن مأساته فقْدُ مالك ! فكيف لا يملك اسمه لسانه كما ملك عليه الحزن قلبه ؟

وكم كررت الخنساء ذكر صخر وذكْر البكاء في مراثيها التي منها :

كأن عيني لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت ودونه من جديد الترب أستار
تبكي خناس فما تنفك ما عمرت لها عليه رنين وهي مقتار

تبكي خناس على صخر وحق لها إذْ رابها الدهر إن الدهر ضرار
يا صخرٍ ورّاد ماء قدْ تناذره أهل الموارد ما في ورده عار
وإن صخراً لكافبنا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا وإن صخراً إذا جاعوا لعقار
أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ثم تكرره وتكرره إذ تقول :

يؤرقني التذكر حين أمسي فيردع عني مع الأحزان تُكْسي
على صخر وأي فتى كصخر ليوم كريهة وطعان خلْسٍ ؟
ألا يا صخر لا أنساك حتى أفارق مهجتي ويشق رمسي
يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره بكل مغيب شمس
فلولا كثرة الباكين حولي على أخواتهم لقتلت نفسي
فقد ودعت يوم فراق صخر أبي حسان لذاتي وأنسي
فيا لهفي عليه ولهف أمي أيصبح في الضريح وفيه يمسي ؟

وهكذا تدرك قيمة التكرار في أبيات الحسن بن مطير يرثي معن بن زائدة :

ألما على معن وقولا لقبره سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعاً
بلى قد وسْعتَ الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وهذا النعي لفتى الجود محمد بن معن يكرره أشجع السلمي فيقول :

أنعي فتى الجود إلى الجود ما مثل من أنعي بموجود
أنعي فتى مص الثرى بعده بقية الماء من العود
وانثلم المجد به ثلمة جانبها ليس بمسدود

اليـوم تخشى عثـرات النـدى وصـولـة البخـل على الجـود

ويموت توبة الحميري فتبكيه ليلى الأخيلية بكاء الواله الواجف القلب ، فتجعل من اسمه المكرر على لسانها شفاءً من صولة الوجد وحرارة الأسى !

لقد بدأت تكرر البكاء مع اسم توبة ، فما كادت تترك خلفها أبياتـاً حتى اندفعت تذكره في توال يتفجر به الحزن لمن كان لهم في الحياة ردْءا !

أعيني ألا أبكي توبةَ بن الحميِّر بـدمع كسـح الجدول المتفجـر
لتبـك عليه من خفـاجـة نسـوةٌ بمـاء شئـون العبـرة المتحـدر
سمعن بِهَيْجا أرهقت فذكرنـه ولا يبعث الأحزانَ مثل التـذكر
كأن فتى الفتيان تـوبةَ لم ينـخ بنجـد ولم يهبط مـع المتغـور
فيا توب للمولى! ويا توب للندى! ويـا تـوب للمستنبـح المتنـور !

وهكذا ترثيه ثم ترثيه كما عاشت الخنساء بعد صخر !

نعم الفتى يا توب كنت ! ولم تكن لتسبق يـومـاً كنت منه تـوائـل
ونعم الفتى يا توب كنت إذا التقى صدور العوالي واستشال الأسافل
ونعم الفتى يـا توب كنت لخـائف أتـاك لكي يحمي ونعم المنـازل
ونعم الفتى يا توب جاراً وصاحبـاً ونعم الفتى يـا توب حين تفـاضل
أبي لـك ذم الناس يـا تـوب إنمـا لقيت حمام الموت والموت عاجل
ولا يبعـدنك الله يـا توب إنمـا كـذاك المنايا عاجلات وآجل
ولا يبعـدنك الله يـا توب والتقيت عليك الغوادي المدجنات الهواطل

وعتي بن مالك يرثي ابن أوس صاحبه ، وكان رفيق ظعنه وإقامته ، فلا ينقطع الحزن عن قلبه انقطاعه عن المجاملين له فيه !

إذا الناس عزوني . تذكرت هل إلى لقاء ابن أوس في الحياة سبيل ؟
يعـزي المعزي سـاعـة ثم ينكفي وفي النفس حـاجـات لهن غليـل
كأن لـم يسايرني ابن أوس ولم نرع قـلائص أطـلاحـاً لهن ذمـيـل
ولم نلق رحلينـا معـا بتـنـوفـة ولم نـرم جوز الليـل حين نميـل

ويظهر في رثاء أبي ذؤيب تركيزه بالتكرير على (المنية) وفعل المنية (أودى) وما يرادفه مسنداً إلى بنيه ، لأن المنية وفعلها هي علة ما أصابه من الضنى والأسى والشحوب :

قالت أمية : ما لجسمك شاحباً   منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا   إلا أقضى عليك ذاك المضجع
فأجبتها : أما لجسمي إنه   أودى بني من البلاد فودعوا
أودى بني وأعقبوني حسرة   عند الرقاد وعبرة ما تقلع
سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم   فتخرموا وكل جنب مصرع
فلبثت بعدهم بعيش ناصب   وإخال أني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم   فإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمه لا تنفع

يفارق ابراهيم بن المهدي ولده أحمد فراق اليأس والأسى ، فيصرخ قلبه الذي ترنح فيه الحزن صرخة المفجوع بحبيبه ،الذي كان ثم راح كأن لم يكن ، ويتخذ الأب من تكرار هذا التشبيه بثالما أضناه من ممض الألم :

نأى آخر الأيام عنك حبيب   فللعين سح دائم وغروب !

كأن لم يكن كالدر يلمع نوره   بأصدافه لما تشنه ثقوب !
كأن لم يكن كالغصن في ميعة الضحى   سقاه الندى فاهتز وهو رطيب

كأن لم يكن زين الفناء ومعقل النـ   ـساءِ إذا يوم يكون عصيب
وريحان قلبي كان حين أشمه   ومؤنس قصري كان حين أغيب

إن اللوعة الكارثة لتنجلي في تكرار المفارقة . . تكرار الطباق بين غائب حي ترتقب أوبته ، وغائب فارق الحياة فلن يؤوب :

يؤوب إلى أوطانه كل غائب وأحمد في الغياب ليس يؤوب

ويتكىء ابن الرومي بالتكرار على الصفة التى فارقه عليها ابنه الغض الناضر ، فيكرر الفنن الذي شبهه به حال فقده ، رمزاً إلى الغضارة وما لها من قوة استدعاء للحب والحنان ، كما يتكىء بالتكرار على شجنه به ؛ لأنه راسخ لا ينفك ولازم لا يزول !

يا حسرةً فارقْتَنِي فَنَنا غضا ولم يثمر لي الفنن !
أبنيَّ إنك والعزاء معا بالأمس لُفَّ عليكما كفن !
تالله لا تنفك لي شجنا يمضي الزمان وأنت لي شجن !

إن الصبر ليلتوي على ابن الرومي لو شاءه ، وإن مشيئته الصبر عن ابنه لتخجله ! إنه يكرر لفظ (الصبر) ليصور شجاه به منصرفا ومقبلا :

شجى أن أروم الصبر عنك فيلتوي عَلَيَّ ! ولوم أن يساعدني الصبر !

والثرى الذي حجبه عنه ، وحال بين عينه ورؤيته . . . وعيناه . . والدمع . . كل هذا مما يوجب على اللسان تكريره في عزاء عاطفته !

أعيني جودا لي فقد جدت للثرى بأكثر مما تمنعان وأطلبا
بني الذي أهديته أمس للثرى فلله ما أقوى قناتي وأصلبا
فإن تمنعاني الدمع أرجع إلى الأسى إذا فترت عنه الدموع تلهبا

ويقتل بسر بن أرطاة ولدين لجويرية بنت قارظ ، فينطلق لسانها يكرر نداء المعين الذي أحس حسها لفقدهما! وأين ذلك المساوي لها في الوجد !

يا من أحس بُنَيَّيَ اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بُنَيَّيَ اللذين هما سمعي وقلبي فقلبي اليوم مختطف
يا من أحس بُنَيَّيَ اللذين هما مُخ العظام فمخي اليوم مزدهف
نُبِّئْتُ بُسْراً وما صدقْت ما زعموا من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحي علي وَدَجى طفليَّ مرهفةً مشحوذة وكذاك الإثم يُقْترف

ويفقد محمد بن عبد الملك زوجه التي تركت له ولداً تهيج حاله الحزن ، وتذهب عن القلب العزاء ، فيرثيها في تفجع ، ويملي غليه الحزن أن يتكىء بالتكرير على أماكن المفارقة بين حاله وحال صغيره ، وبين حال صغيره وأمثاله ممن يبيتون في أحضان الأمهات ، حتى نرى فيما كرر : الأم ، والبيات ، والبكاء والمكان ، والصبر ، واستفهام النفي ، واستفهام التعجب . . .

ألا من رأى الطفل المفارق أمه　　بعيد الكرى عيناه تبتدران

رأى كل أم وابنها غير أمه　　يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحثه　　بلابل قلب دائم الخفقان

ألا إن سجلا واحداً قد أرقته　　من الدمع أو سجْلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فإنما　　أداوي بهذا الدمع ما تريان
وإن مكانا في الثرى خط لحده　　لمن كان من قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى　　فهل أنتما إن عُجْتُ منتظران ؟
فهبني عزمت الصبر عنها لأنني　　جليد فمن بالصبر لابن ثمان ؟
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة　　ولا يأتسي بالناس في الحدثان
ألا من أمنِّيهِ المنى وأعده　　لعثرة أيام وصرف زمان ؟
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي　　وإن غبت عنه حاطني ورعاني ؟
فلم أر كالأقدار كيف تصيبني　　ولا مثل هذا الدهر كيف رماني !

إن الثري الذي يخط فيه مثوى الأحباب ليغلو من أجلهم ويحب ، فيذكر من أجلهم ويعاد ، لا لأنه قبر أو بقعة ، ولكن لأنه دارهم التي هي مصيرهم إلى البعث ، فإذا كان محمد بن عبد الملك يكرر المكان ويجعله أحق مكان بالزيارة والهوى ، فإن عقيل بن علفة ليذكر قبر أخيه بمقدار يعده جرعة مسكنة لحزنه ، حتى يستجم فيعود !

خليليَّ زورا قبـر عمرو فسلمـا ... عليه وجودا بالدموع الجوامـد !
ولا تعجـلانـي أن ألم بـأعـظم ... ورمس بشـرقي الهبـاءة هـامـد !
وفي القبر نفسي أو كنفسي رهينة ... أتى دونـه مـر المنـايـا الـرواصـد
فبـوركت من قبـر وبـوركت بقعـة ... بها مكنت للحد أيـدي اللواحد !
سقى الله أكنـافـا هنـاك وأعـظمـا ... غيوث السواري والغوادي الرواعد
أأبكي على عمرو؟ فكفاي هالتا ... عليـه التـراب من نثيـل ولابـد
كـأني لعمـرو كنت أبـدي عـداوة ... بحثوي عليه الترب فوق الجلامد !

إنها خاطرة دقيقة المأتى ، بعيدة الغور ، وإن الرثاء ظاهر الهدوء ، لكنه مارق الألم !

ويموت أبو الحسين العلوي ، فيرثيه ابن الرومي ، رثاء يصوره ماثلا أمامنا في المعركة ، ويتخذ من تكرير التخييل وسيلة لاستكمال صورته ، التي نراه فيها يصارع الموت والموت يصارعه حتى يصرعه :

كـأني بـه كـالليث يحمي عـرينـه ... وأشبـالـه لا يـزدهيـه المهجهـج
كـأنـي أراه والـرمــاح تنـوشــه ... شـوارع كـالأشـطان تـدلي وتحلج
كـأنـي أراه إذ هـوى عن جـواده ... وعفـر بـالتـرب الجبين المشجـج

كما هال أبا تمام مصرع محمد بن حميد الطوسي ، فرثاه الرثاء الذي يرثي به مثله يتكىء بالتكرار على المعالم البارزة التي من حقها أن تبرز : سبيل الله . . الفتوة . . الموت . . الضرب . . النصر .

ألا في سبيـل الله من عطلت لـه ... فجـاح سبيـل الله وانثغـر الثغـر
فتى كلمـا فـاضت عيـون قبيلة ... دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقـوم مقام النصـر إن فاتـه النصر
وقد كان فوت الموت سهـلا فرده ... إليـه الحفاظ المـر والخلق الوعـر

وافتيات على أبي العتاهية ـ وهو المولع بالتكرير في كل قول ـ أن نهمل باب الرثاء من نماذج يتخذ فيها التكرير تركيزاً على مفاتح الوجدان ولكني أدع لك أن تدرك بنفسك ما ردده أبو العتاهية من الألفاظ لكثرته في هذه المرثية التي يقولها في الإخوة الكثر الذين بادر بهم الموت قبله :

يـا معشر الأمـوات يا ضيفـان تُـرْ ... ب الأرض كيف وجدتم طعم الثرى ؟
أهل القبور محا التراب وجوهكم ! ... أهل القبور تغيـرت تلك الحلى !
أهـل القبور كفى بنـأي ديـاركم ! ... إن الـديار بكم لشاحطة النـوى !
كم من أخ لي قـد وقفت بقبـره ... فـدعـوتـه : لله درك من فتى !
أأخيَّ لم يقـك المنيـة إذ أتـت ... ما كان أطعمك الطبيب وما سقى
أأخي لم تغن التمـائم عنـك مـا ... قد كنت أحذره عليـك ولا الرقى
أأخي كيف وجدت مس خشونة الْـ ... ـمأوى ؟ وكيف وجدت ضيق المتكا
قد كنت أفرق من فـراقك سـالما ... فـأجـل منـه فـراق دائـرة الـردى
فـاليوم حق لي التـوجع إذ جـرى ... قـدر الإله على فيك بمـا جـرى
تبكيـك عيني ثـم قلبي حسـرة ... وتقـطعـاً منـه عليـك إذا بكى
وإذا ذكـرتـك يـا أخي تقـطعت ... كبـدي فأقلقت الجـوانـح والحشـا

لقد نظر أبو العتاهية مصرعه في مصارع النازحين ، فرثى نفسه وبكاها ! فانظر إلى بكائه كم تكرر ، وإلى نفسه كم ترددت ، وإلى بيت المنتجع والغربة كم عاد ثم عاد ، وإلى شكواه واللهث اللاهث الذي صوره بيته الأخير تماماً للوثبة :

لأبكيـن على نـفسي وحق لِـيَـهْ ... يـا عين لا تبخلي عني بعبـرتيـهْ
لأبكين على نـفسي فتسعـدني ... عين مـؤرقـة تبكي لـفـرقتيـهْ
لأبكين على نـفسي فيسعـدني ... أهلي ومن كان حولي من أحبتيـه
لأبكين . . . ويبكيـني ذوو ثـقتي ... حتى الممـات أخـلائي وإخـوتيـه
لأبكين فقـد جـد الـرحيـل إلى ... بيت انقطاعي عن الدنيا ووحدتيه
يا بيت ! بيت الردى ! يا بيت منقطعي ... يا بيت ! بيت الردى ! يا بيت غربتيه !

يا بيت ! بيت النوى عن كل ذي ثقة   يا بيت ! بيت الردى ! يا بيت وحشتيه !
يا نأي منتجعي ! يا هول مطلعي !   يا ضيق مضطجعي ! يا بعد شقتيه !
أشكو إلى الله تضييعي ومسكنتي ؟   أشكو إلى الله تقصيري وقسوتيه ؟
والله والله ربي المستغاث به   والله ربي به حولي وقوتيه ؟

وكما نرى هذا التكرار في إطار التعميم عنده ، نراه في خصوص اسم صاحبه علي بن ثابت إذ يقول :

يا علي بن ثابت أين أنتا ؟   أنت بين القبور حيث دفنتا ؟
يا علي بن ثابت بان مني   صاحب جل فقده يوم بنتا ؟
قد لعمري حكيت لي غصص المو   ت وحركتني لها وسكنتا ؟

إن علاقة اللفظ المكرر بالعاطفة علاقة المثار بالمثير . علاقة ليست مخترعة . . لذا نجد أثرها فينا أثرها في الراثي المعبر عنها بهذا التكرير المقرر لوجده ؟

ذلك التكرير نجده في رثاء الفرد ، ونجده في رثاء الدولة الذاهبة والممالك الغاربة ، فليست الفاجعة في موت ابن أو أخ أو زوج ، أشد إيجاعاً منها في زوال دولة أو فقد وطن ، أو انهيار كيان ، وفيما خلف الشعر العربي من ذلك ما يطيل الرحلة ، لهذا تكفينا منه أبيات من قصيدة لشمس الدين الكوفي ، حين اهتزت أوتاره الحزينة تهتف بشجوها ، وتنوح لما دهاها بسقوط بغداد في أيدي التتار وخلو البلاد من آخر خلفاء بني العباس سنة ٦٥٦ هـ :

قف في ديار الظاعنين ونادها :   يا دار ما صنعت بك الأيام ؟
أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا   لم يبق فِيَّ بشاشةٌ تُسْتام ؟
يا دار أين الساكنوك ؟ وأين   ذياك البهاء وذلك الاعظام
يا دار أين زمان ربعك مونقاً   وشعارك الإجلال والإكرام ؟
يا دار مذ أَفَلَتْ نجومك عمنا   والله من بعد الضياء ظلام
فلبعدهم قرب الردى ؟ ولفقدهم   فقد الهدى وتزلزل الإسلام ؟

وما أشد ما دهم ابن الرومي من ألم يحسه الشاعر أضعاف ما يحسه سواه حينما وقعت البصرة في يد الزنج ، فسمعناه يندب ويستصرخ متخذاً من أسلوب التكرير لهيباً يقذفه في كل قلب :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام   شغلها عنه بالدموع السجام !
أي نوم من بعد ما حل بالبصـ   ـرة ما حل من هنات عظام ؟
أي نوم من بعد ما انتهب الزنـ   ـجُ جهاراً محارم الإسلام ؟

لهف نفسي عليك أيتها البصـ   ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام !
لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ   ـرات لهفاً يعضني إبهامي !
لهف نفسي عليك يا قبة الإسـ   ـلام لهفاً يطول منه غرامي !
لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ   ـدان لهفاً يبقي على الأعوام !
لهف نفسي لجمعك المتفاني   لهف نفسي لعزك المستضام !

كم ضنين بنفسه رام منجى   فتلقوا جبينه بالحسام ؟
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً   ترب الخد بين صرعى كرام ؟
كم أب قد رأى عزيز بنيه   وهو يعلي بصارم صمصام !
كم مفدي في أهله أسلموه   حين لم يحمه هنالك حامي ؟
كم رضيع هناك قد فطموه   بشبا السيف قبل حين الفطام ؟
كم فتاة بخاتم الله بكر   فضحوها جهراً بدون اكتتام !
كم فتاة مصونة قد سبوها   بارز وجهها بغير لثام !
صبحوهم فكان للقوم منهم   طول يوم كأنه ألف عام ؟

هكذا تتخذ العاطفة الدافقة من التكرير انطلاقا يجرف ما في الطريق إلى الغاية : وما أجدر أن يكون هذا شأن الرثاء من راث تأرث في قلبه جمر الفراق .

٨ ـ التلطف والاستمالة :

يكثر التكرار في الوصايا والنصائح والعظات ، لاستدراج المخاطب والتلطف في استمالته بالتحبب إليه ، فيناديه المتكلم نداء المشفق المتودد . فيكرر نداءه باسمه أو بالصفة التي هي أولى باكتساب قلبه . وأعلى ما جاء من ذلك حكاية القرآن المجيد قول لقمان لابنه :

﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشرِك بِاللَّهِ إِنَّ الشِركَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣ : لقمان)

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ فَتَكُن فِي صَخرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأتِ بِهَا اللهُ إِنَ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٦ : لقمان)

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأمُر بِالمَعْرُوفِ وَانهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِن عَزمِ الأُمُورِ ﴾ (١٧ : لقمان)

وحكاية قول إبراهيم (عليه السلام) لأبيه :

﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسمَعُ وَلاَ يُبصِرُ وَلاَ يُغنِي عَنكَ شَيئاً ﴾ (٤٢ : مريم)

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَد جَآءَنِي مِنَ العِلمِ مَا لَمْ يَأتِكَ فَاتَّبِعنِي أَهدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ (٤٣ : مريم)

﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعبُدِ الشَّيطَانَ إِنَّ الشَّيطَانَ كانَ لِلرَّحمَنِ عَصِياً ﴾ (٤٤ : مريم)

﴿ يَا أَبَتِ إِنّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحمَنِ فَتَكُونَ للشَّيْطَانِ وَلِياً ﴾ . (٤٥ : مريم)

وحكاية مؤمن قوم فرعون :

﴿ يَا قَومِ لَكُمُ المُلكُ اليَومَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأسِ اللهِ إن جَآءَنَا ﴾ . (٢٩ : غافر)

﴿ يَا قَومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم مِّثل يَومِ الأَحزابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَومِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلماً لِّلعِبَادِ ﴾ (٣٠ ـ ٣١ : غافر)

﴿ وَيَا قَومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَومَ التَّنادِ . يَومَ تُوَلُّونَ مُدبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِن عَاصِمٍ وَمَنَ يُضلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ (٣٢ ـ ٣٣ : غافر)

﴿ يَا قَومِ أَتَّبِعُونِ أَهدِيكُم سَبِيلَ الرَّشادِ ﴾ (٣٨ : غافر)

﴿ يَا قَومِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنيَا مَتَاعٌ وإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ (٣٩ : غافر)

﴿ يَا قَومِ مَا لِي أَدعُوكُم إِلَى النَّجَاةِ وَتَدعُونَنِي إِلَى النَّار . تَدعُونَنِي لِأَكفُرَ بِاللهِ وَأُشرِكَ بِهِ مَا لَيسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ ﴾ .
(٤١ ـ ٤٢ : غافر)

ومن هذا النوع من التكرير دعاء الحسن البصري بإمرة المؤمنين الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (رحمة الله) إذ يقول فيما نجتزىء به من مطولته الوعظية التي يصف فيها الإمام العادل :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مواقع الهلكة .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده : يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته :

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة البرة بولدها : حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه

تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته . . . »[1] .

وكما تكرر هنا النداء بإمرة المؤمنين لتذكيره بحقها ، والإمامة العادلة لتمكين ما يناط بها ، يتكرر في موعظة الحسن العامة نداؤه : « يا ابن آدم » ليلفت كل من يستمع إلى ذلك الأصل الواحد ، المشترك بنوه في كل صفة أو فعل ترد بعد النداء ، وليتأكد بالتكرار مدلول دعائه بهذا الوصف من قلبه .

« يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً » .

« يا أبن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثواء هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الساعة والساعة تسوقكم » .

ثم انظر مع هذا إلى تكرير الحبك وتصعيد المعاني في هذه الفقرة من كلامه : «يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك ، فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر » .

كم فيه من ارتفاع بالشعور سريع في مرقاة النظر . فالتفكر ، فالاعتبار ، فالإبصار ، فالصبر على الطاعة واجتناب المعصية ؟ .

« يا ابن آدم اذكر قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً . . . ﴾ (١٣ - ١٤ : الاسراء) .

---

(١) العقد الفريد : ١/٣٤ .

« يابن آدم ليس الإيمان بالتملي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في القلب وصدقته الأعمال ! »[1]

وكذلك نرى تكرير الحبك ، وتصعيد المعاني ، في تلك التمنيات المتتابعة يدفع بعضها بعضاً إلى قمة الشعور ، في موعظة يزيد بن أبان الرقاشي ، وقد وجد القوم يتمنى كل منهم ما أحب فقال :

« ليتنا لم نخلق ! وليتنا إذ خلقنا لم نعص ، وليتنا إذ عصينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نبعث ، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب ، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد »[2] .

وهكذا نجد تكرار الجملة الاستفهامية ، مع تكرار فعل الشرط ، في قول أبي العتاهية :

ما لي رأيت بني الدنيا قد افتتنوا ... كأنما هذه الدنيا لهم غرس ؟
إذا وصَفْت لهم دنياهم ضحكوا ... وإن وصفت لهم أخراهم خرسوا !
ما لي رأيت بني الدنيا وإخوتها ... كأنهم لكتاب الله ما درسوا ؟[3]

وأبو العلاء في مواعظ مرثيته يكرر الألفاظ التي هي ملامس الوجدان تكريراً بادياً للنظر إذ يقول :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد
إن حزنا في ساعة الموت أضعا ... ف سرور في ساعة الميلاد

وتدرك لمسة الإيمان والشعور بالذنب قلب أبي نواس ، فينقلب واعظاً ، فنرى تكرار الألفاظ التي يوحي تكرارها بالتحول ، والتي لها هيمنة على نبضات

---

(١) عيون الأخبار : ٢ : ٣٣٤ والبيان والتبيين : ٣ : ١٣٢ .
(٢) البيان والتبيين : ١ : ١٦٧ .
(٣) أبو العتاهية أخباره وشعره : ١٨٨ .

الوجدان ، في هذه الأبيات التي نرجو أن تكون في مكان التوبة النصوح !

يا سائل الله فزت بالظفر ... وبالنوال الهني لا الكدر
فارغب إلى الله لا إلى بشر ... منتقل في البلى وفي الغير
وارغب إلى الله لا إلى جسد ... منتقل من صبا إلى كبر
مالك بالترهات مشتغلا ... أفي يديك الأمان من سقر ؟ (١)

ويتخذ الخريمي من حزنه على فوات عينه موعظة ينتفع بها من أراد الاعتبار ، فيظهر فيها التكرار المرتبط بعاطفة حزنه ، الممثل لواقع الحياة في كل حي !

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً ... فإن البعض من بعض قريب
يمنيني الطبيب شفاء عيني ! ... وهل غير الإله لها طبيب ؟

ومرة أخرى يحس أبو نواس تهدمه ، ويدرك رحيله عن دار غرته ، فيرسل أنفاس الأسف والأسى ، وقد أصبح بعضه قبراً لبعضه ، إذ مات من جسمه الطليح ما مات ، وهو لما يزل يعالج آخر الأنفاس !

أراني مع الأحياء حيا وأكثري ... على الدهر ميت قد تخرمه الدهر
فما لم يمت مني بما مات ناهض ... فبعضي لبعضي دون قبر البلى قبر
فيا رب قد أحسنت عوداً وبدأة ... إليَّ فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة ... فعذري إقراري بأن ليس لي عذر

إن تكرار الموت ، والدهر ، والبعض ، والقبر ، والعذر ، هذه المرات على التواشج مع سائر النظم ، ليجسد الصورة الجسمية والنفسية على أكمل حقيقة للشاعر الحزين !

---

(١) ديوانه : ٦٢٢ .

إن أعضاءه تموت تباعاً فيدل على تلك المتابعة بالتكرار ، وإن طاعته لتقع بين ضياع الماضي وعودة المنتهي ، فيرددها بين الأسى والأمل :

دب في السقام سفلا وعلوا وأراني أموت عضوا فعضوا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا .

ثم إنه الآن ينظر إلى سلسلة الهالكين في حلقات يسلم بعضها إلى بعض فيكرر اللفظ مرات ترمز إلى هذا الميراث في التتابع .

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق [1]

ونعود مرة أخرى إلى أبي العتاهية يعظ الناس في المال ، وما ندري أكان متعظاً بما به يعظ ؟

يا جامع المال في الدنيا لوارثه هل أنت بالمال بعد الموت تنتفع
لا تمسك المال واسترض الإله به فإن حسبك منه الري والشبع [2]

وكما يكرر المال الذي هو مناط عظته هنا ، نراه يكرر نداءه الدنيا . ونداءه نفسه ، آمراً ، وناهياً ، وواعظاً ، حين نقرأ له :

ألم تر يا دنيا تصرف حالك ؟ وعذرك يا دنيا بنا وانتقالك ؟
فلست بدار يستقيم بك الرضى ولو كنت في كف امرىء بكمالك
حرامك يا دنيا يعود إلى الضنى وذو اللب فينا مشفق من حلالك
أيا نفس لا تستوطني دار قلعة ولكن خذي في الزاد قبل ارتحالك
أيا نفس لا تنسي كتابك واذكري لك الويل إن أعطيته بشمالك
أيا نفس إن اليوم يوم تفرغ فدونكه من قبل يوم اشتغالك

(١) ديوانه : ٦٢١ .
(٢) أبو العتاهية أخباره وشعره : ٢٣٦ .

ومسئولة يا نفس أنت فيسّري جواباً ليوم الحشر قبل سؤالك
ومسكينة يا نفس أنت فقيرة إلى خير ما قدمته من فعالك
هو الموت فاحتاطي له وابشري به نجوت كفافاً لا عليك ولا لك (١)

ثم عودة إلى تكرير أبي نواس (٢) :

يا ليت شعري كيف أنت على ظهر السرير وأنت لا تدري ؟
أو ليت شعري كيف أنت إذا غسلت بالكافور والسدر ؟
أو ليت شعري كيف أنت إذا وضع الحساب صبيحة الحشر ؟

كما يتخذ ابو حفص الشطرنجي من تكرير المفارقة لذعة تذكير لقلب الغافل السادر .

وقبلك داوي المريض الطبيب فعاش المريض ومات الطبيب
يخاف على نفسه من يتوب . فكيف ترى حال من لا يتوب (٣)

إن التكرار في باب المواعظ والتذكير لظاهرة جلية ، وإن له لوقعا على القلوب لصدوره ـ غالباً ـ عن القلوب ، ولولا كبح القلم لأغراه التراث الواسع بما لا تتسع له تلك العجالة ، وإنما هي نماذج للأغراض العامة التي كثرت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية ، ليقاس عليها غيرها ، وليس ما ذكرنا هو كل الأغراض ولكنه أشهرها ، ولعله مما يجمل بنا أن ننتقل إلى جانب في البحث جديد .

---

(١) نفسه : ٢٧٢ .
(٢) ديوانه : ٦٠٩ .
(٣) العقد الفريد : ٣ : ١٩٠ .

التكرير والبديع

أمضينا الحديث عن أهم الأغراض الجزئية والعامة . التي يجيء فيها التكرير منبعثاً عن المثير النفسي مفضياً إلى نفس المخاطَب بأثره ، والتكرير الحاصل نتيجة للمثير له وقعه ، إذ يدق اللفظ بعدد ما يتكرر أبواب القلب موحياً بالاهتمام الخاص بمدلوله . فيشعل شعور المخاطب إن كان خافتاً ، ويوقظ عاطفته إنْ كانت غافية ، وقد نرى الثورة حاملة على الثورة ، كما حدث من المهلهل حين سمع الحارث بن عبادة يكرر مرات كثيرة :

قربا مربط النعامة مني .

إذ استثارت هذه الدقات المتواترة حميته ليكرر ثم يكرر في الرد عليه :

قربا مربط المشهر مني .

ولا شك أن الأحباب الذين يسمعون أسماءهم تتردد مرات على أفواه العشاق والممدوحين الذين يسمعون صفاتهم تتكرر في شعر مادحيهم ، والأشخاص الذين تتردد أسماؤهم مشهراً بها في القدح والتهكم ـ لا شك أنهم يجدون أثراً يعمق في قلوبهم بمقدار ما أراد القائل وما كرر . وقد أدرك النقاد من القديم أن ما خرج من القلب وقع في القلب ، وهذا قانون لا يتبدل بتبدل العصور ، لأن الإنسان بقواه النفسية هو الإنسان دائماً .

وقد يستغل أصحاب الفنون التكرير وسيلة ناجحة في الوصول إلى أهدافهم من فنونهم ، فلا يرسلون التكرير كما تسوقه الفطرة أو الموقف وكما ينتج للربيع

أزهاره وأعشابه بقوة الحياة السارية فيه ، بل يتناولونه على هندسة يهتدي إليها ترويهم ، وما لهم من حاسة الفن وذوق الصنعة ، فإذا لم يتجاف ذلك عن الوجدان بشدة البعد ، أضاف جمالا على العبارة له في التأثير دخل لأن فيه اجتذاباً للنظر ؛ مع ما فيه من طاقة شعورية ، أما إذا اختفى أثر الانفعال في كثافة التعبير - مهما دقت الهندسة التركيبية - فإني مع الكثيرين من النقاد الذين لا يحمدونه في فنون القول ، التي هي قبل كل شيء أغاني النفس في السرور والحزن . وما سبقت صوره مما مثلنا به في غرض خاص أو عام ، وله أمثلة كثيرة أخرى قد انتظمته فنون البلاغة العربية ، حيث نظر العلماء إلى تلك الهندسة القولية ، فاتخذوا من أمثلة الشعر والنثر قوانين لما جاءت عليه من قوالب واساليب ، ولا ريب أن المصدر الذي انبثقت منه هذه الألوان ذات القوانين ، كان نزيها عن التكلف لتصويرها ، وإنما طرأ عليه هذا التكلف على درجات من البساطة والتركيب الذي قد ينبو كثيراً عن القبول - منذ أغرى هذا الجمال الهندسي شعراء مدرسة البديع ، التي ظهر على رأسها بشار ومسلم بن الوليد وأبو تمام فراح رجالها يتنافسون حتى أوغلوا ، فوقع كثير قولهم في العيب والرد ، وذلك لا ينفي أن لهم - متى سمحت نفوسهم وقويت عواطفهم - أمثلة بارعة تجمع الجمال من طرفيه .

هذا الفن البلاغي الواسع ، نظر في الصورة التي جاء عليها التكرير - بمعناه العام وهو عودة صوت الحرف - فما زال بها يروزها ، حتى صنفها أصنافاً كثيرة بحسب موقع المكرر ودلالته ، ونحن هنا موردون أهم الأبنية والأنواع البديعة ذات العلاقة بموضوعنا ، مما لا يسع من شاء مقاربة التمام أن يغفله .

الجناس [1]

الجناس ، والتجنيس ، والمجانس : ألفاظ أطلقت في البديع على لون من عودة الحروف المتحدة الجنس مرة أخرى في الكلام على قرب ، وقد اختلف العلماء في تعريفه لكثرة أنواعه ، التي لو جمعت تحت تعريف واحد لثقل واسترذل ، فجاء أكثر ما وقع لهم من التعريفات غير حاصر ، وقد رأى ذلك النقص في كل منها الصلاح الصفدي فنقدها ، ووضع للجناس رسماً يتفادى النقص فقال : والذي أختاره أنا في رسم الجناس أن أقول : هو الإتيان بمتماثلين في الحروف ، أو في بعضها، أو في الصورة ، أو زيادة في أحدهما ، أو بمتخالفين في الترتيب ، أو الحركات ، أو بمماثل يرادف معناه مماثلا آخر نظماً [1] .

ثم أخذ في شرح ذلك التعريف أو الرسم الطويل الممل ، الذي أدخل بكل قيد فيه نوعاً من الجناس ، وهو يختص النظم به دون النثر خلافاً لغيره وللواقع .

وقد استحسن من تعريفاتهم صاحب (فن الجناس) ـ رحمه الله ـ ما قاله العلوي في الطراز ، ليسْره ودنوه من الكمال ، وهو أنه : اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما [2] .

ومن الذين أصابوا في تعريف أضربه ضرباً ضرباً صاحب (العمدة) [3]

---

(١) جنان الجناس : ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) فمن الجناس : ١٢ والطراز

(٣) العمدة ١ : ٢٢٠

والرازي [1] ، وابن حجة [2] .

وقد جرى كثير من المؤلفين على تعريف السكاكي أو ما هو أدنى إليه ، قال ابن معصوم فيه : هو « تشابه الكلمتين في اللفظ : أي في التلفظ [3] كما سبقه الخطيب بقوله : « الجناس بين اللفظين وهو تشابههما في اللفظ » [4] .

والذي يعنينا على اختلاف ما عرف به الجناس ، أنه نوع من أنواع التكرير بالمعنى العام ، يختص بإعادة اللفظ مع اختلاف المعنى وقد عدوه من المحسنات اللفظية ، غير أن إباء ذوق عبد القاهر رده إلى سبب نفسي ، هو مخاتلة السامع حرصاً على نشوته بالحصول على ما لم يكن ينتظر .

قال وهو يعلق على بيت أبي تمام :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت   فيه الظنون : أمذهب أم مذهب

« إن الشاعر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها »[5]

وهو بذلك يرد فضيلته إلى المعنى ويصله بالنفس ، ويؤكد هذا قوله :

« .. يبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجتذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرفة في

(١) نهاية الايجاز : ٢٨ .
(٢) الخزانة : ٢٧ .
(٣) أنوار الربيع ١ : ٩٧
(٤) بغية الإيضاح ٤ : ٧٧
(٥) أسرار البلاغة : ٥

حكمها ، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها » (١) .

كما نفهم من هذا القول أن الجناس إنما يحسن بعدم الاستكثار منه والولوع به لما يدعو إليه ذلك من عدم انقياد الألفاظ ـ دائماً ـ للمعاني على وجه التجنيس فيأتي المستكثر الولع بالمتكلف النافر أو الغث البارد ، كما وقع لكثير من القائلين .

ولا يشذ عن هذا الرأى في شرط استحسانه أحد ممن رأوه من وجوه الحسن ، وقد رفع قيمته على هذا الشرط ابن الأثير فقال :

« إعلم أن التجنيس غُرَّةٌ شادخة في وجه الكلام ، وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فغربوا وشرقوا ولا سيما المحدثين » (٢)

وقسمه سبعة أقسام تتداخل مع تقسيم غيره من المبينين عن أضربه .

ويدخل الجناس في عموم التعليل النفسي الذي علل به حازم في منهاجه إذ يقول : « إن للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها ، والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها ـ تحريكاً وابلاغاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام ، لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها في شيء واحد . . » (٣) .

وقال صاحب (سر الصناعة) وكأنه لم يقف على مثل تعليل عبد القاهر :
« ولم أر من ذكر فائدته ، وخطر لي أنها الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها ، ولأن اللفظ المذكور إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه » (٤) .

(١) أسرار البلاغة : ٥.
(٢) الجامع الكبير : ٢٥٥ .
(٣) منهاج البلغاء : ٤٦
(٤) أنوار الربيع ١ : ٩٧

أضرب الجناس

١ ـ التام

الأصل في التجانس اللفظي هو اتفاق الركنين في أربعة أشياء : نوع الحروف ، وعددها وهيآتها من الحركة والسكون ، وترتيبها .

فما تم له كل ذلك فهو التام ، أو الكامل ، وما أشبه هذين الأسمين مما سماه به العلماء ؛ وهذا الضرب تحته أنواع :

(١) المماثل : وهو ما تماثل ركناه في القسم من الكلمة : كالاسمية في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٥٥ : الروم) .

أو الفعلية ، كقول شعبة بن عبد الملك من شعراء اليتيمة :

فديت من زارني على حذر   من الأعادي وقلبه يجب
فلو خلعت الدنيا عليه لما   قضيت من حقه الذي يجب [1]

أو الحرفية كقولهم : « قد يجود الكريم وقد يبخل الجواد »[2] .

ولكن الأكثر منه ما جاء في الأسماء ، ويليه ما جاء في الأفعال ، وأما الثالث فإنه لمجرد استيفاء الصور العقلية فهو نادر ، ولذلك أهمله الكثيرون من التمثيل ، أو نبهوا على عدم إمكان تصوره .

(٢) المستوفي : وهو ما كان ركناه مختلفين في الاسمية والفعلية كقول أبي تمام :

ما مات من كرم الزمان فإنه   يحيا لدى يحيى بن عبد الله

(١ و٢) فن الجناس ٦٦ ـ ٦٧ .

أو في الاسمية والحرفية كما في الحديث الشريف : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى ، إلا أجرت بها ، حتى ما تجعل في في أمرأتك » .

(في) الأولى حرف ، والأخرى : الفم[1] .

أو في الحرفية والفعلية كقول القائل :

وخلا الوجود خلاك من أهل الندى   كالشمس منفرداً عن النظراء

فإن (خلا) أولا فعل ، وثانياً حرف .

وأكثر المستوى ما اختلف في الأسمية والفعلية .

(٣) المركب : ما كان أحد ركنيه مركباً من أكثر من كلمة ، وهو :

(١) مرفو : إذا تركب من كلمة وبعض الأخرى ، كقول الحريري :

ولاتله عن تذكار ذنبك وابكه   بدمع يحاكي الوبل حال مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعه   وروعة ملقاه ومطعم صابه

فإن الركن الثاني مركب من الميم الثانية في (مطعم) وما بعدها .

(٢) متشابه : إذا تركب من كلمتين فأكثر مع تشابه الخط ، كقول أبي الفتح البستي :

إذا ملك لم يكن ذاهبه   فدعه فدولته ذاهبة

فإن الأول مركب من (ذا) بمعنى صاحب ، وما أضيف إليه ، والثاني مؤنث اسم الفاعل من (ذهب) .

(٣) مفروق : وهو ما تركب من كلمتين فأكثر مع الاختلاف الخطي كقول المطوعي :

لا تعرضن على الرجال قصيدة   ما لم تبالغ قبل في تهذيبها

---

(١) فن الجناس : ٧٢.

فمتى عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذي بها

هذه صور الجناس التام ؛ عقبها الخطيب بملخص ما قيل في حسنها « حسن الإفادة ، مع أن الصورة صورة الإعادة »[1] .

٢ ـ غير التام من الجناس

وغير ما استكمل التوافق في الخصائص الأربع : نوع الحروف ، وعددها ، وهيآتها ، وترتيبها ، لا يسمى تاماً ولا كاملاً ، بل هو :

(١) محرف : حتى اختلف ركناه في هيئات الحروف فقط ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ ﴾ .

(٧٢ ـ ٧٣ : الصافات)

(منذرين) الأول بهيأة الفاعل والثاني بهيئة المفعول ، وهو اختلاف بالحركات .

وكقول أبي العلاء :

والحسن يظهر في بيتين رونقه بيت من الشَّعْر أو بيت من الشَّعَرِ

وهو اختلاف بالحركات ، وبالحركة والسكون .

(٢) ناقص : متى اختلف الركنان في عدد الحروف فقط ، والنقص قد يقع أول اللفظ ، أو وسطه أو آخره ، والأمثلة على الترتيب كما في الإيضاح[2] لما نقص بحرف :

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (٢٩ ـ ٣٠ : القيامة) .

---

(١) بغية الإيضاح ٤ : ٨٠
(٢) نفسه

« جدى جهدي » .

قول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وقد يسمى ما كان النقص آخر أحد ركنيه مصرفا ، كما اختص ما كان نقصه بأكثر من حرف باسم المذيل ، كقول الخنساء :

إن البكـاء هو الشفـا ء من الجوى بين الجوانح

(٣) ما كان اختلاف الركنين فيه بنوع الحرف فقط ، ولا يكون بأكثر من واحد ، مع تقارب الحرفين في المخرج أو اتحادهما فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُم يَنهَونَ عَنهُ وَيَنأَونَ عَنهُ ﴾ (٢٦ : الأنعام) فإن الهمزة والهاء من الحلق ، وقوله (ﷺ) : « الخيل معقود في نواصيها » .

(٤) اللاحق : ما كان اختلاف الركنين فيه على الوجه السابق بحرفين متباعدي المخرج ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَيلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (١ : الهمزة) لبعد ما بين الهاء واللام .

وقوله : ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُم تَفرَحُونَ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنتُم تَمرَحُونَ ﴾(٧٥ : غافر) لبعد ما بين الفاء والميم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُم أَمرٌ مِّنَ الأَمنِ ﴾ (٨٣ : النساء) لبعد ما بين الراء والنون .

(٥) جناس القلب : وهو ما اختلف ركناه بترتيب الحروف فقط ، وهو :

(١) قلب الكل : إذا عكس ترتيب حروف الأول في لفظ الثاني على التوالي ، مثل :

حسامه فتح لأوليائه حتف لأعدائه .

(٢) قلب البعض : إذا عكس ترتيب بعض حروف الأول في لفظ الثاني ، كالذي جاء في الخبر : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ».

(٣) المقلوب المجنح : ما كان أحد الركنين أول البيت ومقلوبه آخره كقول الشاعر :

رقت شمائل قاتلي فلذاك روحي لا تقر
رد الحبيب جوابه فكأنه في اللفظ در

ومحل التمثيل في البيت الثاني (رد . در) .

(٦) الجناس المزدوج ، أو المكرر ، أو المردد : وهو ما تجاور فيه المتجانسان مطلقاً .

كقوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢ : النمل) وهو من اللاحق .

وكما في الخبر « المؤمنون هينون لينون ». وهو كسابقه.

وقول القائل :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وآخر كل من الشطرين جناس ناقص مطرف للاختلاف بنقص حرف واحد .

(٧) جناس الاشتقاق : وهو ما تجانس ركناه في الأصل واختلفا بالهيأة ، إذ كل منهما على صورة من صور الاشتقاق ، مع المحافظة على ترتيب الحروف الأصلية في الركنين ، مثل قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ (٤٣ : الروم) فأصل الركنين معاً (القيام) ونظيره : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ (٨٩ : الواقعة) ، و«الظلم ظلمات يوم القيامة» والبلاغيون منهم من يلحق هذا الضرب بالجناس لمشابهته له وقد جرى على ذلك الخطيب تبعاً ، للسكاكي ؛ وأبو هلال لم يعد أمثلته

من الجناس[1]. وقد خطأ المتأخرون كابن حجة[2] والصفدي[3] من عده جناسا .

(٨) جناس ما شابه الاشتقاق : وهو ما أوهم ركناه بتشابه الحروف فيهما أنهما فرعان مشتقان من أصل واحد ، والحقيقة أن كلا منهما منفرد عن الآخر ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ (١٦٨ : الشعراء) فإنَّ (قال) الماضي من (القول) و (القالين) جمع اسم الفاعل من (القِلَى) .

وهذا الضرب ألحقه الخطيب بالجناس أيضاً ، وقد أطلقوا عليه اسماء كثيرة منها : المتشابه ، والمتقارب ، وتجانس الإطلاق ، والجناس المطلق ، وعليه مع سابقه أطلق ابن رشيق اسم (التجنيس المحقق)[4] .

هذه أشهر الأضرب التي جاء عليها الجناس ، حاولت ضبطها بأقرب وسيلة وأيسر مثال ، لتتبين في بحث التكرير صورة واضحة ، لها - كما سبق - قيمةٌ نفسية تعود على المعنى ، وقيمةٌ لفظية مرجعها الجرس ، وتتوفر لها القيمة متى جاءت بالتداعي سمْحَةَ المقادة ، أو خفيت فيها الصنعة لدقة اختيار اللفظ في أداء حق المعنى وتكامل النسق ، ولا ريب أن كل ما جاء منه في القرآن المجيد على الغاية النائية عن ريح الاعتداد له : أما ما أحكمته الصنعة ولا يمكن أن يكون على الفطرة، مع قبوله للانسجام وعدم القلق فهو كثير، وقد اختار له كل مؤلف طائفة حسنة منه، ومما استحسنه للطف الصنعة ابن معصوم قول ابن جابر :

أيها العاذل في حبي لها ... خل نفسي في هواها تحترق
ما الذي ضرك مني بعدها ... صار قلبي في هواها تحت رق

وقول ابن أسد الفارقي :

غدونا بآمال ورحنا بخيبة ... أماتت لنا أفهامنا والقرائحا

---

(١) الصناعتين : ٣١٠ .

(٢) خزانة الأدب : ٣١ وينظر (فن الجناس : ١١٨)

(٣) جنان الجناس : ٣٣

(٤) العمدة : ١ : ٢٢٢ وفن الجناس : ١٢٤ .

فلا تلق منا غاديا نحو حاجة فتسأله عن حاجة والق رائحا

وقول بعضهم :

كف عن الناس إذا شئت أن تسلم من قول جهول سفيه
من قذف الناس بما فيهم يقذفه الناس بما ليس فيه

وقول ابن معصوم :

إذا اصبحت ذا طرب ولهو تعاقر راحة أو شرب راح
فقل لي كيف ترجو الرشد يوما ومالك عن ضلالك من براح[1]

وقال ابن معصوم فيما تركب كل من ركنيه من كلمتين فأكثر ، هو ألطفها موقعا في القلوب ، وأحلاها ذوقا في الأسماع ، وأصعبها مسلكا »[2] .

ومن أمثلته قول الصفدي :

متى تصنع المعروف ترق إلى العلى وتلق سعوداً في ازدياد سعود
وإن تغرس الإحسان تجن الثمار من مغار سعود لا مغارس عود

وقوله :

ومجلس أقوام تطوف عليهم كؤوس الحميا في مدار سعود
تجادلت الأوتار في جنباته فأضحى الندامى في مدارس عود

ومما استلطفه قول ابن القيسراني يمدح خطيبا :

شرح المنبر صدراً لتلقيك رحيبا
أترى ضمخ طيبا منك أم ضم خطيبا

وليس بخاف أن ما كان كذلك من يسر التناول وعدم الكلفة الثقيلة على

---

(١) أنوار الربيع ١ / ١٠٥ - ١١٠ .
(٢) نفسه : ١ : ١٢٦ .

الروح ـ لون جميل في التعبير لا ينكر حسنه[1] .

الالتزام في الجناس

الالتزام قيد قاس يرسف فيه عقل الملتزم دون عاطفة ، ولا موجب له في الكلام إلا عاطفة غير سامية ، هي حب الظهور بالقدرة على اللغة ، والتمكن من تطويعها فيما صعب أو لان . وقد التزم أناس الجناس في كلام طويل ، وبتكرير لفظ واحد من المشترك ذي المعاني المتعددة ، فخرج بهذا الالتزام المضاعف عن حقيقة الأدب ، التي من أهم مزاياها التعبير عن النفس المهتاجة بالمثير ، تعبيراً يحمل السامع على المشاركة الوجدانية للقائل . وقد نهج هذا النهج أولا اللغويون ، ليضبطوا ـ في الغالب ـ معاني لفظ مما وقعت الشركة فيه ، وقد لا يعاب ذلك لأنه عمل علمي ، وإن أضفوا عليه مسحةً أدبية ، كقول الخليل بن أحمد في لفظ (الغروب) :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى ... إذ رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرفي وقد أزمعوا ... ودمع عيني كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرة ... تفتر عن مثل أقاحي الغروب

إذ (الغروب) الأول للشمس ، والثاني جمع (غرب) وهي الدلو ، والثالث جمع (غرب) وهي الوهدة المنخفضة من الأرض [2] .

---

(١) تمكن مراجعة الجناس في (١) فن الجناس ـ علي الجندي : دار الفكر (٢) جنان الجناس ـ الصفدي (٣) أنوار الربيع : ١ : ٩ ـ ابن معصوم (٤) خزانة الادب لابن حجة ٢٥ (٥) نهاية الأرب للنويري : ٧ : ٩٣ (٦) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ١٠٢ (٧) البديع لابن منقذ ٣٣ (٨) الجامع الكبير لابن الأثير ٢٥٦ (٩) الطراز للعلوي : ٣ : ٣٥٠ .

(٢) مراتب النحويين : ٦٠ ـ ط الثانية ـ بتحقيق : محمد أبو الفضل .

قال صاحب كتاب (الذيل والتكملة) [1] في ترجمة ابن هشام اللخمي الأشبيلي :

« وكان لابن هشام تصرف حسن في النظم ، ومنه أبيات ضمنها معاني (الخال) في كلام العرب على اختلافها » وصدر هذه الأبيات :

أقول لخالي وهو يوماً بذي خال   يروح ويغدو في برود من الخال [2]
أما ظفرت كفاك بالعُصُر الخالي   بربة خال لا يزن بها الخالي [3]
تمر كمر الخال يرتج ردفها   إلى منزل بالخال خلو من الخالي [4]

وقد أخذ المراكشي بعد الأبيات يذكر ما نوقش به ابن هشام في نظم المعاني للفظ (الخال) فأتى بمنظومة أبي الطيب عبد الواحد اللغوي التي منها :

ألم بربع الدار بان أنيسه   على رغم أنف اللهو قفراً بذي الخال [5]
مساعِدَ خل أو مُقَضٍّيَ ذمةٍ   ومحيي قتلي بعد سكانه خالي [6]
خلا منهم من حيث لم تخل مهجتي   ولم يخل من نؤى وأورق كالخال [7]
وكم جللت أيدي النوى وصروفها   على الزمن الخالي المحبين بالخال [8]

---

(١) الذيل والتكملة للأنصاري المراكشي - السفر ٦ : ٧١ بتحقيق د . إحسان عباس .

(٢) الخال الأول فيما يبدو : أخو الأم . وذو خال : اسم موضع . والثالث : نوع من النسيج اليمني الموشى .

(٣) العصر الخالي : الماضي . والخال الثاني : نكتة في الوجه يعدونها من الحسن . والخالي الثالث : من المخالاة في المكان .

(٤) مر الخال : مر السحابة أو الغيم . والخال الذي به المنزل اسم مكان . والثالث من خلا بالمكان إذا لزمه فلم يفارقه .

(٥) ذو الخال : اسم الوضع .

(٦) منادى مرخم أصله يا خالد (كما في مراتب النحويين : ٦٦)

(٧) الأورق الرماد والخال : الجبل الأسود .

(٨) الزمن الخالي : الفائت ، والخال الأخير هو الثوب الذي يستر به الميت .

وهي ستة عشر بيتاً على هذا الغرار من التجنيس . قال : وقد أنشد فيها ثعلب ، والمفضل ، وابن مقسم ثلاثة عشر بيتاً ، فاستدرك عليهم أبو محمد بن السيد بقية معاني (الخال) فتم له اثنان وعشرون بيتاً اختلفت رواياتها ، ثم ساقها المراكشي بإحدى تلك الروايات ، ومما روى :

أتعرف أطلالا شجونك بالخال — وعيشاً غريراً كان في العُصُر الخالي[1]
ليالي ريعان الشباب مسلط — عَليَّ بعصيان الإمارة والخالي[2]
وإذْ أناخِذْنٌ للغوى أخي الصبا — وللغَزِل المرِّيحِ ذي اللهو والخال.[3]

ونقل ابن معصوم في (أنوار الربيع) كما نقل غيره قصيدة ابن أصبغ اللغوي في معاني لفظ (العجوز) الذي التزمه في القافية ورده في الحشو ليستوفي اثنين وستين معنى في ثمانية وعشرين بيتاً ، شرحها أبو حيان النحوي وقد استدرك ابن معصوم في سبعة أبيات ما نقصه ابن أصبغ .

ومن مطالع ابن أصبغ :

ألا اُنْبُ من معاطاة العجوز[4] — ونهنه عن مواطاة العجوز[5]
ولا تركب عجوزاً[6] في عجوز[7] — ولا رَوْع ولاتك بالعجوز[8]

(١) الخال الأول : اسم موضع . والعصر الخالي : الماضي .

(٢) الإمارة والخال : الراية .

(٣) ذو اللهو والخال : الخيلاء .

وهي تفسيرات أبي الطيب اللغوي في كتابه : (مراتب النحويين : ٦٠ وما بعدها) .

(٤) الخمر

(٥) المرأة المسنة

(٦) رمكة

(٧) حرب

(٨) العاجز

وإن أزمت بأقوام عجوزٌ[1] فعش فيها بأبوال العجوز[2]
وإن تزر العجوز[3] بلا عجوز[4] فقطره على متن العجوز[5]
وإن غاضت عجوز[6] بني زياد غداة غد لها أهل العجوز[7]
وما إن للعجوز[8] إذا ألمت سوى استعمال أدمغة العجوز[9]

ومن استدراك ابن معصوم عليه :

ومن ركب العجوز[10] فلا يبالي إذا ما اضطر من أكل العجوز[11]
ولا تخلي عجوزك[12] من سهام إذا ما اسطعت أعمال العجوز[13]
وكم أمسى عجوز[14] في عجوز[15] بمرتبة أجل من العجوز[16]

وعلى هذا الغرار نظم يحيى بن سلامة الحصفكي في (الهلال) واستدرك عليه ما نقصه شرف الدين بن بنت أبي سعيد ، وأبيات الأول عشرة ، وأبيات الثاني سبعة عشر ، كلها في (أنوار الربيع) .

إلا أن الأدباء قد نهجوا نهج العلماء في هذا الالتزام ، فكتب ابن تمام السبكي ، يهنىء أخاه قاضي القضاة جمال الدين لتوليه التدريس ، قصيدة قاربت الأربعين بيتاً يلتزم في قافيتها لفظ (عين) نذكر منها هذه الأبيات :

---

(١) سنة شديدة
(٢) البقرة
(٣) البطل
(٤) الترس
(٥) اليد اليمنى
(٦) البئر
(٧) القرينة
(٨) الرعشة
(٩) الأرنب
(١٠) البحر
(١١) طعام من نبات البري
(١٢) الجعبة
(١٣) نصل السيف
(١٤) شيخ
(١٥) صومعة
(١٦) الخلافة

هنيئاً قد أقر الله عيني ... فلا رَمَتْ العِدى أهلي بعين[1]
وقد وافى المبشر لي فأكرم ... بخير ربيئة وافى وعين[2]
يخبرني بأن أخي أتاه ... مناه وسعده من كل عين[3]
فلو سمح الزمان لكنت أعطي ... له ما فيه من ورق وعين[4]
ألا يا شامة الشام افتخارا ... بمن بسناه يغشو كل عين[5]
فتى إن عدت الأعيان قالت ... له الأيام : إنك أنت عيني[6]

ومن المولعين من الأدباء بالتجنيس إظهاراً للقدرة أبو محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات ، ومن ذلك قصيدته التي رد بها على أحمد ابن أبي الفتوح وقد ناهزت الخمسين[7] من الأبيات ومنها :

عرج ـ لك الخير ـ صدور الركاب ... على رُبى كُنَّ مغاني الرباب
وقف بها وقْفَةَ مستعبرٍ ... يسح فيها الدمع سح الرباب[8]
فسنة العشاق أن يعولوا ... في منزل الحب إذا الحب غاب
يا حبذا تلك الربا من ربا ... ظباؤها أفتك من أسد غاب[9]
يعجز من يُشْرِحُ ألحاظَهُ ... فيها ولو كان الذكي النقاب
من كل هيفاء رؤود الخطا ... واضحة الجيد نجول النقاب[10]

---

(١) بحسد.
(٢) العين : الديدبان . الجاسوس المتطلع بعينه .
(٣) العين هنا : الجهة .
(٤) العين هنا : الذهب .
(٥) لعلها بمعنى : كل ذات : كل احد .
(٦) العين هنا مفرد الأعيان : الشرفاء الأماثل .
(٧) خريدة القصر : الجزء الرابع ـ المجلد الثاني : ٥٧٢ .
(٨) « الرباب » في البيت السابق اسم المحبوبة وفي هذا البيت : السحاب الأبيض .
(٩) « غاب » في البيت السابق من الغياب ، وفي هذا البيت الشجر المعروف : أجمة الأسد .
(١٠) « النقاب » في البيت السابق : العالم البحاثة ،وفي هذا البيت :ما تجعله المرأة على وجهها لستره .

وتستبي اللب بدل الصبا ومطعم الإدلال حلو وصاب
كأن ذلك العهد من حسنه روض همي المزن عليه وصاب [1]

ولعلك راء تجنيس كل قافيتين متواليتين في هذه الأبيات .

ومنه قوله[2] :

وأحوى حوى رقي برقة لفظه وغادرني إلف السهاد بغدره
تصدى لقتلي بالصدد وإنني لفي أسره مذ حاز قلبي بأسره
أصدق منه الزور خوف أزوراره وأرضى استماع الهجر خيفة هجره
واستعذب التعذيب منه وكلما أجد عذابي جد بي حب بره
تناسى ذمامي والتناسي مذمة وأحفظ قلبي وهو حافظ سره
له مني المدح الذي طاب نشره ولي منه طي الود من بعد نشره
ولولا تثنيه ثنيت أعنتي بداراً إلى من اجتلى نُورَ بدْرِهِ

واستساغة هذا اللون من الالتزام إنما ترهن بذوق عصره ، فقد كان يبلغ القمة من استطاعه في الثناء عليه ، حتى تنبري الأقلام للسبق إلى النقل عنه ، ولله في خلقه شئون .

(١) « الصاب » في البيت السابق شجر مر العصارة ، وفي هذا البيت : انصب .

(٢) مصدر نقلنا هو خريدة القصر السابق بيانه : ٦٢٤ عن المقامات .

٣ ـ العكس أو التبديل

من أنواع البديع التي تتحقق بالتكرير هذا النوع الذي يسمونه : العكس أو التبديل ، أو المقلوب ، ومنهم من يجعله من صور الجناس .

عرفه أبو هلال بقوله : « أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الأول »[١] : .

وقال الخطيب[٢] : هو أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر » ثم ذكر لذلك وجوها هي :

(١) أن يقع بين أحد طرفي جملة وما أضيف إليه مثل : عادات السادات سادات العادات .

(٢) ـ أن يقع بين متعلقي فعلين في جملتين ، كقوله تعالى : ﴿ يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ المَيِّتَ وَيُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (١٩ : الروم)

(٣) ـ أن يقع بين لفظين في طرفي جملتين ، كقوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (١٨٧ : البقرة) .

والتبديل في الكلام البليغ كثير ، وله هدف قاصد إلى تمكين المعاني وتقرير الأغراض ، فالمثال الأول على ما فيه من جمال النسق ، والواقع يؤكد

---

(١) الصناعتين : ٣٨٥ .

(٢) بغية الإيضاح ٤ : ٢٦ .

المدح ، والثاني يقرر القدرة ، والثالث يؤكد المساواة في الحكم فهو من تكرير التشابه .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ﴾ ٢١ : آل عمران) فإن كلا من الجملتين اللتين وقع بهما تكرير العكس ، فيه التقرير والتأكيد لاثبات القدرة على كمال التصرف في الأضداد ، فإن كثيراً منا قد يقدر على الفعل دون عكسه ، فيكون ذلك نقصاً في قدرته ، وهذا الذي نذهب إليه هو ما يدل عليه صدر السياق : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَن تَشاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشاءُ وَتُعِزُّ من تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٦ : آل عمران) ولهذا كان التذييل بوصف القدرة على كل شيء .

وعلى هذا القياس من التعليل لعودة العكس إلى تقرير الغرض تنظر الأمثلة الآتية :

قول الأضبط :

ويجمع المال غير آكله ... ويأكل المال غير من جمعه !
ويقطع الثوب غير لابسه ... ويلبس الثوب غير من قطعه

كما يفهم تقرير التلازم بين وجود الغنى والمجد في قول المتنبي :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فإن الكمال بوجودهما معاً . وفي انفراد أحدهما النقص .

وقول الحماسي :

رمى الحدثان نسوة آل حرب ... بمقدار سمدن لها سمودا
فرد شعورهن السود بيضاً ... ورد وجوههن البيض سودا

فيه شدة التقرير لهول ما رمين به ، لتغييره ملامح النعمة أجمع ، إذ جمال المرأة في سواد الشعر وبياض الوجه ، فإذا انتقل وصف كل منهما للآخر انتقل الجمال إلى القبح وسوء الحال .

ويظهر تأكيد السببية بين الهوى والدموع في قول الآخر :

لساني كتوم لأسرارهم ودمعي بسري نموم مذيع
فلولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

وتعليلنا هذا لا يدفع عن أسلوب العكس الملامة إذا صار عبثاً ، أو ارتبط بغرض تافه لم تتحرك به العاطفة ، كقول القائل :

معشوقتي جارية ساقية ونزهتي ساقية جارية
جارية أعينها جنة وجنة أعينها جارية

فإنه صورة مصنوعة بذكاء ووعي لاستكمال اللعب باللفظ كتبديل قطع الشطرنج في رقعته .

ما لا يستحيل بالانعكاس :

هذا الأسلوب ملحق بسابقه ، بل هو أتمه في القيام على التكرار الكلي للحروف فضلا عن الكلمات سماه السكاكي مقلوب الكل ، ويسمونه العكس المستوى ، أو المقلوب المستوى ، ودلالة الجميع واحد .

قال ابن حجة : وعرفه الحريري في مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو أن يكون عكس البيت أو عكس شطره كطرده . . وهذا النوع غايته أن يكون رقيق الألفاظ ، سهل التركيب ، منسجماً في حالتي النثر والنظم وجاء منه في الكتاب العزيز ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ (٤٠ : يس) ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (٣ : المدثر) .

والمبرز فيه هو الذي يأتي به رقيق الألفاظ ، سهل التركيب ، رافلا في حلل الانسجام (١) .

وقال العلوي في (القلب) :

« وهو من جملة أفانين البلاغة ، وفيه دلالة على الاقتدار في الكلام والإعراق فيه » ثم قال في (المستوى) منه وهو خامس الأوجه للقلب عنده .

« وهو قليل ، نادر ، صعب المسلك ، وعر المرتقى ، لا يكاد يأتي به إلا من أفلق في البلاغة ، وتقدم في الفصاحة » .

وهو كما وصفوه ؛ حتى لا يتصور الإنسان إتيانه بدفع الوجدان ، وإنما هو - إلا ما ندر - وليد الكلفة ، ولا يحسن مما مثلوا له به إلا القليل ، الذي جاء على ما شرطوه ، كقول القاضي الأرجاني :

مـودتـه تـدوم لـكـل هـول وهـل كـل مـودتـه تـدوم

وتكرير الكلمات فيه ظاهر ، ولكنه ليس المقصود هنا ، بل المقصود التكرير الخفي ، الذي لا يتنبه إليه السامع أو القارىء إلا بالتنبيه إليه ، وهو أن تعاد قراءة الكلمات من آخر حرف ، فتوجد بلا نقص أو تحريف أو تغيير ، شكلا ودلالة ، وهذا سر دقته ووعورة مسلكه ، وتأبيه إلا على فرسان الصناعة .

ولا أنزه عن الشك أن يكون قد جاء على البديهة - كما قالوا - قول العماد الكاتب للقاضي الفاضل وقد مر به راكباً : « سر فلا كبا بك الفرس » ورد القاضي عليه : « دام علا العماد » إذ يقضي كل من التعبيرين أنه سبق إعداده لمثل هذا الموقف ، وقد اعتاد العماد أن يراه راكباً فرسه ، كما عرف القاضي أن العماد من المولعين بتجويد هذه الصناعة .

(١) خزانة الأدب : ٢٩٣ .
(٢) الطراز : ٣ : ٩٥

وإذا كان لونا يقوم على التكرير المقدر دائماً ، والظاهر في الكلمات أحياناً كبيت الأرجاني . فإنه لا المتكلم عن التكرير بمعناه العام تركه .

٤ ـ تشابه الأطراف

لتشابه الأطراف تعريف عند الخطيب لا ينطبق عليه مرادنا ، وقد ألحقه برعاية النظير أو التناسب[(١)] . والذي معنا هو ما يسميه بعضهم (التسبيغ) وقد قال فيه ابن أبي الإصبع بعد ما بين أن الأجدابي سماه الاسم السابق : « فرأيت أن أسمي هذا الباب تشابه الأطراف ، لأن الأبيات تتشابه أطرافها »[(٢)] وقال ابن معصوم : تشابه الأطراف عبارة عن أن يعيد الشاعر لفظة القافية في أول البيت الذي يليها . فتكون الأطراف متشابهة . . . وقد يكون ذلك في النثر أيضاً ، بأن يعيد الناثر القرينة الأولى في أول القرينة التي تليها »[(٣)] .

وعلى هذا الحد فإن التشابه ليس بين طرفي البيت والحد ، ولكنه بين آخر البيت وأول تاليه ، حيث يكون التكرير ربطاً محكماً لتوثيق الغرض المقصود بالتعبير ، والذي يظهر من أمثلتهم أن الألفاظ المكررة لا يشترط فيها اتحاد المعنى ، فقد يتحد كما في النثر من قوله تعالى : ﴿ **اللهُ نُورُ ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ (٣٥ : النور) .

وقد يختلف بالنفي والإثبات كما في قوله تعالى ـ وهو أيضاً من طباق السلب ـ ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ ٱلحَيَاةِ ٱلْدُّنْيَا** ﴾ . (٦ ـ ٧ : الروم) .

(١) بغية الإيضاح : ٤ : ١٨ .
(٢) تحرير التحبير : ٣ : :٥٢٠ .
(٣) أنوار الربيع : ٣ : ١٥ .

وكقول قيس :

إلى الله اشكو فَقْدَ لبني كما شكا ... إلى الله بعد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فجسمه ... نحيل وعهد الوالدين قديم

وقول أبي ذؤيب :

وإن حديثا منك لو تبذلينه ... جنى النحل في ألبان عوذ مطافل
مطافيل أبكار حديث نتاجها ... تشاب بماء مثل ماء المفاصل

وكقول ابن أبي الإصبع من شعره مع اختلاف المعنى بالذات لا بالنفي :

خليلي إن لم تعذراني في الهوى ... ولم تحملا عني الهوى فدعاني
دعاني إليه الحب فالحب آنفاً ... دعاني قلبي إذ دعاه جناني
جناني في سكر فلا رعى عنده ... بكاس بها ساقي الغرام سقاني

غير أن اتحاد المعنى ، أو اختلافه بالسلب والإيجاب أعود على الغرض بفائدة التقرير وتوثيق الربط بين أوصال الكلام ، فلا يبقى للتكرير مع اختلاف المعنى بالذات إلا القيمة السمعية العائدة على الجرس .

ومما تكرر متحد اللفظ والمعنى للتطريب والتأكيد واستطابة الترديد قول أبي حية :.

رمتني وستر الله بيني وبينها ... عشية آرام الكناس رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم أن لا يزال يهيم

وقول عمر بن أبي ربيعة :

فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا ... عشية راحت وجهها والمعاصم
معاصم لم تضرب على البهم بالضحى ... عصاها ووجه لم تلحه النسائم

فهذه الإعادة للألفاظ على وجه تشابه الأطراف ، فيها تركيز لمدلول المكرر وتنويه به ، يلفت النفس إلى المستأنف من أخباره ، على أي وجه يتجه إليه الغرض ، غزلا كان كما مضى ، أو مدحاً كما في قول ليلى الأخيلية للحجاج :

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها دماء المارقين وعلها ... إذا جمحت يوماً وخيف أذاها

ومنه في الذم قول النابغة لتأكيد بيان المفترين عليه :

لعمري وما عمري على بهين ... لقد نطقت بطلا على الأقارع
أقارع عوف لا أحاول غيرها ... وجوه قرود تبتغي من يجادع

وتشابه الأطراف كالمحسنات كلها ، يلذ للسمع ويخف على القلب ، متى قوي به الانسجام والتلاؤم غير ناب به موقعه ، وقد تكرر في أبيات الأخيلية فلم يثقل ثقله في أبيات ابن أبي الأصبع السابقة ، فإن أثر التكلف فيها ينادي على نفسه ، وليس من السداد أن يلتزم بلا داع يوجبه كما التزمه القائل :

ما إن تريم فؤاده أشجانه ... كثرت بها يوم النوى أحزانه
أحزانه لما جرت بعظامه ... من حب من شهدت له أجفانه
أجفانه شهدت له أن الورى ... طرا أذل رقابهم سلطانه
سلطانه برع الجمال بوجهه ... وروادف خضعت لها أركانه
أركانه أبداً تميد إذا مشى ... ويكاد تقطر كفه وبنانه
وبنانه كالخيزران وقده ... قد القضيب زهت به أغصانه

ولا شبهة في الفرق الشاسع بين هذا التكرير الغث والأمثلة السابقة لأبي حية ، وابن أبي ربيعة ، وليلى ، والنابغة ، من كل ما أدى تشابه الأطراف فيه حق

وجوده من خفة على السمع ، ومواتاة للطبع ، وتوثيق لربط ما بعده بما قبله ربطاً فيه ثراء المقصود بالبيان .

قال ابن معصوم : « وفي هذا النوع ـ أعني تشابه الأطراف ـ دلالة على قدرة عارضة الشاعر وتصرفه في الكلام ، وإطاعة الألفاظ له . ولا يخلو مع ذلك من حسن موقع في السمع والطبع ، فإن معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به حتى كأن معنًى البيتين أو الثلاثة معنى واحد . . . فلا عبرة بقول ابن حجة : « ليس تحته كبير أمر . . . » [1] .

٥ ـ رد الاعجاز على الصدور

من الأنواع البديعة التي تعتمد على تكرير اللفظ هذا النوع ، الذي يسمى مع هذا الاسم : التصدير ، ويورده ابن الأثير تحت التجنيس ، وتسميته بالتصدير هي من إطلاق المتأخرين .

يقول ابن ابي الإصبع : « وهو الذي سماه المتأخرون (التصدير) وقسمه ابن المعتز ثلاثة أقسام »[2] وقد أخذ يسوق كل قسم وتعريفه والنقد عليه .

من ذلك يظهر أنه من أسبق أنواع البديع إلى كتب البلاغة ، وقد عرفه الخطيب في النثر بقوله : « وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين ، أو المتجانسين ، أو الملحقين بهما ـ في أول الفقرة والآخر في آخرها »[3] .

وهو يعني أنه يأتي بلفظين قد اتحد معناهما ، وبلفظين قد اختلف معناهما ، وبلفظين لا يجمعهما أصل اشتقاقي ، بعد اتفاق المكرر في الحروف ، أو يجمعهما مع اختلاف الهيأة .

---

(١) أنوار الربيع : ٣ : ٥٠ .

(٢) تحرير التحبير : ١ : ١١٦ .

(٣) بغية الإيضاح : ٤ : ٨٧ .

فرد العجز على الصدر في المكررين المتحدين لفظا ومعنى كقوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (٣٧ : الأحزاب).

وفي المتجانسين المختلفي المعنى كقولهم : سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل ، فإن الأول من السؤال والثاني من السيل ، وكلاهما اسم .

وفي الملحقين بالمتجانسين كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ القَالِينَ ﴾ ، فإن الأول ماضي القول ، والثاني اسم فاعل القلى .

كما عرفه الخطيب في الشعر بقوله : « وفي الشعر أن يكون أحدهما في آخر البيت ، والآخر في صدر المصراع الأول ، أو حشوه ، أو آخره ، أو صدر الثاني » فهذه صور أربع ، كل منها يجري مع واحد من الثلاثة السابقة : المكررين ، والمتجانسين ، والملحقين بالمتجانسين . ولهذا نراه قد التزم التمثيل لأثنتي عشرة صورة .

أمثلة المكررين :

(١) سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعي الندى بسريع
(٢) تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
(٣) ومن كان بالبيض الكواعب مغرما ... فما زلت بالبيض القواضب مغرما
(٤) وإن لم يكن إلا معرج ساعة ... قليلا فإني نافع لي قليلها

أحد المكررين دائما مكان القافية ، والثاني في البيت الأول « سريع » وقع غير مسبوق في صدر مصراعه .

والثاني في البيت الثاني وقع حشو مصراعه « عرار »

والثاني في البيت الثالث وقع آخر مصراعه « مغرما » .

والثاني في البيت الرابع وقع أول مصراع قرينه « قليلا » .

أمثلة المتجانسين :

(١) دعـاني من ملامكما سفاهـا فـداعي الشـوق قبلكمـا دعـاني

(دعا) الأول أمر بمعنى الترك ، والثاني ماض بمعنى الطلب .

(٢) وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانف البلابـل باحتسـاء بلابـل

(٣) فمشغـوف بآيات المثاني ومفتـون بـرنـات الـمثـانـي

(المثاني) الأول من القرآن ، والأخير أوتار الطرب .

(٤) أمـلتـهـم ثـم تـأمـلتـهـم فـلاح لي أن ليس فيهم فـلاح

(فلاح الأول من الفاء والفعل الماضي ، والأخير اسم .

وظاهر أن اللفظ السابق على الترتيب في الأمثلة الأربعة : أول الشطر الأول ، حشوه ، آخره ،أول الشطر الثاني .

أمثلة الملحقين بالمتجانسين :

(١) ضرائب أبدعتهـا في السماح فلسنـا نـرى لـك فيهـا ضـريبـا

الإلحاق من عدم اتحاد الصيغة مع اتحاد الأصل في الاشتقاق .

(٢) إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سـواه بخـزان

اتحد الاشتقاق واختلفت الصيغة

(٣) فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطنين أجنحـة الـذبـاب يضيـر ؟

اتحد الاشتقاق واختلفت الصيغة .

(٤) وقد كانت البيض القواضب في الوغى

بـواتـر فهي الآن من بعـده بتـر

اتحد الاشتقاق واختلفت الصيغة .

واللفظ السابق على ترتيب الأمثلة : أول الشطر الأول ، حشوه ، آخره أول الشطر الثاني .

هذا التصوير الدقيق لمواقع المكرر ونوعه ، يسلمنا إلى أن أكثر التصدير من أمثلة الجناس ، وعلى ذلك فإن حسن الجناس يضاف إلى حسنه .

وقد اختص القسمة ابن المعتز قبل هذا التعمق ، فلم ينظر إلى نوع المكرر وإنما نظر الى موقعه فجعل الأقسام ثلاثة :

١ ـ المكرران طرفان للبيت في مثل :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعي الندى بسريع

وسمي هذا النوع ابن أبي الإصبع (تصدير الطرفين) .

٢ ـ المكرران : آخر المصراع الأول وآخر البيت كقول القائل :

يلفى إذا ما كان يوم عرمرم ... في جيش رأى لا يفل عرمرم

وقد سمي ابن أبي الاصبع هذا النوع (تصدير التقفية) .

٣ ـ المكرران : أولهما في الحشو (مطلقا) والثاني آخر البيت في مثل :

سقى الرمل جون مستهل غمامه ... وما ذاك إلا حب من حل بالرمل

وسماه ابن أبي الإصبع (تصدير الحشو)[1] .

وقد أراد ابن معصوم أن يزيد شيئاً ، فجعل الصور التي خلفها الخطيب ست عشرة صورة ، إذ جعل الملحق بالمتجانسين نوعين ، فجعل المتفقين في الاشتقاق مع اختلاف الهيأة نوعاً ومثل له بأربعة أمثلة تساير ما جرى عليه الخطيب ، ثم جعل المتفقين في اللفظ دون أن يجمعهما الاشتقاق أو الاشتراك نوعاً ومثل له بأربعة على النسق ذاته .

---

(١) تحرير التحبير : ١ : ١١٦ وما بعدها .

وأيّاً ما كان من التقسيم والتفصيل ، فإن التصدير يقوم على التكرير ، وإنه يؤدي معنى دقيقاً غير التردد الصوتي ، بحيث يفقد الكلام هذا المعنى إذا وجد فيه ثم أخليناه منه ، فمقام المقارنة وتقرير الحال في المعاينة ، يقتضي أن يتكرر لفظ الخشية التي هي مناط الغرض في قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ ﴾ (٣٧ : الاحزاب) وتأكيد الذم لابن العم يقتضي ذلك التكرير الحادث لإثبات المفارقة في قول ابن عمه :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه   وليس إلى داعي الندى بسريع

فقد أثبت له السرعة في الحمق ، ونفاها في البر ، ونفى الخير بعد ايجاب الشر تأكيد لثبوته .

وقول البحتري :

على الحي سرنا عنهم وأقاموا   سلام : وهل يدني البعيد سلام ؟

يشعرنا التصدير فيه ـ بتكرير السلام ـ أن الشاعر حزين مبلبل العاطفة ، فالسلام الذي أنشأه من بعيد على الأحباب النازحين ، هو تعويض للنفس الملهوفة على حد قول الرضي :

وتلفتت عيني فمذ خفيت   عني الطلول تلفت القلب

والسلام المعاد على وجه الاستبعاد ، صحوة تجتذب العاطفة إلى جهة العقل ليتولد منها الأسى اليائس ، أو الصبر البائس .

وعلى هذا يمكن أن نرى تكرير التصدير أسلوباً يمليه الموقف ، ولا يجانب العاطفة ، إلا إذا جاء مفتعلا أو على وجه الالتزام الدال على الكلفة ، ومنه قول ابن جابر :

جمال هذا الغزال سحر   يا حبذا ذلك الجمال
هلال خديه لم يغب   عني وإن غيب الهلال
غزال أنس يصيد أسدا   فاعجب لما يصنع الغزال

وهكذا إلى تمام ستة أبيات ، لا يخفى على المتذوق خفاء الروح فيها أو احتجاب العاطفة ، وليس أقل منه في ذلك قول الثعالبي الذي هام به بعضهم :

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانف البلابل باحتساء بلابل

فلا شيء فيه غير إظهار القدرة على استعمال المشترك .

ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها مما اهتم به الدكتور إبراهيم سلامة في كتابه (بلاغة أرسطو . . .) وجعله من صميم الذوق الشعري عند العرب ، وبيَّن أن تسميته خاصة بهم ، وقد ذكر من مزاياه : أنه نوع من الدلالة فيه تقرير وبيان وتدليل ؛ وأن فيه نوعاً من زيادة المعنى ، حاصلا من إيحاء اللفظ الأول بالثاني الذي هو تكرار له ، وأن الأول كما أوحى بالثاني فإنه يذكر به عند الإنشاد ، فهو رابط من روابط التذكر ، وأن هذا التردد نوع من الموسيقا . وأقرب ما يكون إلى الغناء الذي يطلب فيه ترداد بعض الفاظ يدركها السامعون إدراكا وهليا بمجرد الإنشاد ، والموسيقا تحلو على الترداد والتكرير . وفيه فوق كل ما تقدم رونق من حسن السبك في الصناعة ومائية وطلاوة من جمال العرض[1] .

٦ ـ التكرير بالمعنى الخاص

والمقصود به ما كرر فيه اللفظ بمعناه على الوجه الذي عدوه من الإطناب قال ابن معصوم : « وهو عبارة عن تكرير كلمة فأكثر باللفظ والمعنى لنكتة »[2] .

وقد عد من فوائد الزركشي سبعاً مثل لها من القرآن :

أولها : التأكيد ، كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣ ـ ٤ : التكاثر) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدراكَ مَا يَومُ الدِّينِ . ثُمَّ مَا أَدرَاكَ ما يَومُ الدِّينِ ﴾ (١٧ ـ ١٨ : الانفطار) .

---

(١) بلاغة أرسطو : ١٢٧ .

(٢) أنوار الربيع : ٥ : ٣٤٥ .

على أنه إنذار مؤكد ، ولا يمنع التأكيد وجود « ثم » فقد أطلق بدر الدين بن مالك في شرح « الخلاصة » أن الجملة التأكيدية قد توصل بعاطف ، ولم تختص بـ (ثم) وإن كان ظاهر كلام والده التخصيص .

ومن أمثلته : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ . (٣٣ - ٣٤ : طه) .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِم وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٥ : الرعد) .

﴿ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِّن رَّبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (٥ : البقرة) .

﴿ قُل إِنِّي أُمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرتُ لأَن أَكُونَ أَوَّلَ المُسلِمِينَ ﴾ (١١ - ١٢ : الزمر) .

ثانيها : زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، ليكمل تلقي الكلام بالقبول .

ثالثها : إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانيا تطرية له وتجديداً لعهده ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . (١١٩ : النحل)

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِما فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رحيم ﴾ (١١٠ : النحل) .

وقوله : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٤ : يوسف)

رابعها : في مقام التعظيم والتهويل . كقوله : ﴿ الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ ﴾ .

وقوله : ﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ القَدرِ وَما أَدرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَ أَصْحَابُ اليَمِينِ مَآ أَصْحَابُ اليَمِينِ ﴾ .

خامسها : في مقام الوعيد والتهديد . كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣ ـ ٤ : التكاثر).

وذكر « ثم » في المكرر دليل على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وفيه تنبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى . . .

سادسها : التعجب : كقوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (١٩ ـ ٢٠ : المدثر).

فأعيد تعجباً من تقديره .

سابعها : لتعدد المتعلق كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (مكرر في الرحمن) فإنها وإن تعددت فكل واحد منها متعلق بما قبله ، وإن الله تعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن ، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلا من فصول النعم طلب إقرارهم ، واقتضاهم الشكر عليه . . .[1] .

ومما عدوه من فوائد التكرير :[2] .

زيادة التوجع والتحصر : كقول الحسن بن مطير :

فيا قبر معن أنت أول حفرة   من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده   وقد كان منه البر والبحر مترعا

وقول الشاعر :

وهيهات هيهات العقيق وأهله   وهيهات خل بالعقيق نواصله

وزيادة المدح : كقول أبي تمام :

---

(١) مستصفى من البرهان : ٣ : ١١ ـ وما بعدها .
(٢) ينظر أنوار الربيع : ٥ : ٣٤٥ .

بالصريح الصريح والأروع الأر   وع منهم وباللباب اللباب

والتلذذ بذكر المكرر كقول الآخر :

سقى الله نجداً والسلام على نجد   ويا حبذا نجد على القرب والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها   لعلي أرى نجد وهيهات من نجد

فكرر لفظة نجد خمس مرات لتلذذه بذكرها .

هذه فوائد للتكرير يضاف إليها ما أسلفناه في « الأغراض الجزئية » قبل ، فإذا لم يوف التكرير بغرض منها فسقطت مزيته فهو مردود ، وقد فقد العلماء كثيراً من أمثلته العارية عن الفائدة . قال ابن معصوم : ولا ريب في قبح التكرار إذا خلا من نكتة ، كما في قول من كتب إلى محمد بن عبد الملك :

قد بعثنا بتحفة البستان   بكر ما قد جنى من الريحان
ياسمينا ، ونرجساً قد بعثنا   وبعثنا شقائق النعمان

فأجابه بقوله :

عون فض الإله فاك وأدما   ه وأقصاك يا عيي اللسان
حشو بيتيك قد وقد فإلى كم   قدك الله بالحسام اليماني

وبعث إلى الوليد بن عبد الملك عمه عبد الله بن مروان قطيفة وكتب إليه : بعثت إليك بقطيفة حمراء حمراء حمراء . فكتب إليه الوليد : وصلت القطيفة يا عم ، وأنت أحمق أحمق أحمق .

وقال جارية ابن السماك له : ما أحسن كلامك لولا أنك تكثر تكراره .

فقال : أكرره حتى يفهم من لا يفهم . فقالت : فإلى أن يفهم من لم يفهمه فقد مله من فهمه[1] .

---

(١) انوار الربيع : ٥ : ٣٥١ وقد سبق نقلا من البيان والتبين .

٧ ـ الترديد

من الأنواع البديعية التي عمادها التكرير ما يسمى في علم البديع بالترديد ، وهو كما عرفه ابن أبي الأصبع : « أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يرددها بعينها ويعلقها بمعنى آخر »(١) ومن أمثلته :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١٢٤ : الأنعام) فالجلالة الأولى مضاف إليها والثانية مبتدأ بها .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنيا ﴾ (٧ ـ ٨ : الروم) .

الأول منفي منزل منزلة اللازم ، والثاني مثبت متعد إلى المفعول الخاص .

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِن أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ (١٠٨ : التوبة) « فيه » الأول متعلق بالقيام ، والثاني مخبر به مقدم . ومنه قول ابن هانىء :

وقد أهبط الغيث غض الجميم غض الأسرة غض الندى .

واختلاف ما أضيف إليه المردد بيِّن . ومثله قوله :

ويأبى لك الذم طيب النجار وطيب الخلال ، وطيب الشيم

وقول أبي تمام يهجو صالح بن عبد الملك الهاشمي :

---

(١) تحرير التحبير : ٢ : ٢٥٣ .

يا أكرم الناس آباء ومفتخراً   وألأم الناس مبلواً ومختبرا
تغضي الرجال إذا آباؤه ذكروا   لهم ويغضي لهم إن فعْله ذكرا

ولا يخلو مثال من أمثلة الترديد من التنويه بمعنى يستحكم به النظم وتقوى الدلالة، فترديد الجلالة في قوله تعالى: ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ إظهار في مكان الإضمار لسبق الذكر، وإنما عدل إليه لتأكيد استقلال الجملة الثانية الاستئنافية، ليكون أبلغ في الرد والردع.

والمثال الثاني ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى...﴾ إنما ردد الظرف وقدم على المبتدأ لأن الضمير فيه عائد على المسجد الذي هو مناط الاهتمام والأحقية، وهذا الترديد مع التقديم تأكيد لتفضيله على سواه.

وترديد ابن هانئ يفيد تأكيد مدلول المضاف، وأنه وصف لازم للممدوح في كل ما يتصل به.

وترديد أبي تمام في البيت الأول يؤكد المفارقة الغريبة على وجه الشمول في طباق التفضيل، وترديده الإغضاء والذكر في البيت الثاني على وجه المقابلة تأكيد للذم بعد تأكيد.

وهكذا يمكن النظر في أمثلته الآتية:

المتنبي:

وكثير من السؤال اشتياق   وكثير من رده تعليل
ما الذي عنده تطار المنايا   كالذي عنده تدار الشمول

البحتري:

أكرم الناس شيمة، وأتم النـ   ـاس خلقا، وأكثر الناس رفدا
أظهر العدل فاستنارت به الأر   ض وعم البلاد غوراً ونجدا

بشار :

عندها الصبر عن لقائي ، وعندي زفرات يأكلن قلب الحديد

الترديد المتعدد :

ومن الترديد ما يسمونه (المتعدد) وهو كما عرفه ابن أبي الأصبع : أن يتردد حرف من حروف المعاني إما مرة أو مراراً مع تغير مفهوم المسمى لتغير الاسم إما لتغاير الاتصال أو تغاير ما يتعلق بالاسم(١)، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (٥١ : المائدة) حيث اتصل (من) بضميو المخاطبين والغائبين في في الموضعين، مع تضمن « من » معنى الشرط، فغير الترديد مفهوم المؤمنين إذْ جعلهم من الكافرين متى تحقق الشرط.

وقد يتردد الحرف مراراً كما في قول المتنبي :

يا بدر ، يا بحر ، يا غمامة ، يا ليث الشرى ، يا حمام ، يا رجل

وقول السلامي :

والثريا كراية ، أو كلجام أو بنان أو طائر ، أو وشاح

ترديد إيهام التأكيد :

ومن الترديد ما يسمى (إيهام التأكيد) وقد استخرجه زين الدين بن الوردي . قال ابن معصوم : « وهو عبارة عن أن يعيد المتكلم في كلامه كلمة فأكثر مراداً بها غير المعنى الأول ، حتى يتوهم السامع من أول وهلة أن الغرض التأكيد وليس كذلك . . . ولم أقف عليه في شيء من كتب هذا الفن ، وإنما أشار إليه صلاح الدين الصفدي في شرح لامية العجم استطراداً وقال: « إنه في غاية الحسن » .

---

(١) تحرير التحبير : ٢ : ٢٥٣ .

(٢) أنوار الربيع : ٦ : ١٥٩ .

والمقصود بالتأكيد في قولهم هو اللفظي الذي يتبع فيه الثاني ما سبقه في حكمه ، وليس توثيق المعاني وتقرير الغرض بالوجه الأعم الذي هو ميزة في كل ترديد ، وقد مثلوا لإيهام التأكيد ببعض ما سبق : كقوله تعالي : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فيه فِيهِ رِجَالٌ ﴾ حيث يظن السامع قبل التحقيق أن التكرير لتأكيد الأول بالثاني على الإتباع .

ومنه قول أبي نصر الزوزني :

ألا حل بي عجب عاجب تقاصر وصفي عن كنهه
رأيت الهلال على وجه من رأيت الهلال على وجهه

ومن لزين الدين بن الوردي .

تعشقت أحوى لي إليه وسائل وإصلاح أحوالي لديه لديه
أمر به مستعطفا ومسلما فيثقل تسليمي عليه عليه
فلا كان واش كدر الصفو بيننا وبغض تحبيبي إليه إليه

وإنما يقع الإيهام لتجاور اللفظين بلا فصل ، فيظن أن الثاني تابع نحوي للأول وليس كذلك ، لأن متعلقه غير متعلق سابقة، فإن التقدير : ولديه إصلاح أحوالي لديه ، فالثاني خبر المبتدأ ، والأول مرتبط بالمبتدأ متمم لمدلوله .

وهكذا : فيثقل عليه تسليمي عليه وبغض إليه تحبيبي إليه

ترديد الحبك :

هو نوع خاص من التكرير، عرفه ابن أبي الإصبع بقوله: «هو أن تبني البيت من جمل ، تردد فيه كلمة من الجملة الأولى في الجملة الثانية ، وكلمة من الثالثة في الرابعة ، بحيث تكون كل جملتين في قسم ، والجملتان الأخيرتان غير الجملتين الأوليين في الصورة ، والجمل كلها سواء في المعنى : كقول زهير :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا[1]

(١) تحرير التحبير ٢ : ٢٥٣ .

وهو تكرير يجعل الكلام في تماسك واطراد ، كأن جمله يدفع بعضها بعضاً للغاية ، ولهذا سميته في كتاب (الحديث النبوي ـ من الوجهة البلاغية) تصعيد المعاني ، ولكني عنيت منه في الجمل المتوالية ، أن تبنى كل تالية على لفظ من السابقة ، فإن ذلك أتم في معنى الترديد وأكمل في معنى الحبك . وقد جاء منه الكثير في الحديث وكلام البلغاء ، فكان غاية في الجودة ، وتقرير المقصود ، وطيب الجرس . ومما جاء على ذلك من كلامه ﷺ :

« من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هي الجنة »[1] .

« من أحيي سنة من سنتي قد أميتت بعدي فقد أحبني ، ومن أحبني ، كان معي »[2] .

« إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »[3] .

« عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة والملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال »[4] .

« من اقتبس بابا من علم النجوم لغير ما ذكر الله فقد اقتبس شعبة من السحر ، المنجم كاهن ، والكاهن ساحر ، والساحر كافر[5] .

ومن قول الأحنف :

« من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل

---

(١) تيسير الوصول : عن الترمذي .

(٢) نفسه ٢ : ٢٦٨ .

(٣) تيسير الوصول : ١ : ٢٤٦ عن أبي داود.

(٤) تيسير الوصول ١ : ١٠٥ ـ عن أبي داود والترمذي .

(٥) نفسه : ٤ : ٢٨٥ .

ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه »[1] .

وقال يزيد بن أبان :

ليتنا لم نخلق ، وليتنا إذْ خلقنا لم نعص ، وليتنا إذا عصينا لم نمت وليتنا إذا متنا لم نبعث ، وليتنا إذا بعثنا لم نحاسب ، وليتنا إذا حوسبنا لم نعذب وليتنا إذا عذبنا لم نخلد »[2] .

وقال الحسن البصري :

فـرحم الله رجـلا نـظر فتفكـر   وتفكر فأبصر ، وأبصر فصبـر[3]

ونسب إلى الحسين بن علي « رضي الله عنهما » :

الموت خير من ركوب العارِ ا
والعار خير من دخول النارِ
والله من هذا وهذا جاري[4]

(١) لباب الآداب : ١٧ .
(٢) البيان والتبيين : ١ : ٢٦٢ .
(٣) نفسه : ٣ : ١٣٢
(٤) أدب الدنيا والدين : ٢٢٣ .

٨ ـ التذييل

ومن الأنواع التي تقوم على التكرير « التذييل » وهو « تعقيب الجملة التامة نظماً كانت أو نثراً بجملة تشتمل على معناها ؛ لتوكيد منطوقها أو مفهومها ليظهر المعنى لمن لم يفهم ويتقرر عند من فهمه »[١] .

والمقصود منه هنا ما يظهر فيه إعادة صوت الحروف كما في قوله تعالى :

﴿ وَقُل جَآءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (٨١ : الاسراء) فإن لفظ الباطل معاد بصورته ومعناه والزهوق معاد بمادته ومعناها ، للغرض الذي سبق في التعريف . ومثله قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَل نُجَازِي ، إلاَّ الكَفُورَ ﴾ (١٧ سبأ) .

قال أبو هلال : «وللتذييل في الكلام موقع جليل ، ومكان شريف خطير لأن المعنى يزداد به انشراحاً ، والمقصود اتضاحاً . وقال بعض البلغاء : للبلاغة ثلاثة مواضع : الإشارة ، والتذييل ، والمساواة . . . . »[٢] .

وقد بين مقام التذييل من أحوال الخطاب وأثره النفسي في المخاطبين فقال :

وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة والمواقف الحافلة ، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم ، والبعيد الذهن ، والثاقب القريحة ، والجيد

---

(١) أنوار الربيع : ٣ : ٣٩ .

(٢) الصناعتين : ٣٨٧ .

الخاطر ، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد تولد عند الذهن اللقن وصح للكليل البليد »[1] .

ومن الشعر في ذلك قول الحطيئة يمدح :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا ؟

وقول أبي الشيص :

وأهنتني وأهنت نفسي عامداً ما من يهون عليك ممن يكرم

وقول ربيعة بن مقروم :

فَدَعَوْا نزالِ فكنت أول نازلٍ وعلام أركبه إذا لم أنزل ؟

وقول ابن زريق :

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه

وقوله :

والسعي في الرزق والأرزاق قد قسمت بغي ألا إن بغي المرء يصرعه

وقول المثقب وفيه أكثر من مثال :

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرِدْ أن تتم الوعد في شيء : نعم
حَسَنٌ قبل نعم قولك : لا وقبيحٌ قولُ : لا بعد نعم
إن (لا) بعد نعم فاحشة فتلافاه إذا خفْتَ الندم
واعلم ان الذم نقص للفتى ومتى لا تتقي الذم تذم
إن شر الناس من يكشر لي حين يلقاني وإن غبت شتم

وقول المتنبي :

(١) الصناعتين : ٣٨٧.

يفنى الكلام ولا يحيط بوصفكم أيحيط ما يفنى بما لا ينفـد

وقوله :

وقيـدت نفسي في ذراك محبـة ومن وجد الإحسان قيـداً تقيداً

ويستوي في التكرير والغاية ما جرى من التذييل مجرى المثل لصحة انفصاله عما قبله عند المناسبة ، وما لا يجري مجرى المثل لإحكام ارتباطه بسابقه وبنائه عليه .

٩ ـ التعطف

من الأنواع البديعية التي عمادها التكرير هذا اللون المسمى بالتعطف، وهو يمتزج بالجناس وبالترديد لولا ما يلاحظ من فرق طفيف .

عرفه أبو هلال بقوله : أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف[١] . وهو يريد الاختلاف الواقع بين المعاني المدلول عليها باللفظ ذاته ، لا باختلاف ما يتعلق به ، ومعنى ذلك هو ذكر اللفظ المشترك بأحد معانيه ، ثم إعادة ذكره بمعنى آخر منها ، ودليل ذلك التوجيه شيئان :

(١) أنه مثل له بالمشترك المردد باختلاف معانيه . كقول الشماخ :

كادت تساقطني والرحل أن نطقت   حمامة فدعت ساقا على ساق

فالساق الأول ذكر القماري والثاني ساق الشجرة .

(٢) أنه أخرج منه قول امرىء القيس :

ألا إنني بال على جمل بال   يسوق بنا بال ويتبعنا بال

فإن اللفظ المكرر بمعنى واحد في المواضع الأربعة وإن اختلف الموصوف . والعسكري ـ إذن ـ مطالب ببيان الفرق بين التعطف والجناس التام . ومن الملاحظ في تعريفه وتمثيله له بالشعر وبقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٥٥ : الروم) وغير ذلك من النثر ـ أن التعطف غير مقيد بأحد القسمين.

---

(١) الصناعتين : ٤٣٨

ولهذا خصه العلوي بالشعر أولاً ، وأطلقه من جهة الاشتراك أو المحافظة على الهيئة ثانياً ، فكان تعريفه : هو أن يأتي المتكلم بلفظ في صدر البيت ، ثم يأتي في العجز به أو بشيء من مشتقاته . فيخالف الجناس والترديد باختصاصها دونهما بالموضعين من بيت الشعر : الصدر والعجز .

وقد عرفه ابن معصوم في أنوار الربيع التعريف نفسه فقال : أن يأتي الشاعر في المصراع الأول من البيت بلفظه ويعيدها بعينها أو بما يتصرف منها في المصراع الثاني »[1] .

ومن أمثلته على هذا الحد قول أبي الطيب :

فساق إليَّ العرفَ غير مكدِّرٍ ... وسقت إليه الشكر غير مجمجم

وهو من تكرير المجازاة حيث جعل الثاني جزاء للأول ، كما يجيء على وجه التعليل في مثل ما أنشده الأصمعي هرون الرشيد . وقد سأله أبياتاً تجمع محاسن الأخلاق :

فلا تَعْجَلْ على أحد بظلم ... فإن الظلم مرتعه وخيم
ولا تُفْحِشْ وإن ملئت غيظاً ... على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم
ولا تجزع لريب الدهر واصبر ... فإن الصبر في الدنيا سليم

ففي كل بيت من هذه الأبيات مثال للتعطف، وقد ترى أنه من ملحظ آخر مثال للتذييل .

ومما مثل به ابن أبي الإصبع للتعطف قول زهير :

من يلق يوما على علاته هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقا

---

(١) أنوار الربيع : ٦ : ١٤٤

وقول عقيل بن علفة :

فتى كـان مـولاه يحـل بفجـوة   فحـل المـوالي بعـده بمسيـل

وقول أبي تمام :

فلقيت بين يـديك حلو عـطائـه   ولقيـت بيـن يـدي مـر سؤالـه

وقول أبي الطيب :

فسـاق إليَّ العـرف غيـر مكـدر   وسقت إليه المـدح غيـر مـذمم

وهي رواية للبيت مختلفة عما سبق . وقد علق عليه ابن أبي الإصبع بقوله : وهذا البيت أفضل بيت سمعته في هذا الباب ، فإنه انعطفت فيه ثلاث كلمات من صدره على ثلاث كلمات من عجزه ، ففيه بهذا الاعتبار ثلاث تعطفات .

وهذا يخبرنا أن التعطف يجوز أن يكون متعدداً في البيت الواحد . كما أجاز ابن أبي الإصبع مجيئه في النثر كأبي هلال ، ومثل له من القرآن بأكثر من المثال الذي قال العسكري : إنه لم يجد للتعطف في القرآن غيره . ومن هذه الأمثلة .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحُسْنَيَينِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُم أن يُصيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّن عِنْدِهِ أَو بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمُ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (٥٢ : التوبة) .

قال : فإن التعطف في هذه الآية الكريمة في موضعين . ومعنى ذلك أنه عقد بين كل متربصين متقابلين في الآية تعطفا ، كما مثل بقوله تعالى :

﴿ وَأَوفُوا بِعَهدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُم ﴾ (٤٠ : البقرة) .

﴿وَهُم عَنِ الآخِرَةِ هُم غَافِلُونَ ﴾ (٧ : الروم) .

وقد سمى (التعطف) بعض العلماء (المشاكلة) ولكن المشهور أن المشاكلة لها ملحظ آخر ، تفترق به عن التعطف وإن يكن في كل منهما تكرار لفظ .

١٠ ـ المشاكلة

عرف الخطيب المشاكلة بأنها ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً[١] . ونقل هذا التعريف أكثر المؤلفين ، مع الأمثلة التي ذكرها الخطيب، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ﴾ ذكر الجزاء باسم السيئة لوقوعه في صحبتها.

وقول أبي الرقعمق :

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة   فأتى رسولهم إليَّ خصوصا
قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخة   قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

ذكرت خياطة الجبة والقميص بلفظ الطبخ لوقوعها في صحبته .

وقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ذكر جزاء الجهل بلفظ الجهل لوقوعه في صحبته (على هذا الوجه) .

وقول أبي تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها   أني بنيت الجار قبل المنزل

ذكر اتخاذ الجار بلفظ البناء لوقوعه في صحبته ، إذا التقدير : قبل بناء المنزل ، والمقدر كالمذكور .

والمشاكلة ـ كما ترى ـ قائمة على التكرير ، وفيها تخييل حسن لا يخلو عن

---

(١) شروح التلخيص : ٤ : ٣٠٩ .

طرافة تعود على المعنى ، ولذا عدها بعض العلماء من قبيل المجاز ، كما فيها جمال الجرس الناشىء من إعادة الصوت ، فمن عدها في المحسنات المعنوية فله مبررة ، ومن عدها في اللفظية فله وجهته .

١١ ـ الإرصاد أو التسهيم

ومن الأنواع التي عمادها التكرير (الإرصاد) ويسميه بعض البديعيين (التسهيم) كما سماه أبو هلال وقدامة (التوشيح) .

عرفه الخطيب بقوله : « وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى » (١) .

ومثل له من غير الشعر بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٠ : العنكبوت) وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٩ : يونس) .

والأمر ظاهر في إشعار أول الكلام بما عليه الفاصلة ، وبخاصة إذا أضيف النظر إلى السياق الذي عليه الفواصل .

كما مثل الخطيب للإرصاد من الشعر بقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا ـ لا أبا لك ـ يسأم

وقول عمرو بن معد يكرب .

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقول البحتري :

أبكيكما دمعاً ولو أني على قدر الجوى أبكي بكيتكما دما

وقوله :

---

(١) بغية الإيضاح ٤ : ٢١ .

أحلت دمي من غير جـرم وحرمت بـلا سبب يـوم اللقـاء كـلامي
فليس الـذي حللتـه بـمحـلل وليس الـذي حـرمتـه بحـرام

ولا شك في أن صدور هذه الأبيات دوال على ما تختتم به عند من يعرف روى ما هي منه على الأقل .

أما ما يدل على أن الإرصاد هو التوشيح عند أبي هلال ، فانطباق كلامه على ما معنا ، فإنه عرف التوشيح بقوله : هو أن يكون مبدأ الكلام ينبىء عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه ، حتى لو سمعت شعراً وعرفت رويه ، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه ، وخير الشعر ما تسابق صدوره أعجازه . . . كأنه سبيكة مفرغة » (١) .

وقد مثل له بكثير من الأمثلة التي مثل بها العلماء للإرصاد .

ومع سهولة الخطب ـ إن يكن خطب ـ فقد نسب ابن معصوم إلى الصفي الحلي تفريقه بين التوشيح والإرصاد بثلاثة فروق :

الأول : أن التسهيم يعرف به من أول الكلام آخره ، ويعلم مقطعه من حشوه ، من غير أن تتقدم سجعة النثر أو قافية الشعر ، والتوشيح لا يعلم السجعة منه أو القافية إلا بعد تقدم معرفتها .

الثاني : أن التوشيح لا يدلك أوله إلا على القافية فحسب ، والتسهيم يدلك تارة على عجز البيت ، وطوراً على ما دون العجز بشرط الزيادة على القافية .

الثالث : أن التسهيم يدل تارة أوله على آخره ، وطوراً آخره على أوله ، بخلاف التوشيح (٢) .

وذلك غلو في تدقيق فروق الجنس الواحد خير منه الإطلاق ؛ إذ يرجع الجميع إلى غاية واحدة هي إثارة السابق من اللفظ ذكاء المخاطب لتقدير اللاحق

---

(١) الصناعتين : ٣٩٧ .

(٣) أنوار الربيع : ٤ : ٣٣٦

قبل النطق به ، وإدخاله مع المتكلم شريكاً في إتمام الكلام عن طريق التداعي . وهو ـ كما ترى ـ نوع من رد الأعجاز على الصدور ، روعي فيه ملحظ خاص ، هو إشعار السابق باللاحق ، ويمكن للمتأمل أن يأتي بكثير مما سيق هناك ليجعله مثلا هنا ، كقول القائل :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعي الندى بسريع

وقول الآخر :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

وقول الشاعر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري ... أطنين أجنحة الذباب يضير ؟

إلى غير ذلك مما يصدق عليه التعريفان مع التفريق بالملحظ الخاص .

وقد مثل ابن معصوم للإرصاد بكثير ، منه قول ابن أبي ربيعة :

قَدَرَتْ له حيناً لتقتله ... ولكل ما هو كائن قدر
فالشهر مثل اليوم إن حضَرَتْ ... واليوم إن غابت به شهر
وإذا تجلت في الظلام جَلَتْ ... دجْنَ الظلام كأنها البدر

وقول أبي تمام :

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وقول البحتري :

ويا لائمي في عبرة قد سفحتها ... لبين وأخرى قبلها للتجنب
تحاول مني شيمة غير شيمتي ... وتطلب مني مذهبا غير مذهبي

والإرصاد في الواقع من أزهى أنواع التكرير وأدلها على الترابط النفسي لمدلول التعبير ، وله تهش نفس السامع بالتحرك مع المتكلم وانتظار صدق الحدس بما تقدر من اللفظ ، وقد جاء أكثره لتقرير المعاني والأحكام بالتذييل أو التعليل أو الاستدراك أو غير هذا مما لا يخفى على الدارس .

١٢ ـ الازدواج

قال ابن أبي الإصبع : ومن الازدواج نوع يؤتى فيه بكلمتين صورتهما واحدة ومفهومهما واحد ، كقول ابن الرومي :

أبدانهن وما لبسن من الحرير معاً حرير
أردانهن وما مسسن من العبير معاً عبير

وكقول بعض العرب (علقمة) :

ومطعم النصر يوم النصر مطعمه   أني توجه والمحروم محروم

فقوله : ومطعم النصر مطعمه : والمحروم محروم إزدواج [١] .

والازدواج في كل من هذه الأمثلة واقع في جملة واحدة ، فاللفظ الثاني الذي تم به خبر المبتدأ في كل مثال ، على التشبيه في بيتي ابن الرومي ، وعلى تقرير اتصاف المبتدأ بخبره في البيتين الأخيرين ، ففيه عودة على المعنى مع لطف الجرس . ويقاس على ذلك مثل : اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

وقد جعله أبو هلال [٢] في (المجاورة) قال : « هي تردد لفظتين في البيت ووقوع كل منهما بحيث الأخرى أو قريباً منها من غير أن تكون أحداهما لغوا لا يحتاج إليها » وقد مثل لها بأمثلة منها بيت علقمة السابق ، وفرّق بينه ابن أبي الإصبع وبين التجنيس المماثل باختلاف معنى اللفظين في الجناس واتفاقهما في الازدواج .

---

(١) تحرير التحبير : ٣ : ٤٥٢ .

(٢) الصناعتين : ٤٣١ .

واختص الخطيب المزاوجة بالترديد في الشرط والجزاء ، قال في تعريفها :

« هي أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء . قال التفتازاني : « ومعنى ذلك أن يجعل معنيان واقعان في الشرط والجزاء مزدوجين في أنه يترتب على كل منهما معنى هو الذي رتب على الآخر : كقوله :

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى　　أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر »

« زاوج بين نهي الناهي وإصاختها إلى الواشي ، الواقعين في الشرط والجزاء ، في أن يرتب عليهما لجاج شيء » (١)

والمثال للخطيب من قول البحتري ، وقد زاد في الإيضاح مثالا آخر للشاعر نفسه :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها　　تذكرت القربى ففاضت دموعها (٢)

وهذا النوع على تلك الوتيرة أشد اتزاناً في التردد السمعي ، وتمكينا للغرض المقصود بلمح المفارقة ، لأن جملة الشرط مع جملة الجزاء مع ما ترتب على كل منهما في مقام الطباق .

ومثل هذين البيتين قول الآخر :

إذا ما ذكرت الفقر فاحتلت للغنى　　ذكرت هوان النفس فاحتلت للفقر
وإن غرني دهري فأصغيت للمنى　　دعاني الردى : أَبْصِرْ ! فأصغيت للقبر
وذلك عمري انفك إلا ثمالة　　ترنق كأسي . ما بها بلَّةُ الصدر

وقوله :

لعمرك كم في الأرض دَارَكَ لاهثٌ　　فقر ببطن الأرض سجاه ما سجّى
ومهما رجا ساع فأدرك سؤله　　رجا حتفه ساع فأدرك ما رجّى

(١) مختصر المعاني ٣ : ٨٩ .
(٢) بغية الإيضاح : ٤ : ٢٦

١٣ ـ السلب والإيجاب

مما يتكرر فيه اللفظ (السلب والإيجاب) وقد عرفه أبو هلال بقوله : « هو أن يبتني الكلام على نفي الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى ، أو الأمر به من جهة والنهي من جهة أخرى ، وما أشبه ذلك [1] وهو مدلول طباق السلب الذي عرفه الخطيب فقال : « هو الجمع بين فعلي مصدر واحد : مثبت ومنفي أو أمر ونهي » والأمثلة في الموضعين إما واحدة وإما متشابهة . ومنها :

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُوْنَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا ﴾ (٦ ـ ٧ : الروم) وهو بالنفي أولاً والإثبات ثانياً .

ومن الشعر قول السموأل :

ونُنكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

وقول البحتري :

يقيض لي من حيث لا أعلم النوى ... ويسرى إلى الشوق من حيث أعلم

ولأبي الطيب :

ولقد عرفت وما عرفت حقيقة ... ولقد جهلت وما جهلت خمولا

كما قال الآخر :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنهم رزقوا وما رزقوا

---

(١) الصناعتين : ٤٢١ .

ومنه قول امرىء القيس :

هضيم الحشا لا يملأ الكف خصرها وتملأ منها كل حجل ودملج

وقول الحماسي يمدح :

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن

وتكرار اللفظ مع اتحاد الصيغة أو اختلافها ظاهر في هذا اللون ، والمعنى بأصل المادة واحد . وإنما طرأ عليه الاختلاف من خارج هذا الأصل بدخول أداة النفي أو النهي مع اختلاف الصيغة أحياناً .

وليس السلب والإيجاب من أضرب البديع العابثة ، بل هو مما يتأكد به المعنى المقصود : مدحاً ، أو ذماً ، أو غيرهما ، ففي الآية الأولى يؤكد مدلول الأمر بخشية الله مدلول النهي عن خشية الناس ؛ لأن الخشية أمر ثابت ، فإذا صرفها بالنهي عن الناس لزم أن تتجه إلى المقابل الذي أكده بجملة الأمر ، وفي هذا التأكيد تعريض بخطأ المخاطبين وتصحيح لما يجب أن يكون . وفي الآية الثانية ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا** ﴾ فائدة الاحتراس من شك جاهل بالمراد ، وتحقيق لمفهوم العلم المنفي منهم ، فالمثبت لهم كالاستثناء المؤكد للغرض ، وهو أبلغ مما لو قيل : ولكن أكثر الناس لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، لأن الدلالة بجملة مستقلة على العلم المنفي تنزيل له منزلة العدم لعدم الاعتداد به ، واستئناف الدلالة بجملة مستقلة على العلم المثبت بعدما يشبه السكتة بين الجملتين ، فيه إغناء السائل أن يسأل ، وإشباع له بعد التطلع بالجواب ، مع ما في الطباق من إيهام اجتماع الضدين في محل واحد ؛ وما في التكرار من قيمة صوتية .

وعلى هذا يقاس . وابن رشيق في (العمدة) يرى طباق السلب والإيجاب لونا من ألوان التجنيس ، وإذا كان التجنيس يقتضي اختلاف المعنيين تحت اللفظين ، فهما بعد تمام الطباق مختلفان ، وليس في عده منه أو في خروجه عنه كبير خطر .

(١) العمدة : ١ : ٢٨٢ .

١٤ ـ التطريز

التطريز فن بديعي فيه لطف وجمال جرس ، لما فيه من تكرير قد يتعدد ، والذي نعنيه منه « أن يبتدىء المتكلم من ذوات غير مفصلة ، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي قرره في تلك الجمل الأُوَلِ ، فتكون الذرات في كل جملة متعددة تقريراً . والجمل متعددة لفظا ، وعدد الجمل التي وصفت بها الذوات (لا عدد الذوات) عدد تكرار واتحاد لا تعداد تغاير » هذا ما قرره الصفدي ونقله عنه ابن معصوم ، وهوالذي قرره بلفظه ابن أبي الإصبع في (تحرير التحبير) ، قد اختصره صاحب نفحات الأزهار فقال : « هو أن يبتدىء المتكلم بذكر جمل الذوات غير مفصلة ، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي قرره في تلك الجمل الأولى » [1] .

والتعريف دال بذاته على اعتماد (التطريز) اعتماداً أساسياً على التكرير وفائدته بعد التدفق الصوتي إدماج الصفات ، المؤكدة لشدة الربط بين الموصوفات ، وتخييل اجتماعها في صورة مركبة واحدة ، ويتخذ من هذا الأسلوب وسيلة ناجحة لتوثيق الغرض : مدحا ، أو ذماً ، أو غزلا . . مع طرافة تروق الخاطر .

وللتطريز أمثلة كثيرة ، منها قول ابن لنكك يصف :

أقول لصاحبي والراح روح　　لجسم الكأس في كف النديم
وقد حبس الدجى عنا بسواك　　تسيل نفوسها فوق الجسوم

(١) تحرير التحبير : ٢ : ٣١٤ ـ وأنوار الربيع : ٥ : ٣٤٢ ـ ونفحات الأزهار : ٢٥٧ .

ونحن من المسرة في سماء فمن ساري الضياء ومن مقيم
شموسك والكؤوس مع الندامى نجوم في نجوم في نجوم

وقول ابن الرومي يسخر :

أموركم بني خاقان عندي عجاب في عجاب في عجاب
قرون في رؤوس في وجوه صلاب في صلاب في صلاب

وقول المهلبي يصف متنزلا :

تبدّت في قميص اللاذ يسعى عدو لي يلقب بالحبيب
فقلت له : بم استحسنت هذا ؟ لقد أقبلت في زي عجيب ؟
فقال : الشمس أبدت لي قميصاً بديع اللون من شفق الغروب
فثوبي والمدام ولون خدي قريب من قريب من قريب

ولبعضهم .

أيا قمرا تبسم عن أقاح ويا غصنا يميل مع الرياح
جبينك والمقلد والثنايا صباح في صباح في صباح

وقد التزمه الآخر فقال :

كتبت مثالها وجعلت أبكي وأشكو ما أجن إلى المثال
فزار خيالها والليل داج فحي الله ذلك من خيال
فطرتها ، وخالاها ، وبالي ليال في ليال في ليال
وموعدها ، وسلواني ، وصبري محال في محال في محال
وهجري ، والقطيعة ، والتجني دلال ، في دلال ، في دلال
وسفك دمي ، وتعذيبي ، وهتكي حلال ، في حلال ، في حلال
وتفنيدي ، وتعنيفي ، ونهي ضلال ، في ضلال ، في ضلال

ولا يخلو (التطريز) من تهيؤ له ، وأناة في جمع المتشابهات المتناظرة في الاتصاف بالوصف المكرر ، فهو مهما ظهر فيه الانطباع أثر الصنعة والتلطف في

النظر ، ولهذا يبرد إذا اجترأ عليه من لا يحسن التأني . وكيف يكون من جود السليقة المحض دون الانتخاب الصاحي قول عضد الدولة :

طربت إلى الصبوح مع الصباح وشرب الكاس والغرر الملاح
وكان الثلج كالكافور نثراً ونار عند نارنج وراح
فمشروب ، ومشموم ، ونار وصبح ، والصبوح ، مع الصباح
لهيب في لهيب في لهيب وصبح ، في صباح ، في صباح

إنها أبيات أربعة تجمع أضرباً مختلفة من البديع : كرعاية النظير ، والجناس، واللف والنشر المرتب، والتشبيه، والانسجام. . . مع هذا (التطريز) ومما ينبغي التنبيه عليه أن أبا هلال أدخل أمثلة (التطريز) في (المجاورة) التي سبق في حديثنا عن (الازدواج) تعريفها عنده؛ ومما مثل به قول الشاعر[1].

كأن الكأس في يده وفيه عقيق في عقيق في عقيق

وأما (التطريز) عند العسكري فهو الموازنة ، قال في تعريفه هو « أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن ، فيكون فيها كالطراز في الثوب » وقد ساق تحته أمثلة » من التوشيع[2].

(١) الصناعتين : ٤٣١ .
(٢) نفسه : ٤٤٣ .

١٥ ـ المشاركة

تقوم (المشاركة) أو (الاشتراك) على تكرير البيان والتفسير ، عرفها ابن معصوم بأنها « عبارة عن أن يأتي الشاعر بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكاً أصلياً أو عرفياً ، فيسبق ذهن السامع إلى المعنى الذي لم يقصده الشاعر ، فيأتي بعده بما يبين قصده »[١] .

وسبق ذهن السامع الذي أشار إليه التعريف هو أمر تقديري ، يفترضه المتكلم فيبني عليه تفسيره دفعاً للإبهام ، كما يحدث في الجمل المستأنفة الواقعة موقع الجواب من السؤال المقدر ، الذي قد تثيره في ذهن السامع جملة سابقة .

ومن أمثلة المشاركة بهذا التعريف قول كثير .

فأنت التي حببت كل قصيرة ... إليَّ ولم تعلم بـذاك القصائـر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد ... قصار الخطى شر النساء البحاتر

فالقصيرة لفظ مشترك بين المقصورة في الخيام والحجال ، كما في قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ﴾ (٧٢ : الرحمن) وبين قليلة الطول في القامة الذي هو بعد أو قياس ، والثاني هو الأسبق إلى الذهن للشيوع وكثرة الاستعمال ، وليس ما يعنيه الشاعر ؛ لهذا بادر بتعيين مراده من المشترك ؛ ليدفع الإيهام ويحرر القصد ، فالتكرير فيه ليس لتوفير الجرس دون عودة على المعنى ، بل مرده الإفادة الفكرية قبل القيمة السمعية .

ومثل ما سبق قول حارثة بن بدر في سعيد بن قيس :

---

(١) أنوار الربيع : ٥ : ٣٢٠ .

الله يجزي سعيد الخير نافلة أعني سعيد بن قيس قرم همدان

ولا يلزم أن يذكر الشاعر ما يدل على التفسير مثل « عنيت » أو (أعني) أو (أريد) كما فعل كثير وحارثة ، فإن إتباع المشترك بالمكن على وجه البيان كاف في اندراجه تحت التعريف . ومنه قول عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنهما) :«يا سعد سعد بني أهيب ، إن الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس» . وقول سراقة بن مرداس يرثي سيد الأزد عبد الرحمن بن مخنف :

ثوى سيد الأزدين : أزد شنوءة وأزد عمان رهن رمس بكازر

وقول عدي بن زيد :

أين كسرى : كسرى الملوك أنو شروان ؟ أين قبله سابور ؟

وقول ابن ميادة :

ولو أن قيساً : قيس عيلان أقسمت على الشمس لم تطلع عليك حجابها

وقول امرىء القيس :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لحاك الله إنك مرجلي

١٦ ـ المراجعة

مما يقوم على التكرير ما سماه البديعيون (المراجعة) أو (السؤال والجواب) وهو كما عرفوه ، « عبارة عن أن يحكي المتكلم ما جرى بينه وبين غيره من سؤال وجواب ، بعبارة رشيقة ، وسبك لطيف يستحلي ذوقه السامع ، إما في بيت واحد أو في أبيات »[1] .

سماه فخر الدين الرازي (السؤال والجواب) وسماه ابن أبي الإصبع (المراجعة) وقال . إنه من مخترعاته .

ومن المراجعة قول وضاح :

قالت : ألا لَا تَلِجَنْ دارنا ... إن أبانا رجل غائر
قلت : فإني طالبٌ غِرَّةً ... منه وسيفي صارم باتر
قالت : فإن القصر من دوننا ... قلت : فإني فوقه طافر
قالت : فإن البحر من بيننا ... قلت : فإني سابح ماهر
قالت : فحولي إخوة سبعة ... قلت : فإني غالب ظافر
قالت : فَلَيْثٌ رابض بيننا ... قلت : فإني أسد عاقر

وقال أبو نواس يهجو ويعبث :

قال لي يوماً سليما ... نُ وبعض القول أشنعْ
قال : صفني وعليا ... أيُّنا أبقى وأنفع ؟
قلت : إني إن أقل ما ... فيكما بالحق تُجزَعْ

(١) أنوار الربيع : ٣ : ٣٥٠ .

قـال : كـلا . قلت : مهـلا قال : قل لي : قلت: فاسمع
قال : صفه . قلت : يُعْـطِي قـال : صفني . قلت : تمنـع

والمراجعة كثيرة في كلام الماجنين من الشعراء، لقيامها على القص والرواية، ولذا نرى أكثرها عند ابن أبي ربيعة، وأبي نواس وابن حجاج وأشباههم، وقد جاراهم البديعيون في ذلك لاستكمال الفنون في شعرهم، قال ابن الوردي في رد الفعل عند العابثين :

نمـت وابـليس أتى بـحيلة مـنـتـدبـه
فقال : ما قـولك في حشيشـة منتخبـه
فقلت : لا : قال : ولا خمـرة كرم مـذهبـه ؟
فقلت : لا . قال : ولا مـليحـة مُـطَيَّـبَـهْ
فقلت : لا . قال : ولا أغيـد بالبـدر أشتبه ؟
فقلت : لا . قال : ولا آلـة لهـو مـطربـه ؟
فقلت : لا . قال : فنم مـا أنت إلا خشبه !

وقد عارضه الصفي الحلي فقال في ضد مذهبه :

ولـيلة طـال سـهـادي بهـا فـزارني إبليس عنـد الـرقـاد
فقال لي : هل لك في شمعة كيِّسـةٍ تطرد عنـك السهـاد ؟
قلت : نعم . قال: وفي قهوة عتقها العاصر من عهد عـاد
قلت : نعم . قال : وفي مطرب إذا شدا يرقص منه الجماد ؟
قلت : نعم . قال : وفي طفلة في وجنتيهـا للحيـاء اتقـاد ؟
قلت : نعم . قال : وفي شادن قد كحلت أجفانه بالسـواد ؟
قلت : نعم . قال : فنم آمنا يا كعبة الفسق وركن الفساد !

والمراجعة قد تجتمع مع المذهب الكلامي؛ ومع أسلوب الحكيم أو القول بالموجب وهو «حمل كلام وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر

متعلقه »[1] .

وتعريف ابن أبي الإصبع لأسلوب الحكيم يدل على التكرير ، حيث قال : هو « أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام ، فيعمد المخاطب إلى كلمة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظها ما يوجب عكس معنى المتكلم »[2] .

ومن ذلك قول الشاعر :

قلت : ثقلت إذ أتيت مرارا   قال : ثقلت كاهلي بالأيادي
قلت : طولت قال : بل تطولت   وأبرمت ! قال : حبل ودادي

وقول ابن نباتة :

وملولة في الحب لما أن رأت   أثر السقام بعظمِيَ المنهاض
قالت : تَغَيَّرنا ! فقلت لها : نعم   أنا بالسقام وأنت بالإعراض

ولأبي المحاسن الوشاء :

ولما أتانا العاذلون ـ عدمتهم ـ   وما فيهم إلا للحمى قارض
وقد بهتوا لمّا رأوني شاحباً   وقالوا : به عين فقلت : وعارض

وللشهاب محمود :

رأتني وقد نال مني النحول   وفاضت دموعي على الخد فيضا
فقالت : بعيني هذا السقام   فقلت . صدقت وبالخصر أيضاً

فالمراجعة حاصلة بترديد القول ، وأسلوب الحكيم حاصل بحمل كلام المخاطب على غير ما أراد تنبيها على أنه أولى بحمل الكلام عليه ، وأياما كان فإنه قائم على التكرير ، انفرد عن غيره أو اجتمع معه ، إلا أن اجتماعهما مما يدق به المعنى ويلطف ، فيكون أعلى طبقة من سرد الحكاية لأن فيه توليد المخالفة للقائل من شبه الموافقة والتسليم .

---

(١) أنوار الربيع : ٢ : ١٩٩ .

(٢) تحرير التحبير ٥٩٩ :

١٧ ـ التخيير

من الفنون التي عمادها التكرير ما سماه البديعيون (التخيير) وهو أن يأتي الشاعر ببيت يسوغ أن يقفى بقواف متعددة . . »[١] .

وقد افتتن شعراء البديع فيه افتتانا عجيبا ، حتى ذكر الصفدي في شرح اللامية أن بعض الشعراء نظم ما يزيد على العشرين بيتا على أربع وعشرين قافية ، حيث تنشد الصدور على اختلاف القوافي مكررة أربعا وعشرين مرة . كما جعل ابن الصيرفي هذين البيتين بقواف على جميع حروف المعجم وهما :

لما غدوت مليك الأرض أفضل من ... جلت مفاخره عن كل أطراء
تناثرت أدوات النطق فيك على ... ما يصنع الناس من نظم وإنشاء

ومن تكرير القوافي مع اتحاد ما قبلها قول ديك الجن :

قولي لطيفك : ينثني ... عن مضجعي عند المنام
فعسى أنام فتنطفي ... نار تأجج في عظامي
جسد تقلبه الأكف ... على الفراش من السقام
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من دوام ؟
قولي لطيفك ينثني ... عن مضجعي عند الهجوع !
فعسى أنام فتنطفي ... نار تأجج في ضلوعي
جسد تقلبه الأكف ... على الفراش من الدموع
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من رجوع ؟

(١) أنوار الربيع : ٢ : ١٤٩ .

وهكذا تنتقل القوافي الأربع إلى : (الرقاد ـ الفؤاد ـ من القتاد ـ من معاد) .

ثم إلى : (الهجود ـ في كبودي ـ من الوقود ـ من وجود) .

ثم إلى (الوسن ـ في البدن ـ من الحزن ـ من ثمن) .

قالوا : إن أول من نبه إلى ذلك اللون البديعي ؛ هو جني بَشَّرَ سواد بن قارب الصحابي (رضي الله عنه) بظهور النبي (ﷺ) وكان رئيا له ، إذ جاءه في نومه ليلة بعد ليلة ينشد هذه الصدور كل مرة من الليالي الثلاث بقافية :

عجبت للجن وتطلابها	وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ما صادق الجن ككذابها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم	ليس قداماها كأدبارها
عجبت للجن وتحساسها	وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهوى	ما طاهر الجن كأنجاسها
فارحل الى الصفوة من هاشم	وأرم بعينيك إلى رأسها

قال سواد يحكي هذه القصة لعمر (رضي الله عنه) وقد استحكاه : فرحلت ناقتي وأتيت المدينة ، فإذا رسول الله (ﷺ) وأصحابه حوله فانشأت أقول :

أتاني نجي بين هدو ورقدة	ولم أك فيها قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة	أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمرت عن ذيلي الإزار ووسطت	بي الذعلب الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لا رب غيره	وأنك مأمون على كل غائب
فكن لي شفيعا يوم لاذو شفاعة	بمغن فتيلا عن سواد بن قارب[1]

(١) ينظر الاستيعاب ٢ : ٦٧٤ ـ أسد الغابة : ٢ : ٣٧٥ ـ بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٩ مع أنوار الربيع : ١٥٣ .

١٨ ـ التوأم

افتتن البديعيون افتناناً أشد في ذلك النوع القائم على التكرير من البديع والذي سموه (التوأم) و (التشريع) و (التوشيح) على خلاف بين الخطيب ومعه الأجدابي ، وبين ابن الأثير والعلوي وغيرهم في التسمية .

وخلاصة ما يعرف به ، أنه بناء بيت أو أكثر على تعدد القافية ، بحيث يقرأ كاملاً فيكون سليما على قواعد العروض والقافية ، فإذا نقص انتقل الى القافية الأخرى مع سلامة القواعد ، والذي يعنينا منه ما قام على التكرير ، وهو نوع من البناء الفارسي للشعر يسمى (المربع) لبنائه على أربع كلمات يتألف منها باختلاف أوضاعها أربعة أبيات مقفاة بروي واحد ، لو وضعت في جدول ذي ستة عشر بيتاً كما في علم الأوفاق ، لقرئت من اليمين إلى اليسار على الترتيب كما تقرأ من الأعلى إلى الأدنى دون فرق ، ولنجعل مثالها هكذا :

	١	٢	٣	٤
١	فؤادي	سباه	غزال	ربيب
٢	سباه	بقد	كغصن	رطيب
٣	غزال	كغصن	جناه	عجيب
٤	ربيب	رطيب	عجيب	حبيب

إنه بناء يعوزه الصبر ، ولا يمكن أن يكون نتاج الوجدان ، ولكنه طريف الهندسة الشكلية والسمعية ، ولا يسع المتكلم على أنواع التكرير بالمعنى العام تركه .

والأبيات الأربعة المذكورة من شعر الوطواط ، وكان شعراء العصر مولعين

بالإفراط في الصنعة ، وقد جمعت دواوينهم ، وكتب البلاغة التي عنيت ببديعهم - كثيراً من صور التكلف لألوان الافتنان .

والموشحات التي استكثر من أنواعها شعراء الأندلس أمثلة للتكرير الملتزم أو شبه الملتزم في أعم ما وصل إلينا ، ويخرجنا عن القصد أن نسير معها إلى الغاية ، فحسبنا أن نوجه بهذه الإشارة إليها من شاء الاتساع .

١٩ ـ التفريع

مما عماده التكرير (التفريع) وحقه أن يرد إلى الترديد ، فقد تضمنت أمثلة الترديد كثيراً من أمثلته وليس بين بعض الأنواع في التفريع وبينه فرق في التعريف .

فهو ثلاثة أنواع : نوع متعارف قال فيه الخطيب : « أن يثبت لمتعلق أمر حكم ، بعد إثباته لمتعلق له آخر ، على وجه يشعر بالتفريع والتعقيب[(١)] وذلك كقول الكميت :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفي من الكلب

قال : « فرع من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل ، وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلب » .

والنوع الثاني استنبطه ابن أبي الإصبع ، قال : « التفريع نوعان أحدهما أن يبدأ الشاعر بلفظة ، هي إما اسم وإما صفة ، ثم يكررها في البيت مضافة إلى أسماء، وصفات يتفرع من جملتها أنواع من المعاني ، في المدح وغيره : كقول أبي الطيب المتنبي :

أنا ابن اللقاء ، أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب ، أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي أنا ابن السروج ، أنا ابن الرعان
طويل النجاد ، طويل العماد طويل القناة ، طويل السنان
حديد اللحاظ ، حديد الحفاظ حديد الحسام ، حديد الجنان

(١) بغية الإيضاح : ٤ : ٥٧ ـ مختصر المعاني للسعد : ٣ : ١٠٨ .

وهذا النوع لم أسبق إلى استخراجه ، وإنما لم أثبته فيما ابتكرته من الأبواب لكونه نوعاً من التفريع ، فالذي يجب أن يسمى به تفريع الجمع ، لأن كل بيت ينطوي على فروع من المعاني شتى من المدح تفرعت عن أصل واحد »(1) .

وقد سبق تعريف ابن أبي الإصبع للترديد بقوله : « أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يرددها بعينها ويعلقها بمعنى آخر »(2) .

ومن الأمثلة التي مثل بها العلماء للترديد ما يشترك مع البيتين الثالث والرابع من أبيات أبي الطيب السابقة مثل قول الآخر :

ويأبى لك الذم طيب النجار وطيب الحلال ، وطيب الشيم

والذي نراه أن الترديد بتعريفه أعم « أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى . . » والتفريع في هذا النوع أخص « أن يبدأ الشاعر بلفظة إما اسم وإما صفة ، ثم يكررها . . . » فاللفظ المكرر في الترديد يكون من أقسام الكلمة الثلاثة ، ولكنه في التفريع مقيد بالاسم والصفة ، لذلك اجتمعا في مثال واحد بملحظين .

النوع الثالث من التفريع ذكره الزنجاني في (معيار النظار) وقد سماه البديعيون (النفي والجحود) لأن فيه نفى أن تكون الصفة في غير المراد إثباتها له أشد ظهوراً من وجودها فيه ، فمحله التفضيل المسبوق بالنفي ، والمؤدي إلى المبالغة في إثبات الصفة للمفضل عليه . قال ابن معصوم : « وهو أن يأخذ المتكلم في وصف فيقول : ما كذا ، ويصفه بمعظم أوصافه اللائقة به في الحسن والقبح ، ثم يجعله أصلا يفرع منه معنى ، فيقول : بأفعل من كذا ، وهو المعنى المشهور للتفريع(3) .

(1) تحرير التحبير : ٣ : ٣٧٣ .
(2) نفسه : ٢ : ٢٥٣ .
(3) أنوار الربيع : ٦ : ١١٢ .

والذي يختص منه بموضوعنا ما كرر فيه اللفظ في طرفي المفاضلة كقول ابن سناء الملك :

إليك فما بدر المقنع طالعا بأسحر من ألحاظ بدري المعمم

يقصد القمر السحري الذي صنعه المقنع الخراساني ليظهر في الليل ، فيضلل العامة ليصدقوه في ادعائه الربوبية .

وكقول الآخر :

وما شوق أعرابية بان دارها وحنت إلى وادي الحجاز ورَنْدِهِ
بأكثر من شوقي إليكم وإنني رماني زماني في البعاد بجهده

وقول ابن زيدون :

وما شوق مغلول الجوانح بالصدى إلى نطفة زرقاء أضمرها وَقْطُ
بأبرح من شوقي إليكم ودون ما أدير المنى عنه القتادة والْخَرطُ

ومن رثاء متمم بن نويرة أخاه :

فما وجد أظآر ثلاث روائم رأين مجراً من حوار ومصرعا
ولا شارف جَشَّاءَ ريعت فرجَّعَتْ حنينا فأبكى شجْوُها البرْك أجمعا
بأوجد مني يوم فارقْتُ مالكا ونادى به الموتُ الحبيبِ فأسمعا

وعلى أي حال من هذه الأحوال نرى التفريع يؤدي وظيفة نفسية ، فإن فيه إشباعَ الوجدان بتأكيد ما سبق الكلام من أجله ، زهواً وفخراً كما في أبيات المتنبي ، أو مدحاً ، أو حنيناً ، أوتحزنا كما في بقية الأمثلة ، مع ما فيه من قيمة صوتية يشتد ظهورها . في النوع الذي استنبطه ابن ابي الإصبع وجاءت عليه أبيات أبي الطيب وأشباهها .

٢٠ ـ التفريق

عرفه الخطيب ونقل غيره عنه بلا فرق فقال . « هو إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو غيره »[١] فإذا كان اللفظان الدالان على الأمرين من حروف واحد فقد وقع التكرير .

وقد مثل له الخطيب بقول رشيد الدين الوطواط :

ما نوال الغمام وقت ربيع	كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة عين	ونوال الغمام قطرة ماء

فأنت ترى أنه نفى المماثلة بين النوالين في البيت الأول مفرقا بينهما على الإجمال ثم علل في البيت الثاني بما يؤكد التفريق بينهما ، كما ترى أن النوال قد ردد أربع مرات ، والغمام مرتين ، والأمير مرتين .

وقد يخف التكرار في التفريق فلا يوجد ظاهراً بهذه الكثرة ، كما في قول بعضهم :

من قاس جدواك يوماً	بالسحب أخطأ مدحك
السحب تعطي وتبكي	وأنت تعطي وتضحك

فخطأ القياس دليل التفريق المجمل في البيت الأول ، وبيان وجه المفارقة تأكيد وتفصيل في الثاني ، وقد تكرر فيه الخطاب ، والسحب ، والعطاء .

---

(١) بغية الإيضاح : ٤ : ٣٧ . أنوار الربيع : ٢٥٩ .

ومثله في المعنى :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين شكلين
أنت إذا جدت ضاحك أبداً وهو إذا جاد دامع العين

ومنه قول المؤمل المحاربي :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوي الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته وذا يمر فلا يحلو له ثمر

وهذا الضرب من التفريق يكثر في المبالغة عند قلب التشبيه الظاهر أو المفهوم ضمنا ، كقول الشاعر :

أتبكي ونبكي غير أن الأسى دموعه غير دموع الدلال

٢١ ـ الجمع مع التفريق

في الأمثلة السالفة وجدنا التفريق يطالعنا في النفي وما أشبهه من أول الأمر، ثم يأتي بعده ما يزيده تقرراً بالتعليل المفصل.

ولكنا هنا أمام جمع الشيئين في حكم أو وصف، ثم التفريق بينهما ثانياً وقد عرفه الخطيب بقوله: «هو أن يدخل شيئان في معنى واحد، ويفرق بين جهتي الإدخال»[١].

ومن أصدق ما يقع عليه التصور فيه ما سبق أن مثلنا به لتكرار المفارقة:

وللزنبور والبازي جميعاً   لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز   وما يصطاده الزنبور فرق

ومنه قول مهيار وقد مثلوا به للتفريق السابق بيانه:

أتبكي ونبكي؟ غير أن الأسى   دموعه غير دموع الدلال

فالزنبور والبازي جمعهما الطيران وخفق الأجنحة، وفرقهما اختلاف الصيد في الجنس والقيمة، والشاعر ومخاطبه جمعهما البكاء، ثم فرقهما الباعث عليه.

والألفاظ المكررة بارزة لا يعوزها البيان.

وقد مثل له الخطيب بقوله تعالى: ﴿ وجَعَلْنَا اللَّيلَ والنَّهارَ آيتينْ فَمَحَوْنَآ آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَآ آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً ﴾ (١٢ : الإسراء).

---

(١) بغية الإيضاح : ٤ : ٣٩.

ومن أمثلته في (أنوار الربيع)[1] قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَالَّتِي لَم تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا المَوْتَ ، وَيُرسِلُ الأُخْرَىٰ إلى أَجَلٍ مُّسَمىً ﴾ (٤٢ : الزمر) .

وقول مروان بن أبي حفصه :

تشابه يوماه عليه فأشكلا   فما نحن ندري أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه   وما منهما إلا أغر محجل

والتفريق بين أيام الممدوح في جنس واحد وهو أعلى المكارم ، جاء على تجاهل العارف ، بعد الجمع بين يوميه بالتشابه الذي هو أعلى من التشبيه في اتحاد الصفات المشتركة ، وكل ذلك مؤكد للغرض المسوق له الكلام وهو المدح .

وقول البحتري :

ولما التقينا والتقا موعد لنا   تعجب رائي الدر حسناً ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها   ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

لقد جمع بين الدرين المجازيين في التعجب ،وفرق بينهما بما يجلي عنه وما يساقطه . والأول أسنانها والثاني كلماتها ، ومشرق الجميع الثغر .

ويقول التهامي :

قالوا : تأس بجفنها في سقمه   شتان بين سقامه وسقامي
سقم الجفون ـ وإن تزايد ـ صحة   أبداً وسقمي قد أذاب عظامي

فالجمع بين أجفان المحبوب والشاعر في الاتصاف بالسقم ، والتفريق أولاً على وجه الإجمال بلفظ « شتان . . » ثم بالبيان والتعليل الظاهر في ثاني البيتين .

ومما استلطف منه قول أعرابي سمع صوت دواليب الماء :

(١) أنوار الربيع : ٥ : ١٦٨

بكرت تحن وما بها وجدي | وأحن من وجد إلى نجد
فدموعها تحيا الرياض بها | ودموع عيني قرحت خدي
وبساكني نجد كلفت وما | يغني لهم كلفي ولا وجدي
لو قيس وجد العاشقين إلى | وجدي لزاد عليه ما عندي

ومن أمثلته ـ وما أكثرها ـ قول أبي تمام :

غيثان : فالأنواء غيث ظاهر | لك وجهه والصحو غيث مضمر

٢٢ ـ التقسيم

للتقسيم عند البديعين أضرب منها ما يكثر فيه التكرير ، وهو الذي عبر عنه الخطيب بقوله : « استيفاء أقسام الشيء بالذكر»(١) والذي عناه ابن معصوم بقوله : « أن يذكر قسمة ذات جزئين أو أكثر ثم يضيف إلى كل واحد من الأقسام ما يليق به »(٢) ويتضمن ذلك التعريفُ الثاني مع التقسيم التفريق .

ومن أمثلة هذا النوع عند الخطيب ، تقسيم ميراث الكتاب في هذه الآية بين المصطفين من العباد :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِن عِبَادِنَا : فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (٣٢ : فاطر) .

وقوله تعالى في تقسيم المقدور من النسل :

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً. وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الـذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانـاً وَإِنَاثاً، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٤٩ ـ ٥٠ : الشورى).

وقول زهير يقسم العلم على ظروف الزمان :

وأعلم علم اليــوم ، والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي

وقول طريح في تقسيم العلم على أحوال أعدائه :

إن يعلموا الخيرَ يخفوه ، وإن علموا شراً أذاعوا ، وإن لم يعلموا كذبوا

(١) بغية الإيضاح ٤ : ٤٢

(٢) أنوار الربيع ٥ : ٢٩٣

وقول نصيب يقسم القوم فرقا في الجواب بما لا جواب غيره :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم : نعم : وفـريـق قـال : لا أدري

ومما ذكره ابن الأثير[1] في صحة التقسيم قوله تعالى :

﴿ وَكُنْتُم أَزْوَاجاً ثَلاثَةً فَأَصحَابُ المَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ ، وأَصْحَابُ المَشأَمَةِ مَآ أَصْحابُ المَشـأَمَةِ ، والسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ أُولَئِـكَ المُقَرَّبـونَ ﴾ . (٧ ـ ١١ : الواقعة) .

والأمثلة جميعاً ملحوظ لناظرها التكرير اللفظي ، والآية الأخيرة فيها ـ مع التكرير للأصحاب على وجه التقسيم ـ تكرير التفخيم والتهويل في « ما أصحاب الميمنة» و« ما أصحاب المشأمة» ثم تكرير التأكيد لصفة التكريم في « السابقون السابقون » ومنه قول بعض الاعراب ، « النعم ثلاث : نعمة في حال كونها نعمة ، ونعمة ترجى مستقبلة ، ونعمة تأتي غير محتسبة ، فابقى الله عليك ما أنت فيه ، وحقق ظنك فيما ترتجيه ، وتفضل عليك بما لم تحتسبه » .

(١) الجامع الكبير : ٢٢٠

التكرير في الدراسات المعاصرة

هذه إلمامة سريعة بما اعتمد على التكرير بمعناه العام من أضرب البديع ، مما يشهد لتلك الظاهرة الأسلوبية في حياتنا الأدبية والنفسية بالأصالة ، وقد رأينا الوشائج القويـة بين التكرير على أي وجه أتى وبين المثير النفسي ، كما رأينا ارتباط التكرير بالإثارة للمستمع في شتى الأغراض ، لأنه اتكاء على اللفظ المحرك لأوتار النفوس حزنا وبهجة ، من نفس يصور انفعالها بالوجود هذا الاتكاء الشاجي ، فوق ما له مطلقا من قيمة سمعية تشبه تردد الألحان من أوتـار المعازف ، والآن ننتقل إلى بعض الدراسات المعاصرة لظاهرة التكرير .

(١) في البلاغة الغنية

كتاب (البلاغة الغنية) أحد المؤلفات الحديثة في المادة ، وهو لأستاذي الصديق على الجندي (رحمه الله) وقد أودع كتابه هذا فصلاً ضافياً في (التكرار) هو الثامن والأخير منه ، في سبع وثلاثين صفحة[١] ودراسته ـ ككل ما تناول قلمه ـ ثمرة اطلاع واع ، وإحاطة شاملة ، وحسن تخطيط ، ونضج شاعرية ، وإصابة نقد .

جمع الأغراض التي استحسن فيها الأسلاف ظاهرة التكرير ، ومثل لها مع أمثلتهم بما يطابقها . وأتى بطائفة مما عيب من التكرار على ذويه من رجال النقد والبلاغة ، وتحدث عن طائفة من أمثلة التكرار في القرآن الكريم ، مقرراً ما قاله العلماء في أسبابه ، خاتما بحثه برأي بعض نقاد الغرب وبكلمة مقارنة بين

---

(١) البلاغة الغنية : ١٧٣ ـ ٢٢٠ ـ نهضة مصر ١٩٥٦

أسلوب الجاحظ وطه حسين ، ثم بكلمة في الترادف ، واختلافه باختلاف الأمزجة ، وهو أوفى سخاء على ذهن الدارس للموضوع دراسة عامة ، من كل دراسة للتكرار قد سبقته لإلمامه بأكثر ما يحتاج إليه راغب المعرفة في هذا الصدد ، مع سعة التطبيق التي كانت شأن المؤلف الصديق والأستاذ أكرم الله مثواه .

(٢) في قضايا الشعر المعاصر

(قضايا الشعر المعاصر) كتاب للشاعرة الناقدة نازك الملائكة ، يختص فصلاه الثاني والثالث بموضوع « أساليب التكرار في الشعر » الحديث . وهو ـ على ما أرى ـ خير ما كتب في تطوير بحث هذه الظاهرة ، بما يواكب العصر ، وحركات التجديد في شعره ، وخير ما يسدي إلى هذا الموضوع من كتب البلاغة الحديثة والنقد المعاصر لأنه لمسات نابضة بالحياة الوجدانية لأوتار تعزف شجو تلك الحياة ، تريد بهذه اللمسات سلامة الإيقاع من النشاز وبعث النشوة بالنغم .

فالتكرار قانون من قوانين الفنون التي منها الشعر ، وله منه مكانه إذا أصاب موقعه .

وقد أدرك النقاد ذلك من القدم ، فاستحسنوا منه ما جاء صاحباً لانفعال النفس وحقق جانباً من حلاوة الجرس ، فكان له من لوني الموسيقا الخارجية والداخلية نصيبه المرموق . كما أسقطوا بالنقد الجريء كثيرا من تكرار أفذاذ الشعر ، الذين جانب تكرارهم هذا النمط ولو كان أحدهم المتنبي العملاق ، وأبو تمام الشاهق .

وظاهرة التكرار لم تكن قليلة الشيوع في هذا العصر ـ كما ترى الناقدة أنها شاعت لدى المعاصرين على صورة أوسع ، حتى أصبحت محاولة فنية ووسيلة تعبيرية يميل إليها شعراؤنا عن قصد ، وحتى عدت في فترة من هذا القرن لونا من ألوان التجديد ـ فإن الشعر القديم على اتساع ديوانه ، متحف كبير تلمع في

جوانبه ألوان هذا الأسلوب أنى اتجهنا، ومن شعراء تلك العصور من لو دعوناه شاعر التكرار لصدقنا : كأبي العتاهية والمتنبي ، وذلك حكم يستساغ ما دام الشعر لغة العاطفة ولسان الانفعال ، وما دام التكرار ظاهرة تلزم التعبير المتكىء على أفراح النفس وأحزانها تقريراً للانطباع بالمثير الباعث على الشدو ، ولهذا قرنه الأسلاف من النقاد بفنون الشعر القائمة على هذه الانفعالات ، وطبقوا النظر على المسموع منه فأحسنوا التطبيق .

والبلاغيون القدماء ـ والبلاغة يملي مسائلها المذهب ـ قد أخذت للتكرير معاييره ، وميزات أجناسه ، وفصلت مواقعه ، وأعطت كل نوع منه ما يفرقه عن غيره من سمات على الوجه الذي أسلفنا صوره المصغرة في الكلام على البديع . وهم جميعاً ـ دون استثناء ـ يسقطون عن عرش الجمال الفني كل تكرير لا يستره الطبع ولا يجري فيه نفس العاطفة ، وذلك نفسه ما تدعو إليه الناقدة . إلا أنا مع رأيها في استحداث عصرنا لهذا اللون الجديد من شعر الهمس ، الذي صحبه في حركة التجديد ظواهر أسلوبية كثيرة منها الاعتماد على التكرار ، ولا نشك أن هذا الشعر لو سبق به الدهر على ما نراه الآن ـ لأخذت أفكار الأسلاف وأقلامهم في رصده وإبداء النقد عليه ، مأخذها من ظهور مدرسة بشار وأبي تمام ومسلم وغيرهم .

وإذا كنا بذلك نعرف حق القدامى ، فإننا لا يمكن أن ننسى أن صاحبة البحث قد سبقت نقاد العصر في أداء شطر من واجب ، ليس بالقليل ما بذلت فيه من جهد ، إذ أضفت على بحثها من شفافية النظر وحدته معاً ما يعد به تجديداً في القاعدة تجديداً في التطبيق ، منبعثة إلى هذه التجربة البناءة بصدق عاطفي يسنده ذوق فني يدير النصوص على محوره الدقيق المرهف في أناة تكشف سر الحسن أو سواه ، حتى لا أعرف حكما صدر عن هذا الذوق على مثال في البحث أستطيع أن أرفضه ، سواء كان للشاعر أو عليه ، فالبحث من حقه أن يدخل البلاغة الحديثة عنصراً زاهياً من عناصر الإشراق وبعث الحياة .

العناصر اللامعة في الفصل الثاني

أقامت الناقدة بحثها على نقاط أولها وضع القاعدة الأولية للتكرار وهي « أن اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام ، وإلا كان لفظية متكلفة لا سبيل إلى قبولها ، كما أنه لا بد أن يخضع لكل ما يخضع له الشعر عموماً من قواعد ذوقية وجمالية وبيانية »(١) .

وقد ذكرت ألواناً للتكرار تحت هذه القاعدة العامة .

١ ـ أبسطها تكرار كلمة واحدة في أول كل بيت من مجموعة أبيات متتالية في قصيدة ، وهذا النوع لا ترتفع نماذجه إلى « مرتبة الأصالة والجمال إلا على يدي شاعر موهوب ، يدرك أن المعول في مثله لاعلى التكرار نفسه ، وإنما على ما بعد الكلمة المكررة ، بحيث يكون المكرر متين الارتباط بالسياق .

٢ ـ يلي تكرار الكلمة تكرار العبارة ، وهو أقل في الشعر المعاصر من تكرار الكلمة ، وقد لاحظت كثرة نماذجه في الشعر الجاهلي ، وشدة استدعاء ظروف الشاعر النفسية لهذا التكرار .

ومن هذا اللون تكرار البيت الكامل في ختام المقطوعة ، وهو لا ينجح في القصيدة التي تقدم فكرة عامة لا يمكن تقطيعها ، لأن البيت المكرر كالنقطة في ختام عبارة تم معناها ، يوقف التسلسل وقفة قصيرة ، ويهيىء لمقطع جديد .

كما أن منه تكرار كلمة أو عبارة معينة في ختام مقطوعات القصيدة جميعاً ، « وشرط هذا النوع من التكرار أن يوحد القصيدة في اتجاه يقصده

---

(١) قضايا الشعر المعاصر : ٣١

الشاعر وإلا كان زيادة لا غرض لها » .

٣ ـ تكرار المقطع كاملا ، وهو كتكرار البيت يقف المعنى ، ويهيىء لبدء معنى جديد ، وهو يحتاج ـ لطوله ـ إلى وعي كبير من الشاعر ، ويرفع قيمته السيكلوجية إدخال تغيير طفيف على المقطع المكرر ، ليمس برعشة من سرور المخاتلة نفس السامع . والخطوة الثانية في هذا التكرير المقطعي أن يقيم الشاعر هيكل المعنى في القصيدة على الارتباط بهذا التغيير ، الذي يتجدد في المقاطع المكررة تنويعاً للأصل ، حتى يتعلق التكرار بالبناء العام للقصيدة فيستحيل حذفه .

٤ ـ تكرار الحرف ، وهو نوع دقيق ، وجماله في شدة ارتباط الحرف بجمال الصورة ، بحيث لو حذف لفقدت الصورة الفرعية كثيراً من جمالها[١] .

(١) قضايا الشعر المعاصر ٣١ ـ ٤٠

الفصل الثالث

١ ـ **التكرار بالصفة الواسعة** التي نملكها اليوم في شعرنا موضوع لم تتناوله كتب البلاغة القديمة ، فقد تبع التطور الملحوظ في أساليب التعبير الناشئة بعد الحرب العالمية الثانية ، فبرز بروزاً يلفت النظر ، حتى اتكأ إليه الشعر المعاصر اتكاء متطرفا بعيداً عن الاتزان أحياناً ، وهذا يدعونا إلى بحثه على ضوء شعرنا المعاصر بحثاً يكمل به مكانه في البلاغة ، دون إغفال للقواعد القديمة وجوهر اللغة الصافي .

١ ـ الهندسة العاطفية :

أبسط قاعدة بالاستقراء نصوغ فيها التكرار هي أنه : إلحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها ، وذلك كامن في كل تكرار يخطر على البال ، وهو بذلك ذو دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس النص ، ويحلل نفسية كاتبه ، لأنه يضع في أيدينا مفتاح الفكرة المتسلطة على الشاعر ، أو هو هندسة عاطفية « للعبارة ، يحاول الشاعر فيه أن ينظم كلماته بحيث يقيم أساساً عاطفياً من نوع ما » .

٢ ـ الهندسة اللفظية :

القاعدة الثانية أنه يخضع للقوانين الخفية التي تتحكم في العبارة ، وأحدها قانون التوازن ، الذي ينبغي محافظة الشاعر عليه ؛ لأن « للعبارة الموزونة كياناً ومركز ثقل وأطرافا ، وهي تخضع لنوع من الهندسة اللفظية الدقيقة التي لا بد للشاعر أن يعيها ، وهو يدخل التكرار على بعض مناطقها »

« فتقرر أن التكرار يجب أن يجيء من العبارة في موضع لا يثقلها ولا يميل بوزنها إلى جهة ما » .

« هذان القانونان القائمان على الأساس العاطفي والهندسي للعبارة هما الشرطان الرئيسان في كل تكرار مقبول ».

٢ ـ دلالات التكرار التي يغني بها المعنى ويمنح امتدادات من الظلال والألوان والإيحاءات تظهر في ثلاثة أصناف من التكرار ، هي كما اقترحت الناقدة أسماءها :

(١) التكرار البياني

(٢) تكرار التقسيم

(٣) التكرار اللاشعوري .

(١) **التكرار البياني**: أبسطها، وهو الأصل في كل تكرار تقريباً، وإليه قصد القدماء بمطلق لفظ التكرار ، والغرض العام منه هو التأكيد على الكلمة المكررة أو العبارة ، وأساليبه جهورية تماشي الحياة العربية القديمة ، التي كان الشاعر فيها يعتمد على الإلقاء أكثر مما يعتمد على الحروف المكتوبة ليقرع الأسماع بالكلمة المثيرة ، ويؤدي الغرض الشعري » .

« ومن ثم فلا بد من ملاحظة الفرق بين هذه الجهورية ، وتلك الرهافة والهمس ، في تكراراتنا الحديثة ، التي يؤدي بها الشاعر معاني أكثر اتصالا بخلجات النفس والحواس » .

التردد : ومن معاني البياني« التردد » وكأنما تعني به الباحثة تكرار لفظ يسبق من تكراره الى ذهن السامع أو القارىء توقف المتكلم ، أو تلكؤه عن الاسترسال في تمام كلامه ، فكأنما نطق به المرة الثانية ليستجمع ويتغلب على تردده بعد نطقه الأول .

« وشرط هذا الصنف أن تحتوي الكلمة التي يتردد عندها الشاعر ، على ما يبرر تحرجه من التلفظ بها » .

٢ ـ تكرار التقسيم : وهو « تكرار كلمة ، آو عبارة ، في ختام كل مقطوعه من القصيدة » .

« ومن هذا الصنف نوع يرد فيه التكرار في أول كل مقطوعة « وهو » يؤدي وظيفة افتتاح المقطوعة ، ويدق الجرس مؤذناً بتفريغ جديد للمعنى الأساسي . الذي تقوم عليه القصيدة » ، وأكثر نجاحه في القصائد التي يمكن تقسيم فكرتها الأساسية إلى وحدات داخل الإطار الكبير ، لا «القصائد التي تقدم فكرة موحدة متسلسلة ، تبلغ قمة ثم تنحل وتتلاشى . لأن طبيعة هذا التكرار تتعارض مع الوحدة العامة للقصيدة » .

« ومن الوسائل التي تساعد على تكرار التقسيم ، وتنقذه من الرتابة ، أن يدخل الشاعر تغييراً طفيفاً على العبارة المكررة في كل مرة يستعمل فيها ، وبذلك يعطي القارىء هزة ومفاجأة » مع قوة التعبير وجماله ، وارتباط المكرر بما حوله للتغلب على الرتابة التي يضفيها التكرار إذا فقد قوته .

ومن مزاق هذا التكرار انتقاء العبارة المكررة على أساس غنائي ، فليس ذلك « أمراً مستحباً خاصة في تكرار التقسيم ، الذي يميل بطبعه إلى الغنائية » .

٣ ـ التكرار اللاشعوري : « لم يرد في الشعر القديم الذي وقف نفسه ـ فيما يلوح ـ على تعبير المحسوس والخارجي من المشاعر الإنسانية » .

ولعل مراد الناقدة : أنه تكرار للفظ أو لعبارة طفرت من العقل الباطن مع ذهول الوعي ، ولها في حياة الشاعر الوجدانية ماض عميق .

« وشرط هذا الصنف من التكرار أن يجيء في سياق شعوري كثيف يبلغ أحياناً درجة المأساة ، ومن ثم فإن العبارة المكررة تؤدي إلى رفع مستوى الشعور في القصيدة إلى درجة غير عادية » تغني الشاعر عن الإفصاح المباشر ، وتصل القارىء بمدى كثافة الذروة العاطفية عنده . « ويغلب أن تكون العبارة المكررة مقتطعة من كلام سمعه الشاعر ، ووجد فيه تعليقاً مريراً على حالة حاضرة تؤلمه ، أو إشارة إلى حادث مثير يصحي حزناً قديماً ، أو ندماً نائماً ، أو

سخرية موجعة » ويصحب هذا التكرار البتر أحياناً للألفاظ المكررة ، تعبيراً عن كثافة الدفقة الوجدانية وثقل وقعها على اللفظ .

« وقد يكون التكرار اللاشعوري من أصعب أنواع التكرار ، إذ يقتضي من الشاعر أن ينشىء له سياقا نفسياً غنياً بالمشاعر الكثيفة ، فإن الترجيع الدرامي لا يجيء إلا عبر عقدة مركزة ، تجعل من الممكن أن تفقد عبارة معناها فتروح تتكرر في حرية ، وقد تنبتر وتتشكل بمعزل عن إرادة الذهن الذي يعانيها » .

وقد ختمت الناقدة بحثها الذي أحسنت فيه التطبيق على اختياراتها من شعر العصر ، بالتحذير من أن يتخذ أسلوب التكرار عكازة لملء ثغرات الوزن ، لو لبدء فقرات جديدة ، أو اختتام قصيدة متحررة تأبى الوقوف ، وأملت في النقاد المتزنين الوقوف أمام مثل ذلك في صراحة وحزم يكفيان لردعه .

لقد رأيت لنفاسة هذا البحث حقا يوجب العناية بالتنويه به ، ورأيت ألا يحرم قارئي من إلمامة سريعة بأهم محتواه ، ولا غنى بهذا الموجز الخاطف عن الرجوع إلى الأصل ؛ الذي غنى غنى ذاخراً بسلامة الذوق في العرض وكمال الخبرة في التطبيق ، والتطبيق هو روح القانون ، في النص الذي يحيا فيه حياته الأولى المباشرة ، وهو أمر لا يستطاع هنا إلا بنقل الفصلين جميعا من كتاب نازك الملائكة « قضايا الشعر المعاصر » وإن كنت من قبل ومن بعد أعترف بأن الشاعر الشاعر تأبى قدراته وتدفق وجدانه الخضوع عند الإفضاء بما يحمل قلبه من خواطر مثارة ـ لقوانين وقوالب يضعها له النقاد ، وأن الشعر الشعر الذي هو فيض العاطفة في كل مواقفه ، يتخذ شكله وخصائص نظمه ومنها (التكرار) من قوة خفية ليست هي قواعد النقد ولا حدود البلاغة ، وإنما ينتفع بهذين الصانع المتمهر ، ومن يملك عند الإبداع الأكثر من الوعي والأقل من الوجدان .

وإذا كانت نازك الملائكة قد بحثت التكرار بروح أدبية نقدية ، فإن لدينا دراسات معاصرة للتكرار على أسس علمية ، لها كثير من الدقة الإحصائية وتنويع الأنماط ، ولكنها إن صدقت على الجانب الوصفي للشعر الذي طبقت

عليه ، تبعد في نظرنا عن القيمة الاستنتاجية التي يراها الباحث، وهي : أن الشاعر يعمد عمداً إرادياً إلى انتخاب حروف تتكرر بعينها في كل بيت على حدة يحدث تكرارها أصواتاً وإيقاعات موسيقية معينة ، ويعمد مثل ذلك إلى تكرار كلمات بعينها يتخيرها تخيراً موسيقيا خاصا لتؤدي بجانب دورها في بناء الصورة الشعرية إلى توفير إيقاع موسيقي خاص بكل بيت على حدة ، كما يعمد إلى توفير الحركات التي تتوالى متفقة أو مختلفة مع حركة الروي والقافية[1] ، ونحن إذا سلمنا للباحث عن طريق التطبيق قوله في شعر زهير : إنه كان مفتوناً بالتكرار فتنة عظيمة، وهو تكرار كان يعقد فيه تعقيداً صوتياً كان يقصد إليه قصدا، بحيث نستطيع القول على أساس من استقراء دقيق لقصائد ديوانه المختلفة أن تكرار الكلمات والحروف والحركات هو المفتاح إلى موسيقى أشعاره ـ إذا سلمنا ذلك لا نسلم طرد الحكم بزهير والأعشى وأوس وطفيل على الشعر والشعراء عامة ، وقد يكون من عوامل التسليم أن قصائدهم حوليات ، كما يكون من عوامل عدم التسليم للتعميم ، أننا نجد هذه الأنماط التكرارية ذاتها في شعر البديهة ، الذي لا نتصور أن الشاعر يملك عند إنشاده وقتاً لانتخال المعجم وانتخاب الألفاظ والحروف والحركات انتخابا ذا عمد ، ولدينا من الأمثلة المسعفة ما أنشده « الفرزدق وقد رفع إليه سليمان بن عبد الملك أسيراً من الروم ليقتله ، فدس إليه بعض بني عبس سيفاً كهاماً فنبا حين ضرب به ، فضحك سليمان ، فقال الفرزدق ارتجالا في مقامه ذلك يعتذر لنفسه ، ويعير بني عبس ببنو سيف ورقاء بن زهير عن رأس خالد بن جعفر .

فإن يك سيف خان أو قدر أبي	لتأخير نفس حينها غير شاهد
فسيف بني عبس وقد ضربوا به	نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها	ويقطعن أحيانا مناط القلائد
ولو شئت قط السيف ما بين أنفه	إلى علق دون الشراسيف جاسد

---

(١) كتاب : قضايا الشعر في النقد العربي للدكتور إبراهيم عبد الرحمن، ومجلة الشعر ـ العدد الثامن سنة ١٩٧٧ بحث الدكتور يوسف نوفل .

ثم جلس وهو يقول :

ولا نقتُـل الأسـرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم[1]

ويمكن أن نستنتج من هذه الأبيات الأربعة القليلة ، عدد المرات التي تكررت فيها الحروف على هذا الوجه البياني :

الحرف	مرات التكرار	الحرف	مرات التكرار
النون والتنوين	١٩	الراء	٧
الياء المحققة	١٢	الهاء	٦
الهمزة	١١	العين	٤
الباء	١٠	الطاء	٣
السين	٩	الخاء	٣
الدال	٩	الشين	٣
القاف	٧	. . .	
اللام	٧		

وعلى التفصيل للتمثيل المجرد ، نرى في كل بيت منفرد تكرار هذه الأحرف :

الأول :

الهمزة في : إن ـ أو ـ أبي ـ تأخير .

الياء في : يك ـ سيف ـ حينها ـ غير .

الفاء في : فإن ـ سيف ـ نفس .

السين في : سيف ـ نفس .

الخاء في : خان ـ تأخير .

(١) العمدة : ١ : ١٨٩ .

ونرى في الثاني :

الباء في : بني عبس ـ ضربوا به ـ نبا بيدي .

السين في : سيف ـ عبس ـ رأس .

الراء في : ضربوا ورقاء ـ رأس .

الفاء في : فسيف .

الياء في : سيف يدي .

الواو في : وقد ـ زرقاء .

العين في : عبس ـ عن .

وفي البيت الثالث :

النون والتنوين في : الهند ـ تنبو ـ يقطعن ـ أحياناً ـ مناط .

اللام في : الهند ـ القلائد .

الكاف في : كذاك .

الهاء في : الهند ـ ظباتها .

الدال في : الهند ـ القلائد .

وفي الرابع :

الفاء في : السيف ـ أنفه ـ الشراسيف .

الهمزة في : شثت ـ أنفه ـ إلى .

السين في : السيف ـ الشراسيف .

الشين في : شثت ـ الشراسيف .

القاف في : قط ـ علق .

اللام في : لو ـ علق .

كما نرى ذلك التكرار الحرفي في الأبيات الأربعة موصول الكلمات أحياناً ومفصولها أخرى ، يستوي في ذلك ما كان المكرر فيه صوتياً محضاً إذ هو من بنية اللفظ ، أو صرفيا لأنه (مورفيم) يسبق اللفظ أو يلحقه كالحروف والضمائر وأشباهها .

ومما توالت كلماته في البيت الأول : الياء في : (يك سيف) والنون في (نفس حينها) والياء في (حينها غير) .

وفي الثاني : الباء في : (بني عبس) و (نبا بيدي) .

وفي الثالث : الكاف في : (كذاك) والباء (في تنبو ظباتها) والنون في : (أحياناً مناط) واللام في (القلائد) .

وفي الرابع : الواو في : (ولو) والنون في : (بين أنفه) وهي مع التنوين في : (علق دون) .

أما تكرار الألفاظ ، فالسيف وهو المثير ، قد تكرر ثلاث مرات ، بين التنكير والتعريف ، والإفراد والجمع ، ومادة الحدث المنسوب إليه ، كررت ماضية الزمن في (نبا) وحاضرته في (تنبو) لتأكيد وقوع الحدث في كل الأزمان في إطار التبرير الذي قامت عليه الأبيات . وقد نرى من التجانس الاستدعائي ـ كما في كل النسق ـ الجمع بين (أبي) (نَبَا) في البيتين الأول والثاني .

وأما تكرار الحركة ، فحسبنا منه أن نقول : إن الفتحة طويلة وقصيرة قد تكررت في البيت الأول ست عشرة مرة ، يتخللها الضم خمس مرات ، والكسر أربع مرات ، والسكون فيما عدا ذلك خضوعاً للتنوع القسري الذي يمليه الوزن العروضي من جهة والموسيقا العاطفية التي وفرها الخيال الثائر من ناحية ثانية .

بل إن بيتا واحداً استدركه عمر السعدي مرتجلا على البديهة ، يستثني فيه

النبي ﷺ من تعميم التفضيل ، في مدحته موسى الهادي - ليحمل من التكرار الحرفي واللفظي ما لا يمكن أن يقال : إنه أثر الانتخاب العامد للكلمات ذوات القيمة التكرارية .

مما أنشد الشاعر في مدحه الهادي :

يا خير من عقدت كفاه حجزته وخير من قلدته أمرها مضر

فقال موسى : إلا منْ يا بائس ؟ فوصل الشاعر كلامه على الفور بقوله :

إلا النبي رسول الله ؛ إن له فخراً وأنت بهذا الفخر تفتخر (١)

ثم انظر إلى مثل هذا التكرير في قول أبي نواس ، وقد ارتجله فور استثارة الخصيب إياه بقوله وهما في المسجد الجامع : أنت غير مدافع في الشّعر ، ولكنك لا تخطب . قال :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية أكول لحيات البلاد شروب
فإن يك باقي سحر فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

سترى الميم في : (منحتكم - مصر - من - رماكم أمير المؤمنين - فيكم) .

والنون في : (منحتكم - نصيحتي - من - ناصح - بنصيب - المؤمنين - بحية - أكول - فإنْ - فرعون - فإنَّ) .

والراء في : (مصر - رماكم أمير - سحر فرعون) .

والصاد في : (مصر نصيحتي - ناصح - بنصيب - عصا - خصيب) .

والباء في : (بنصيب - بحية - البلاد - شروب - باقي - بكف خصيب) .

والحاء في : (منحتكم - نصيحتي - ناصح - بحية - لحيات - سحر) .

---

(١) العمدة : ١ : ١٩٠ .

والفاء في : (فخذوا ـ فإن ـ فرعون ـ فيكم ـ فإن) .

واللام في : (أهل ـ ألا ـ المؤمنين ـ أكول لحيات البلاد) .

والكاف في : (منحتكم ـ رماكم ـ أكول ـ يك ـ فيكم ـ بكف) .

وهكذا نرى أن كثيراً منها على تتابع الألفاظ بلا فاصل . كما نرى تكرار المادة في (النصيحة) و (الناصح) وفي (حية) و (حيات) ثم التجنيس الاستدعائي بين (نصيب) و (خصيب) .

بحث التكرار في الشعر

ومن الدراسة العلمية للتكرار في الشعر على منهج علم الأسلوبيات اللغوي ، بحث دقيق للدكتورة فاطمة محجوب ، نشرته مجلة الشعر [1] يبدأ بمقدمة تبين أنماط التكرير في الشعر عند البلاغيين من الإغريق ، الذين نوعوه أنواعاً ثمانية بحسب الموقع من الكلام ، يتميز كل منها باسم على الوجه التالي :

١ ـ **أنافره** : **وهو** تكرار اللفظ أو العبارة في أوائل الأبيات المتعاقبة .

٢ ـ **أبيستروفي** : وهو التكرار في أواخر الأبيات المتعاقبة .

٣ ـ **سيمبلوس** : وهو التكرار في أوائل الأبيات المتعاقبة وأواخرها .

٤ ـ **أناديلوسيس** : وهو تكرار اللفظ أو العبارة الواقعة آخر البيت في أول البيت أو الأبيات التي تليه .

٥ ـ **أبيزوكسس** : وهو تكرار اللفظ أو العبارة تكراراً متعاقباً بلا فاصل .

٦ ـ **أنتيستروفي** : وهو تكرار الجملة مع قلب تعاقبها .

٧ ـ **بالبتوتان** : وهو تكرار اللفظ نفسه مع لواحقه المختلفة أو بحالات إعرابه المختلفة .

٨ ـ **هومو أتالوتان** : وهو تكرار الوحدة الصرفية نفسها (السوابق ، واللواحق ، والدواخل) مع اختلاف اللفظ .

وقد بينت الباحثة أن معظم هذه الأنواع توجد في شعرنا العربي ، وأتت لها

(١) مجلة الشعر ـ العدد الثامن سنة ١٩٧٧ ص ـ ٤٠ .

بأمثلة متعددة منه ، ثم انتقلت إلى الموضوع ذاكرة أن علماء (الأسلوبيات) اليوم لا يرون جدوى لهذا التنويع ، وإنما الجدوى في دراسة التكرار في إطار مبادىء علم اللغة الحديث وهو ما ستفعله .

ودخلت موضوعها ببيان منزلة التكرار من الفنون ، التي تقوم كلها على عنصري : التكرار والتنوع ، وكذلك الشاعر فهو يكرر أصواتا بعينها وهو بذلك يحقق لقصيدته النظم والبناء .

وهذا التكرار يقع من الشاعر لأصغر وحدة صوتية هي (الفونيم) [1] كما يقع لأكبر وحدة وهي الجملة أو الشطر ، وهو في الشعر الجيد له أهداف عدة منها : إحداث الأثر الموسيقي ، وتوكيد الألفاظ والمعاني .

والتأكيد بالتكرار ظاهرة لغوية كما تأتي في الشعر نراها في الكلام العادي ، إلا أنه عشوائي في الكلام العادي ، أما في الشعر « فيحدث التكرار وفقاً لأنماط معينة . ونحن في تحليلنا العلمي للمادة اللغوية لا نلقي بالا إلى ما يحدث عشوائياً ، وإنما ما نلتفت إليه ونوليه عنايتنا هو الأنماط ، فإذا وجدت الأنماط بدأنا في حصرها ، وتصنيفها ، وصياغة القوانين التي تتحكم فيها » .

وقد ساقت الباحثة قصيدة ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ‏ ‏ ‏ ‏ سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم

وهي واحد وأربعون بيتا رقمتها على التوالي ، رائية أنها خير مثال لتطبيق منهجها العلمي في دراسة التكرير ، الذي بدأت تحليله على المستوى الصوتي (الفونولوجي) [2] معنية ببيان الأنماط التكرارية للصوت ، مصنفة إياها في الأنواع التالية ، مستعينة بالتمثيل لها من القصيدة .

---

(١) الفونيم : هو الوحدة الصوتية التي تتكون منها مع مثلها الكلمة ، وتنطبق عندنا على حرف الهجاء . ويطلقون على الفونيمات « ذرات اللغة » لأنها اللبنات التي تتكون منها ألفاظها . ولكن بعض الحروف قد يتكون من فونيمة في بعض اللغات .

(٢) هو علم أصوات الكلام . (Phonology)

النوع الأول : تكرار صوت بعينه في أوائل الكلمات المتوالية ، ويعرف بالتجانس الاستهلالي ، وتحته كلمات تتجاور تجاوراً مباشراً ، وكلمات يفصل بينها عنصر أو أكثر ، والتجانس الاستهلالي إما صوتي بحت إذ الحروف المكررة من بنية الكلمة ، أو صرفي بحت حيث يكون المكرر وحدات (مورفيمات)[1] كالسوابق من الحروف ، أو صوتي صرفي ، بأن يكون أحد الحرفين من البنية والآخر وحدة صرفية .

النوع الثاني : تكرار الصوت داخل الكلمة نفسها صوتيا بحتا إذا كان من بنيتها ، أو صوتيا صرفيا بأن يكون أحد الحرفين من البنية والآخر وحدة صرفية . .

ويسوق الباحثة الاحتراسُ والتقصي إلى وجوب الحذر من اللبس الإملائي في تحديد المقاطع ، لتمييز التجانس عن غيره .

وبهذا التفصيل مع التمثيل للصوتي الصرفي بحرف اللام من لفظ « لأهل » « حيث إن اللام الأولى سابقة صرفية تفيد الجر ، واللام الثانية صوت من بنية الكلمة » نرى الباحثة تخالف المقرر عند النحاة وما جرى عليه عرفنا اللغوي من عد هذه السابقة كلمة برأسها ، والمسبوقة كلمة أخرى ، فهما عندها من (تكرار الصوت داخل الكلمة نفسها) .

النوع الثالث : تكرار الصوت عبر حدود الكلمتين المتواليتين ، أي : بين المقاطع ، وهو خلفي أمامي : متى كان أحد الحرفين آخر مقطع في الأولى ، والآخر أول مقطع في الثانية ، ويدخل ذلك التجانس الناشىء عن القلب والإبدال .

النوع الرابع : التجانس الخلفي : وهو تكرار الصوت الصامت الأخير من الكلمات المتوالية ، وقد يكون صوتياً ، أو صرفيا ، أو صوتيا صرفيا معاً .

النوع الخامس : التكرار المقطعي ، وهو تكرار مقطع أو أكثر ، ويكون

---

(١) يدخل في الوحدات الصرفية الحروف الرابطة والعاملة والضمائر اللاحقة للكلمات .

صوتياً بحتاً ، أو صرفيا ، أو صوتيا صرفيا أو نحوياً .

النوع السادس : تكرار الحركات التي يقع عليها النبر ، وبخاصة الحركات الطويلة لما تحدثه من رنين .

وقد أطنبت الباحثة في التجلية عن تكرار النغمة المسطحة والنغمة الهابطة ، ثم انتقلت إلى المستوى الصرفي في القصيدة ، فوجدت أن ابن الفارض يعمد إلى التأكيد بتكرار الوحدات الصرفية ، سواء كانت أصول كلمات ، أو لواحق ، أو أدوات ، ورسمت جدولا تكرارياً لعدد استعمال الضمائر في القصيدة (نحن ـ أنا ـ هم ـ هو ـ هم ـ أنا ـ أنت) ملتمسة أسباب الكثرة والقلة ، وضربت الوفير من الأمثلة لتكرار الأدوات على وجه التناسق . كما لم تنس تكرار الصيغ ، ومنها صيغة (فعل) التي رأته يأتي بها في تسعة وستين موضعاً من القصيدة ، مجتهدة في تعليل هذه الكثرة ، بأن النص يدور حول (خمر بلا كرم) فصيغة اللفظين كأنها الأساس لبناء نظمه .

والأكثر من هذا استقصاء أن الباحثة راحت تنظر على المستوى النحوي في تكرير التركيب ، الذي يتحتم فيه تكرير اللفظ نفسه أو الحرف .

وآخر الأنواع التي تناولها النظر « هو التكرار اللفظي الذي يستهدف التأكيد ويسهم في إحداث الموسيقا كغيره من الأنواع ، وردت ذلك التكرار عند ابن الفارض إلى الجناس :

« فاللفظ إما أن يتكرر كما هو ، أو يتكرر بعد أن تدخل عليه اللواحق ، أو تتكرر مشتقاته » وختام البحث إشارة إلى التكرار على مستوى المعنى (السيمانتيكي) [١] والقصيدة كلها تكرار ينمي فكرة واحدة حتى تصل إلى القمة ترسيخاً في ذهن السامع أو القارىء ، هي الاتجاه إلى طريق الله والخير العائد على من أخلص .

---

(١) نسبة إلى السيما تطيقاً أو السيمانتيكا وهو اصطلاح للبحث اللغوي من جهة الدلالة على المعنى .

والنتيجة المستخلصة هي قولها : « وإذ نستعيد بما أحصيناه في بحثنا هذا من أنماط التكرار ، يتضح لنا في النهاية : أن الأمر أولا وأخيراً يرجع إلى « الاختيار » .

أو « الانتقاء » ونقصد به اختيار الألفاظ ، فالشاعر ينتقي الألفاظ التي تحقق تكراراً في الأصوات ، وتكراراً في المقاطع ، وتكراراً في الوحدات الصرفية ، وتكراراً للتراكيب النحوية » .

ولا يسعني بعد هذا العرض لأصول بحثها ـ باستثناء الأمثلة ـ إلا أن أقول : إنه من وجهة النظر التي قام عليها بحث جدير بالتقدير ؛ لما بذل فيه من جهد وصبر واستقصاء ، ولكنه من وجهة النظر النقدية للأدب يُعَنِّي الدارس بلا كبير من الجدوى على ثقافته الفنية ، ثم إن هذه النتيجة ـ على ما أسلفنا ـ محل للنظر ؛ فإن الشاعر ـ في الأعم الأغلب ـ تخرج التجربة من لسانه أو قلمه مكتملة يحث بعضها بعضاً في الانطلاق ، بقوى كامنة فيه ، هي أقوى من انتباهه للتخير والانتخاب لكل هذه الأنواع ، ولا أحسب ابن الفارض إلا مدفوعاً بهذه القوة حين سجل قصيدته ، التي أخذت أنماط التكرير فيها ذلك البحث الممتع الدقيق . ولو شئنا أن نرى هذه الأنماط ذاتها في قصيدة مرتجلة ، أو خطبة على البديهة ، أو (موال بلدي) يهتف به شوق الرجل الأمي ـ لأمكن أن نراها ، وما أصدق ما يقول الجاحظ في الشعر القديم وشاعره ، وأراه ليس بعيداً عن أن يقال على كثير من الشعر الحديث وشاعره : « فكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو بعيره ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ـ فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا »[1] .

---

(١) البيان والتبيين: ٣ : ٥ ـ التجارية ١٩٢٦ .

وهذه حقيقة لا يعكر عليها أن جماعة من الشعراء في كل عصر يقفون من الشعر موقف التثقيف والتقويم ، فما أظنهم مع ذلك ينتبهون إلى كل هذه الأنماط يقدمونها قبل القول ، وإلا لفقدت أشعارهم أكثر مما حققوا لها : صدق التعبير عن الوثبة العاطفية المثيرة للإنشاد ، وظهرت باردة جامدة مهما كانت جودة التنسيق وتوفير الأنماط .

وتأكيداً لما قررت من قبل أقول : إن البحوث العلمية للتكرير قد بلغت الغاية في الدقة والتقصي ، والتقسيم والتفهريع ، فاستحقت بذلك أن يعرف قدر القائمين عليها من الحصانة والصبر ، ولكن الدراسة الأدبية للموضوع وإن وسمتها البساطة والجنوح إلى اليسر ـ هي أجدى على دارس النص الأدبي من الوجهة الجمالية ، التي ليس التكرير إلا عنصراً واحداً من عناصر الحسن فيها ، ولكل فن مذهبه ، وإنما سقنا حديثنا ذاك تماماً للجولة ، وتنويها بالجهود الكبيرة(١) المبذولة في موضوع بحثنا ، توكيداً لمكانه من البيان الإنساني عامة ومن فنون البلاغة خاصة . ومن الله نستلهم الرشد ونستعين للتوفيق .

---

(١) يرى من يريد الزيادة في أعداد مجلة (فصول) كثيراً مما يتعلق بدراسات التكرير بأقلام كبار الباحثين .

الكتب المساعدة

١ ـ أبو العتاهية أخباره وشعره لمحمد محمود الدش . القاهرة ، دار الكاتب العربي .

٢ ـ الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي . ت . محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٤ .

٣ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة لأبي الحسن علي بن محمد عز الدين بن الأثير . القاهرة ، دار الشعب . ـ ١٩٧٣ .

٤ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر . القاهرة ، المنار .

٥ ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البطليوسي ، بيروت ، دار الجيل ـ ١٩٧٤ .

٦ ـ أنوار الربيع لابن معصوم ت . السيد علي صدر الدين ـ النجف ١٩٦٩

٧ ـ البرهان لبدر الدين الزركشي ت . محمد أبو الفضل ، القاهرة ، الحلبي ، ١٩٧٦ .

٨ ـ بغية الايضاح ـ عبد المتعال الصعيدي .

٩ ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامة . القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ط ٢ ـ ١٩٥٢ .

١٠ ـ البلاغة الغنية لعلي الجندي .. القاهرة ، بدون تاريخ .

١١ ـ بلوغ الأرب لمحمد شكري الألوسي. القاهرة، دار الفكـر العربي.

١٢ ـ البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت . عبد السلام محمد هارون . القاهرة ، الخانجي ، ط ٣ ، ١٩٦٨ .

١٣ ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ بلاشير ، ت . ابراهيم كيلاني ، بيروت .

١٤ ـ تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ت السيد أحمد صقر . القاهرة ، دار التراث ،ط ٣ ـ ١٩٧٣ .

١٥ ـ تحرير التحبير لابن أبي الأصبع المصري .ت. حفني محمـد شرف. القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

١٦ ـ التعازي والمراثي لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٦ .

١٧ ـ تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، ت . محمد علي النجار . القاهرة . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

١٨ ـ تيسير الوصول إلى جامع الأصول لعبد الرحمن بن علي بن الديبع الشيباني ، القاهرة ، الحلبي ـ ١٩٣٤ .

١٩ ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر ، ت . محمد زغلول سلام وزميله ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ١ .

٢٠ ـ الجامع الكبير لضياء الدين بن الأثير .

٢١ ـ جنان الجناس للصفدي .

٢٢ ـ الحديث النبوي من الوجهة البلاغية للدكتورعز الدين علي السيد.

القاهرة ، المحمدية ـ ١٩٧٣ ، ط ١ .

٢٣ ـ الحيوان للجاحظ ، ت . عبد السلام هارون ، القاهرة ، الخانجي .

٢٤ ـ خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصبهاني الكاتب .
ت . محمد بهجة الأثري ، بغداد ، وزارة الأعلام ، ١٩٧٣ .

٢٥ ـ خزانة الأدب لابن حجة ـ الخيرية .

٢٦ ـ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ، ت . محمد علي النجار ، القاهرة ، دار الكتب ـ ١٩٥٦ .

٢٧ ـ الذيل والتكملة لمحمد بن محمد عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي ، ت . د . إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة .

٢٨ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، القاهرة ـ الرحمانية ، ١٩٣٢ .

٢٩ ـ شرح الملوكي لموفق الدين بن يعيش .

٣٠ ـ شروح التلخيص ـ مطبعة السعادة ، ١٣٤٢ هـ .

٣١ ـ الشعر والتأمل لروستريفوز هاملتون ، ت . محمد مصطفى بدوي . القاهرة . وزارة الثقافة ـ ١٩٦٣ .

٣٢ ـ الصاحبي لابن فارس ، القاهرة ، السلفية ـ ١٣٢٨ هـ .

٣٣ ـ صبح الأعشى لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي ، القاهرة ، سلسلة تراثنا ، بدون تاريخ .

٣٤ ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري ـ القاهرة ـ مختلفة .

٣٥ ـ الطراز ليحيى بن حمزة العلوي ، القاهرة ، المقتطف ـ ١٩١٤ .

٣٦ ـ العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، ت . محمد سعيد العريان ، القاهرة ، التجارية ، ط ١ ، ١٩٤٠ .

٣٧ ـ العمدة لأبي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، ت . محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الجيل ، ط ٤ ـ ١٧٧٢ .

٣٨ ـ عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، القاهرة ، سلسلة تراثنا ـ ١٩٦٣ .

٣٩ ـ فقه اللغة وخصائص العربية للدكتور محمد المبارك ، دار الفكر ١٩٦٨ .

٤٠ ـ فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي ، القاهرة ، الحلبي ، ١٩٣٨ .

٤١ ـ فقه اللغة د . على عبد الواحد ـ السلفية .

٤٢ ـ فن الجناس لعلي الجندي .

٤٣ ـ قضايا الشعر المعاصر لنازك الملائكة ـ الطبعة الأولى .

٤٤ ـ الكشاف للزمخشري ، ط . دار الكتاب العربي ، وط . التجارية .

٤٥ ـ لباب الآداب لأسامة بن منقذ ، ت . أحمد شاكر ، القاهرة ، الرحمانية ـ ١٩٣٥ .

٤٦ ـ اللغة الشاعرة لعباس محمود العقاد . القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٦٩ .

٤٧ ـ لغة الهمس للدكتور مصطفى أحمد شحاته ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ـ ١٩٧٢ .

٤٨ ـ مبادىء علم النفس العام للدكتور يوسف مراد ، القاهرة ، دار المعارف .

٤٩ ـ مبادىء النقد الأدبي لرتشاردز . ت . د . مصطفى بدوي ، القاهرة ١٩٦٣ .

٥٠ ـ المثل السائل في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ، القاهرة ، طـ ١ ، ١٩٣٥ .

٥١ ـ المحاسن والأضداد للجاحظ ، ت . فوزي عطوي ، بيروت ، الشركة اللبنانية للكتاب ١٩٦٩ .

٥٢ ـ مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني ، ت . محمد محيي الدين ـ ط . صبيح .

٥٣ ـ مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ، ت . محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، نهضة مصر ، بدون تاريخ .

٥٤ ـ المزهر للسيوطي ، ت . محمد أحمد جاد المولى وغيره ـ القاهرة الحلبي ، ط ١ ، ط ٢ .

٥٥ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، ت . علي محمد البجاوي ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٩٦٩ .

٥٦ ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ، ت . محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦ .

٥٧ ـ منهج البحث في اللغة للانسون ت ـ د . محمد مندور ، بيروت ، دار العلم للملايين .

٥٨ ـ نفحات الأزهار على نسمات الأسحار لعبد الغني النابلسي ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٥٩ ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه لسيد قطب . ط ١٩٦١

٦٠ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري . القاهرة ، دار الكتب ، مختلفة .

٦١ ـ النوادر في اللغة لابن ثابت الأنصاري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ ، ١٩٦٧

دوريات

١ ـ العدد السادس من مجلة الشعر سنة ١٩٧٧ م

٢ ـ العدد الثاني من مجلة المورد سنة ١٣٩٦ هـ

هذا ، عدا دواوين الشعراء ومجموعات الشعر المختلفة ، والله الموفق .

فهرس المواضيع